عدد خاص بمناسبة ذكرى استشهاد سيد قطب (أغسطس١٩٦٦م)

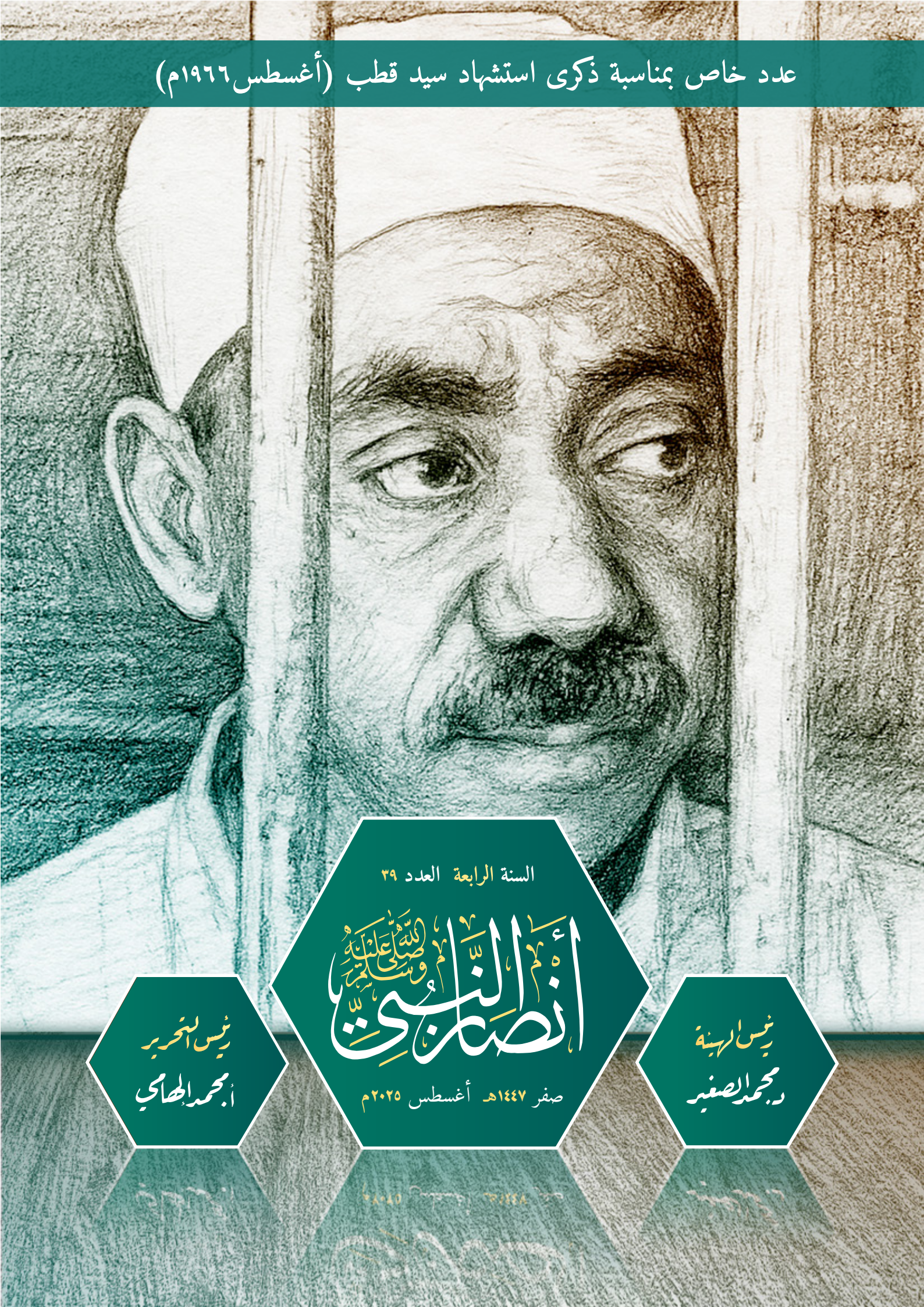

السنة الرابعة العدد ٣٩

أنصار النبي ﷺ

صفر ١٤٤٧هـ أغسطس ٢٠٢٥م

رئيس الهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
أ. محمد الهامي

مجلة أنصار النبي ﷺ

تصدر عن

الهَيئَةُ العَالمِيَّةُ لأنْصَارِ النَّبِيِّ ﷺ
International Organization Of Sopporters Of The Prophet

أهداف الهيئة

تضع الهيئة هدفها الرئيسي على هذا النحو:

«أن يكون جناب النبي ﷺ مصوناً محترماً، وأن تكون الإساءة إليه مجرمة قانوناً في سائر أنحاء العالم» وهو الهدف الكبير الذي يحتاج إلى عمل ضخم ودؤوب على كافة المستويات.

وقبل الوصول إليه لا بد من إنجاز مراحل مهمة في التعريف بالنبي ﷺ، كذلك لا بد من إنجاز مراحل مهمة في حشد الجهود مع المسلمين والعقلاء من غير المسلمين لتجريم الإساءة إلى النبي ﷺ قانونياً في البلدان المختلفة، وهو الأمر الذي يتطلب خبرات متنوعة عالية المستوى.

السياسة العامة لعمل الهيئة

إن قضية نصرة النبي ﷺ قضية كبيرة لا يمكن أن تنهض بها جهة واحدة مهما بلغت من القدرات والإمكانيات، وكذلك فإن «الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ» اختطَّت لنفسها سياسة عامة تقوم على تفعيل الطاقات الإسلامية واستثمارها والتنسيق بينها، بحيث تبلغ المجهودات المبذولة في نصرة النبي ﷺ أقصى نتائج ممكنة.

تضع الهيئة نفسها في موضع التنسيق والتنظيم بين المؤسسات الإسلامية المختلفة لتأدية واجب نصرة النبي ﷺ، فهي تعمل -على سبيل المثال- على استثمار طاقة الجاليات الإسلامية المقيمة في البلاد المختلفة لحصر أهم الشبهات والقضايا المثارة عن النبي ﷺ والتي تحتاج مجهودا علميا وفكريا لتفنيدها، ثم تعمل على حث طاقة المؤسسات العلمية من الجامعات الإسلامية والمعاهد والأكاديميات والروابط العلمائية على معالجة هذه الشبهات، ثم تعمل على تحويل هذا المجهود الفكري والعلمي إلى معالجات فنية متنوعة: مقروءة ومسموعة ومرئية قريبة إلى لغة العصر والمزاج العام السائد لدى الرأي العام المعاصر، وذلك عبر حث الطاقات القائمة في مجال الإعلام والإنتاج الفني لدى المؤسسات الإسلامية على معالجة هذه الأفكار. تستثمر هذه الأطراف جميعها طاقاتها الموجودة فعلاً في تسويق المنتجات النهائية.

وبهذا تتوجه المجهودات والطاقات القائمة نحو هدف نصرة النبي ﷺ بطريقة فعالة ومنسقة، حيث تؤدي كل جهة دورها الذي تحسنه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

محتويات العدد

٩ رحلتي مع سيد قطب
د. محمد الصغير

١٧ سيد قطب: وُضع له القبول
محمد إلهامي

٢٨ كيف نقرأ فكر الأستاذ سيد قطب؟
الحسن بن علي الكتاني

٣٩ شهيد الظلال.. دقيقةُ إنصَاف!
عماد إبراهيم

٤٦ أين سُنة الله في نصرة المظلوم
الشيخ محمد بن محمد الأسطل

٥٤ آيات النصر بعظيم الصبر (٢/١)
الشيخ حسن الخطيب

٦٢ نهاية الجهاد وخاتمته
عبد القادر مهدي أبو سنيج

٧٠ رب يضحك
د. أحمد شتيوي

٧٩ النصب والرفض وجهان لعملة واحدة
د. حسين عبد العال

٨٧ العظمة النبوية في التواصل والإقناع (٢)
د. محمود عبد الغفار

بصيرة

كيف أسلمنا

٩٦ لم أجد قلبي في الكنيسة!
كارلوس موانزا

١٠١ شهيد الظمن سكون الجبل إلى نورِ الإسلام
فيكتور سيلفا

١٠٤ ابني... كان سبباً في إسلامي!
سيرج بونغو

١٠٧ الاختفاء الذي غيّر كل شيء
سيلفيستر مابيكا

١١١ الشفاء الذي جاء من السماء
الدكتورة سارة رافالو

سفراء النبي

مقالات سفراء الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

١١٦ سيّد قطب المُلهِم المظلوم
د. سليمان بن عمّار الأحمر الأنصاري

١٢٨ سيد قطب في ظلال القرآن (١)
أ.د. خير الدين خوجة الكوسوفي

١٣٧ أديان باطلة (١)
فرج كُندي

١٤٨ معجزاته ﷺ في تكثير الماء
أ.د. جمال بن عمار الأحمر الأنصاري

١٥٦ سوريا الجديدة والنهضة الدعوية
الشيخ جلال الدين حمصي

أئمة الهدى

من تراث العلماء والدعاة والشهداء الراحلين

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾
سيد قطب ١٦٨

قصة اليهود مع نبينا محمد ﷺ
سيد قطب ١٨٣

اليهود هم اليهود
سيد قطب ١٧٥

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾
سيد قطب ١٩١

الصادعون بالحق

من تراث العلماء والدعاة الأسرى

سيد قطب في الميزان
د. سلمان العودة ٢٠١

بين لثامٍ ولثام (٢/٢)
قسام البرغوثي ٢١٧

أحسن القصص
أبو البراء محمود عيسى ٢٠٧

المنصفون

من تراث غير المسلمين الذين أنصفوا النبي

أثر سيد قطب في الصحوة
يوجين روجان ٢٣٠

قطب في ضمير عزام
توماس هيجهامر ٢٤٢

بريد القراء

مساحة خاصة لمقالات قراء المجلة الكرام

قراءة نبوية لمسيرة المقاومة
علي جاد المولى ٢٥٤

طوفان الأقصى تدبير رباني
رضوان كسابي ٢٦٦

ترحب مجلة « أنصار النبي ﷺ » بمشاركات السادة القراء الكرام على هذا النحو:

١ كتابة المقال، وأن يكون مقالاً لا تنقصه الرصانة العلمية ولا العاطفة الدعوية، على ألا يتجاوز في أقصى الأحوال ١٥٠٠ كلمة، مذيلاً بالاسم الحقيقي لصاحبه.. ويتعلق بموضوع المجلة عن التعريف بالنبي ﷺ وشمائله وفضائله وأخلاقه ورحمته بأمته والتذكير بحقه وواجبات الأمة نحوه، والدفاع عن سنته ومحبة آل بيته وصحابته، ورد الشبهات عنه.

٢ ترشيح مادة كتبها عالم من العلماء الراحلين، أو من المؤسسات الإسلامية العريقة كالأزهر في مصر وهيئة كبار العلماء في الجزيرة وندوة العلماء في الهند تتعلق بموضوعات المجلة.. مع التوثيق الدقيق لهذه المادة: في أي كتاب أو مجلة نشرت بالصفحة وتاريخ الطبعة، أو رابط المادة على الانترنت.

٣ أو ترشيح مادة كتبها أحد العلماء والدعاة الأسرى فيما يتعلق بموضوع المجلة، مع التوثيق الدقيق لمصدرها.

- تفريغ مادة صوتية لأحد العلماء -الراحلين أو الأسرى- مع توثيق مصدرها.

- ولا نستغني أبداً عن مجهود القراء ومساعدتهم في نشر المجلة أو في ترجمتها إلى لغات أخرى أو في طباعتها وتوزيعها في بلدانهم، فحقوق الطبع والتوزيع محفوظة لكل مسلم.

ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني التالي : ansarunaby@gmail.com

بشرى
للأمة الأسلامية

أول مركز إلكتروني مستقل
للفتوى الشرعية

مركز أنصار النبي ﷺ
للفتوى والإرشاد
"دار الإفتاء الإلكترونية"

أهداف المركز:

01 تسهيل الوصول للفتوى الموثوقة

02 سرعة الرد على الفتاوى

03 مواجهة الفتاوى المشوهة

04 نشر الوعي الديني الصحيح

مركز

القبة الخضراء
لحفظ السنة النبوية

المشرف العام على المركز:

أحمد الحسني الشنقيطي

للتسجيل

القبة الخضراء
لحفظ السنة النبوية

@sunnasaving

البشارة الشهرية

يوليو 2025

1358

حديثا حفظها الطالب

محمد محمود شيخنا

سيد أحمد حيث أتم

حفظ كتاب بلوغ المرام كاملًا

1200 +

حديثًا تم حفظهم

من الطلبة والطالبات

عُقد مجالس سماع للأربعين النبوية

في ولايتي أنقرة وسامسون واسطنبول

لأكثر من 600 طالب من أكثر

من 11 دولة مختلفة

د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

الافتتاحية..

رحلتي مع سيد قطب

في التاسع والعشرين من أغسطس القادم تحل ذكرى استشهاد الأستاذ سيد قطب، الذي ارتقي عام ١٩٦٦م بعد محاكمة صورية سرع جمال عبد الناصر من إجراءاتها وأمر بتنفيذ الحكم مباشرة، لاسيما بعد تعدد الوساطات الدولية، وأصبح تاريخ إعدام سيد قطب هو بداية ميلاد مرحلة جديدة، أصبح هو سيدها وقطب رحاها.

حتى في الفترة التي فترت فيها علاقة الإخوان المسلمين بأفكار الأستاذ سيد، جاء الربيع العربي فجدد العهد معه، وأنهى الربيع فترة الخريف والجفوة التي كانت، وظهر للمحب والشانئ أن زهرات التغيير التي تفتحت، والبعث الثوري الذي تمدد، إنما اقتات على أفكاره ونظرياته، وحتى بعد إخفاق ربيع التغيير في جولته الأولى، ظل اسم سيد قطب وفكره في واجهة المشهد، حتى أنني رصدت العقد الماضي أنه ما مر عام بعد عودة أنظمة الحكم القديمة، وانقلابها على ثورات التغيير، إلا والأستاذ سيد هو الاسم الأكثر تدوالاً «ترند» في وسائل التواصل كلما حلت ذكرى استشهاده، وما وجدت نظيرا لذلك أو قريباً منه مع أحد غيره.

كما أن المكانة التي أحرزها لم يتقدم لملء فراغها أحد حتى الآن وربما يستمر ذلك حتى تمام مائة سنة على استشهاده، ويشهد لذلك أن ما كُتب عنه من أبحاث ومؤلفات ورسائل علمية، قَلّما توفر مثله لأحد من أترابه أو رموز جيله، ولذا اخترتُ أن أكتب عني مع سيد قطب، لأنه الباب الذي أوقن أنني لم أُسبق إليه.

أولاً: بداية معرفتي بسيد قطب

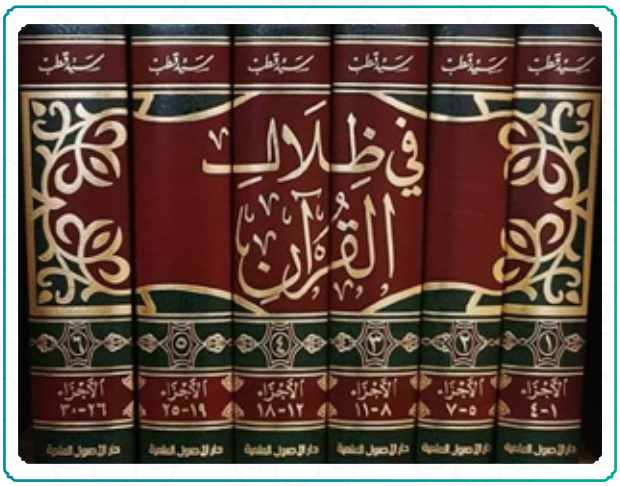

كانت البداية من سماع اسمه على ألسنة الخطباء والمدرسين من أبناء الحركة الإسلامية، والاستشهاد بمواقفه وكتاباته في المواقف المختلفة، ثم كانت معرفتي بسِفره العظيم حول تفسير القرآن الكريم، الذي أسماه: (في ظلال القرآن)، وذلك في مكتبة شيخنا

الأول ومعلمنا الأكرم فضيلة الشيخ عوض أحمد عبد الرحيم، الذي شعرت منه أن تفسير الظلال أحد أهم الكتب في مكتبته، ومع أزهريته القحة وعدم حفاوته بمؤلفات التيار الإسلامي إلا أنه كان يتعامل مع الظلال على أنه الروضة التي يستروح فيها والواحة التي يأوي إليها، فكان إذا حزبه أمر فزع إلى القراءة، وكان يقول: الحريري «صاحب المقامات» وسيد قطب كلاهما قادر على أن يأخذني مما أنا فيه، وينقلني إلى عالمه. وكان إذا أراد الوقوف على تفسير آية تنقل بين كتب التفسير، كالجمل على الجلالين وأبي سعود وغيرهما، ثم يكون مسك الختام مع الشيخ سيد قطب رحمه الله.

وعلمت من أحد رفقاء فضيلة الشيخ عمر عبد الرحمن، أستاذ التفسير بالأزهر الشريف، أنه كان على السنّة نفسها، وكان يقول لرفقائه بعد التطواف على كتب المفسرين: «عايزين نحلّي بالظلال». أي: حلاوة الختام.

الشيخ عمر عبد الرحمن

ثانياً: في مرحلة الثانوية الأزهرية

وفيها بدأت أخطب الجمعة، والخطيب المبتدئ الأيسر عليه أن يجعل خطبته حول حديث نبوي فيشرحه، أو آيات يذكر تفسيرها، فأدركت مبكراً أن ما أبحث عنه من المعاني أو ما أريد إيصاله من رسائل، لا أجده من أيسر طريق إلى في تفسير الظلال، فاستقر في خَلَدي أنه يكفيني عن غيره، ولا يسد غيرهَ مسدّه، لذا كان من أوائل الكتب التي اقتنيتها، وكانت الطبعة المشهورة ستة أجزاء من القطع الكبير، وجلدها باللون الأسود، وكان والدي

-رحمه الله- يدرك أنني سأخطب الجمعة وأنها ربما تثير القلاقل إذا رأى نسخة الظلال في يدي؛ فيقول: «كلما رأيت هذا المجلد (الأسود) عرفت أن الخطبة مش هتعدي على خير»!

ثالثاً: في مرحلة الجامعة

أ. د. محمد إبراهيم الجيوشي

كنا آخر مَن درس في الجامع الأزهر على الطريقة القديمة، حيث كنا نتحلق إلى شيخ العمود من أساتذة كلية الدعوة الإسلامية -عليهم سحائب الرضوان- وكان عميد الكلية أ. د. محمد إبراهيم الجيوشي، وهو من أساطين الأزهر الشريف رحمه الله، وكان مهتماً بتكوين الذائقة الأدبية لدى طلابه، فقرر علينا مادة تُعنى بذلك، تحت عنوان: (أساليب) وكان في شرحه يلفت الأنظار إلى الأسلوب الفريد الذي يكتب به سيّد قطب، ويكرر كثيراً مدحه لكتاب (التصوير الفني في القرآن الكريم)، ويرى أن هذا الباب من العلم أول مَن طرقه وأرشد الناس إليه هو صاحب الظلال، رحمه الله.

كانت كلية الدعوة الإسلامية نمطاً فريداً في مكانها وأساتذتها، وانعكس ذلك بالطبع على طلابها، الذين توافق أن يكون أكثر أبناء الحركة الإسلامية منهم، وكانت لنا خطة في عرض القضايا الفكرية في المحاضرات، عن طريق فقرة الأسئلة مع الأساتذة، ولا أنسى هذا اليوم الذي كان فيه أستاذنا د.حلمي عبد المنعم صابر -رحمه الله- على كرسي الأزهر، وخلفه المحراب وعن يساره المنبر، فسألته عن مؤلفات سيد قطب فقال: «لا أقرأ له». فتعجبنا ثم ابتسم قائلاً: «لأن كلمات سيد كلما قرأت له وخزت ضميري، وشعرت أن سوطا يلهب ظهري، وصوتا يملأ أذني يهتف بي قم فاصنع شيئاً».

كان د. حلمي وجيهاً أنيقاً، مما حببنا في الزي الأزهري، ومنحني الدرجة الكاملة ١٠٠% في مادة: تاريخ الخلفاء.

ثم درّسنا أيضاً فضيلة مولانا الدكتور محمد البري، وقد كتبت عنه كثيراً، وهو أحد معالم الطريق في حياتي، وكنا نعرف انتماءه إلى سيد قطب ومدرسته، وكنت في الامتحان الشفهي أقول لزملائي إذا سألنا الدكتور البري في التفسير لن نأخذ الدرجة الكاملة لو ذكرنا كل كتب التفسير ولم نستشهد له بـ(ظلال القرآن).

واكتمل المثلث الدعوي عندي بأستاذنا د. حسن يونس عبيدو، الذي درّسنا مادة التفسير في الكلية، وكنا نتتبع خطبه في المساجد وكأنها قراءة في صفحات الظلال، وروحاً من روح كاتبها.

ثالثاً: رحلة الهجرة الأولى إلى ألمانيا

وذلك بداية من عام ٢٠٠٠م، وفي مدينة (آخن) الشهيرة، كان مركزها الإسلامي برعاية أستاذنا الشيخ عصام العطار، يقيم مؤتمراً سنوياً لتكريم العلماء في حياتهم، وعقد مؤتمراً لتكريم الأستاذ الكبير محمد قطب بحضور كوكبة من العلماء والدعاة، وألقى الأستاذ المحاضرة الرئيسة، والتي خلت من أي ذكر للأستاذ سيد قطب، فغلى من ذلك صدري، وطلبت التعليق وقلت ما اعتمل في نفسي، وذكرت للأستاذ: أنه يندر أن تخلو محاضرة لأحد من الإسلاميين من ذكر سيد قطب ولم نسمعك تذكره بشيء!

وإذا بمقدم المحاضرة يقول: هذا السؤال تكرر فيما وردني من أسئلة مكتوبة!

وإذا بالأستاذ محمد قطب يقول: عن أي سيد تريدونني أن أتحدث؟ عن سيد قطب أخي؟ أم عن سيد أبي؟ أم عن سيد شيخي وأستاذي؟ ثم انهمر في البكاء، حتى قلت ليتني ما سألت.

رابعاً: في الهجرة الثانية

التي بدأت في ٢٠١٤م، ومع كثرة التجوال الدعوي في محافظات تركيا المختلفة، ما وجدت الأتراك يذكرون عالماً كما يذكرون سيد قطب، وفي غيرها من الدول إذا قلتُ أنا من مصر، فمنهم من يقول لك بلد النيل، الأزهر، الأهرامات، حسب ثقافة المتحدث واهتماماته، أما عامة أهل تركيا فالثالوث المصري «نيل- أزهر- أهرام» مختزل في سيد واحد: هو سيد قطب!

وكنت قبل شهور في زيارة لمدرسة علمية في ولاية ديار بكر التركية، وفي غرفة الأساتذة يجلس بعض الطلاب لتقديم الإكرام والضيافة، ولكني لاحظت أن واحداً منهم لا يشاركهم الخدمة، فسألت عن سبب ذلك، فقال أحد الأساتذة سَل الولد عن اسمه وستعرف السبب، فقال لي: اسمي «سيد قطب» اسم مُركب. فقال الأستاذ: لذا نحن نستحي أن ننادي عليه، كيف يستقيم أن نقول أحضر الماء يا سيد قطب؟

فقبّلت رأسه ودعوت له ولوالديه!

لقد درس سيد قطب في كلية (دار العلوم)، في الوقت نفسه الذي درس فيه الإمام حسن البنا، لكن لم يجمعهما إطار واحد، وانضم سيد قطب للإخوان بعد استشهاد البنا بسنوات، ولا أرى تعارضاً في مسلك الرجلين المجددين، فكلاهما أدى الواجب الذي عليه، وما تطلبته مرحلته.

فإني أشبّه ما قام به البنا من البناء والتأسيس بمن صنع سيارة واستكملها على وجهها «الحسن»، لكن المنيّة عاجلتْه قبل اختيار المحرك المناسب «الموتور»؛ فجاء سيد قطب فوضع هذه اللّبِنة، واختار المحرك الذي يقوم بهذا الجسم الكبير، لكن هناك من أصر على أن تبقى السيارة على حالتها الأولى، والاكتفاء بمحرك يحافظ على السيارة وإطاراتها من التلف، أو من اكتفى بالجلوس على مقعد القيادة دون تشغيل المحرك الأصلي تفادياً لصوته العالي.

ختاماً

كل من يعرفني عن قُرب يعرف شغفي بسيد قطب، وأنني لا أقدّم عليه أحداً من المعاصرين، كما أنني لا أرى لشيخ الإسلام ابن تيمية عديلاً في السلف السابقين، وإذا أردتُّ تقريب المسألة لأذهان أهل هذا الزمان قلت لهم: سيد قطب بين الكُتّاب والمفكرين كالشيخ محمد صديق المنشاوي بين قراء القرآن الكريم.

رحم الله الجميع وجمعنا به عليين!

مؤلفات

الدكتور محمد الصفير

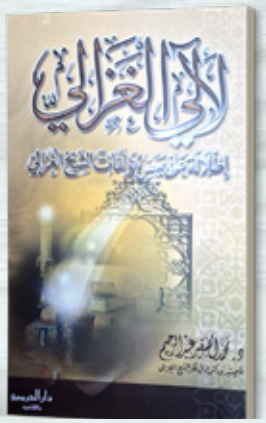

rawpixel

محمد إلهامي (رئيس التحرير)

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

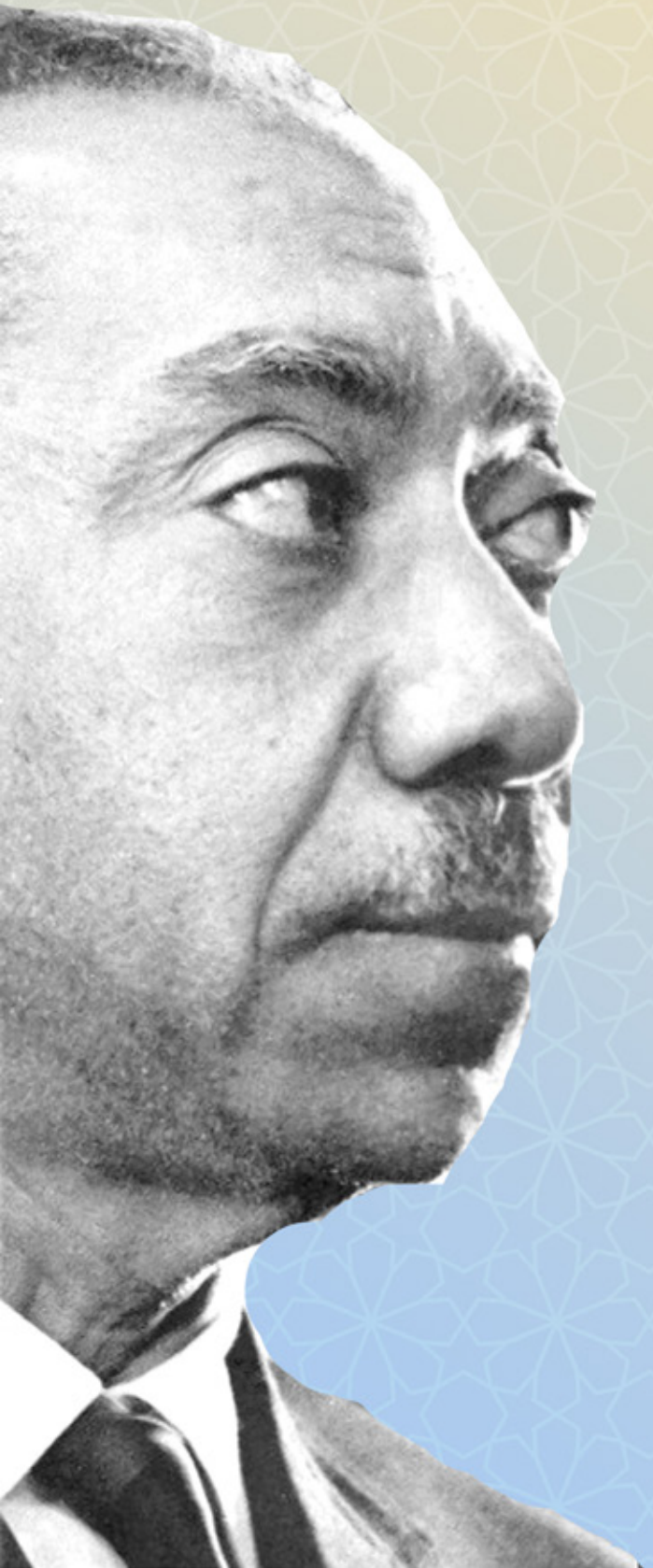

سيد قطب

وُضِع له القبول في الأرض

سيد قطب.. رجل عاش القرآن بروح عالية وفكر محلق، ثم سكب معانيه بقلم أديب مشرق..

ثم قدم روحه ثمناً لكلماته، فكساها ألق الشهادة ورفعها لمرتبة السيادة.. فسيد الشهداء رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله..

١

لست أعرف رجلاً وُضع له القبول في الأرض بين المسلمين على اختلاف بلادهم واتجاهاتهم كما هو الحال في الشهيد القرآني سيد قطب رحمه الله، فإن المسلمين وأهل العلم يُعَظِّمونه في بلادٍ ما أشد التباين بينها في فهم أهلها للإسلام وفي أخذهم به!

وأسوق على ذلك أقرب الأمثلة؛ فإن سيدًا كان مُعَظَّمًا في مصر والجزيرة العربية وفارس وأفغانستان وتركيا، وما أعجب هذا وما أغربه! فكيف يجتمع في تعظيمه أهل البيئة السلفية مع أهل البيئة الشيعية مع الأحناف الصوفية الأشاعرة والماتريدية؟!

لقد ترجم كتبه إلى الفارسية رأس الشيعة: علي خامنئي، وأرسل يتشفع فيه رأس السلفية: عبد العزيز بن باز، وكانت تطبع كتبه في البلدين العدوّين المختلفين في كل شيء: السعودية وإيران!!

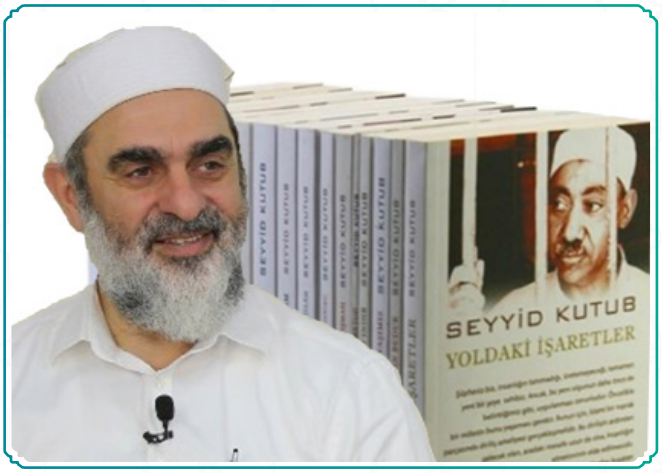

وفي تركيا، حدثني الشيخ نور الدين يلدز، وهو ممن ترجم كتب سيد قطب إلى التركية أن الناس في تركيا، وفي الزمن العلماني الذي كاد الدين يذبل فيه، قد انثالوا على بيته وحرصوا على مصافحته ولمس يده لما عاد من عمرة عرفوا أنه فيها التقى فيها الشيخ محمد قطب، شقيق الشهيد سيد قطب!!

وإذا تركنا المتعصبين والمهاويس في كل اتجاه حركي، فلقد التقت على توقير سيد وتعظيمه الاتجاهات الحركية في بلدانها المتباعدة: الإخوان المسلمون والسلفيون والجماعة الإسلامية في الهند وباكستان وجماعة الدعوة والتبليغ، وكثير من المتصوفين!

ولدي انطباعٌ من طول القراءة للرجل وعنه، أتحوط الآن في تسجيله مستعملاً ألفاظ الاستدراك، فأقول: كاد يكون الموقف من سيد قطب علامة ودليلاً على موقع الرجل: هل هو في معركة الإسلام والأمة أم هو خارجها؟!

وأن يكون خارجها فليس يعني ضرورة أنه عدوٌ أو مفسد، فقد يكون كذلك، وقد يكون جاهلاً أو مغفلاً أو ساهياً لاهياً عن معركة الإسلام في هذا العصر. وذلك أني أفتش في رأسي فلا أكاد أعثر على رجل مهموم حقاً بمعركة الدين والأمة في هذا العصر إلا وكان له موقف يُعظِّم فيه سيد قطب ويحبه، مهما كانت عنده من ملاحظات جزئية وتفصيلية!

وأما رؤوس العداء لسيد قطب، أولئك الذين اتخذوه غرضاً وهدفاً، فما من شك في أنهم من أعداء هذه الأمة الصرحاء، سواءٌ أكانوا عالمين بهذا قاصدين له، أو كانوا من الغباء والغفلة والجهل بحيث استعملهم أعداء الأمة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً[1]!

ربيع بن هادي المدخلي

---

١ كان من تدبير الله العجيب أن اخترنا موضوع هذا العدد من المجلة عن الشهيد سيد قطب لموافقة صدور العدد ذكرى استشهاده، ثم بعدها بيومين فحسب جاء الخبر بموت ربيع بن هادي المدخلي، رأس الضلالة الذي اتخذ الشهيد سيداً هدفاً وغرضاً، والذي كان رأس فرقة فتنة وضلالة تلك التي عُرفت بالجامية وبالمداخلة. والزمان بيننا، وستكشف الأيام من الخبيث الذي سيذهب كلامه جفاء ويجتث من فوق الأرض، ومن الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض، ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه!

إن من يقرأ في تراث الشهيد القرآني لا يداخله شكٌّ في أن هذا العقل الكبير وهذا القلب الغيور وهذا القلم الأصيل قد استفرغ وسعه في بيان محاسن الإسلام ونقض أباطيل الكفر والجاهلية، وأنه سعى ما وسعه السعي وانتهت به طاقة ذي القلم في أن يثير قلوب الناس ويستحث عقولهم ويوجِّه أبصارهم إلى هذا الحل الإسلامي الرباني، الحل الوحيد الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعالج ما في حياتهم من المشكلات والمعضلات والعثرات.

فما يقرأ ذلك الكلامَ قارئ مخلص للإسلام إلا ويتسرب إليه حب الشهيد، ثم ما يطلع أحد على سيرته وحياته إلا ويُعَظِّمه، فلك أن تعرف أنه كان رأس الوقوف في وجه الطاغية الجبار الذي خدع الملايين حتى محضوه حباً خالصاً وشغفاً جنونياً بفعل سحر الإعلام وطغيانه! أقصد: جمال عبد الناصر، الذي تهيأت له من الظروف ما لم يتهيأ مثلها لغيره حتى صار زعيم العرب قاطبة في عصره، وكان له من الطغيان وضروب التوحش والتعذيب ما لم يكن للعرب عهد به في سائر تاريخهم.

فالذي كان يعيش في زمانه إن كان عبقرياً ذكياً قوي النظر فأفلت من طغيان سحره، فما كان أندر أن يكون روحاً صلبة أبية صخرية فولاذية تتجرأ فتقتحم مخاوف بطشه وتنكيله. ولذلك اختبأ أكثر الناس، ولم يُعرف في مفكري مصر ومثقفيها -على كثرتهم- من تجرأ على الوقوف في وجه عبد الناصر إبان سطوته وجبروته، اللهم إلا سيد قطب!

ولقد قيَّض الله للشهيد من يحفظ إرثه حتى انتشر وطغا وذاع في العالمين، ولقد رأيت من كان يحفظ «في ظلال القرآن» وهو أربعة آلاف صفحة من الصفحات الكبيرة التي ضُيِّق فيها الكلام وحُشِر، (وقد طُبع بأخرة في ستة آلاف صفحة)، وما ذلك إلا لأن الحملة كانت عاتية على كتب الشهيد وتراثه، حتى قدَّر بعض الحريصين أنه لا بد من حفظه في الصدور!

٢

مما يثير الألم في النفس أن يكون العدو الغريب أحسن فهماً وتقييماً لرجال الإسلام من أولئك المحسوبين المنسوبين للإسلام والدين..

يذكر الشيخ فايز الكندري، الأسير المحرر من سجن جوانتانامو الأمريكي، أنه قد «صرح لي أحد المحققين بكل وضوح أن أخطر شخصية على الغرب خلال القرن الماضي هو سيد قطب»[٢].

وتلك شهادة خطيرة، وعظيمة أيضاً في حق الرجل، بل وهي مرتبة يتمناها المسلم، فأن تكون أخطر شخصية على الغرب إنما يعني -بالتعبير القرآني- أن تكون أكثر الذين يطأون موطئاً يغيظ الكفار!

وليس هذا خافياً، ولا هو بالأمر الذي يُقال في الدهاليز والأروقة فحسب، بل قد ذكر نفس هذا المعنى ثعلب السياسة الأمريكية الأشهر، هنري كيسنجر، ذلك المؤرخ والمفكر والسياسي الداهية الذي تولى مقعد مستشار الأمن القومي وظل مُعَظَّمًا فيهم إلى أن مات بعد أن جاوز المائة عام!

---

٢ فايز الكندري، البلاء الشديد والميلاد الجديد، ص٢١١.

كيسنجر في كتابه «النظام العالمي»، يرى أن الشهيد سيد قطب قدَّم الإجابة المفصلة عن الأسئلة التي لم يُجب عنها حسن البنا، وأن إجابة سيد قطب هذه هي «الطبعة الأعمق والأكثر نفوذًا لهذه النظرة» الإسلامية الثورية. وقرر كيسنجر أن كتاب معالم في الطريق إنما «هو بيان حرب على النظام العالمي القائم، ما لبث أن غدا نصًا تأسيسيًا للحركة الإسلاموية الحديثة».

ومضى كيسنجر يشرح التناقض الجذري بين الرؤية الإسلامية التي يقررها سيد قطب، وبين النظام العالمي القائم على مجموعة من الدول المعلمنة والمُقَسَّمة قومياً وعرقياً، فيقول:

«الإسلام، بنظر قطب، نظام كوني شامل يوفر الصيغة الصحيحة الوحيدة للحرية؛ التحرر من حاكمية بشر آخرين، عقائد من صنع الإنسان، أو «روابط دنيا قائمة على العنصر واللون، على اللغة والبلد، على المصالح الإقليمية والوطنية - القومية» (أي سائر الصيغ الحديثة الأخرى للحاكمية والولاء مع بعض ركائز بناء نظام وستفاليا). تمثلت رسالة الإسلام الحديثة، برأي قطب، في إطاحة ذلك كله والاستعاضة عنه بما عده تطبيقًا حرفيًا، عالميًا آخر المطاف، للقرآن.

وكان من شأن تتويج هذه السيرورة أن تتمثل بـ «بلوغ حرية الإنسان على الأرض - جميع البشر عبر كوكب الأرض». كان من شأن هذا أن يكمل العملية التي أطلقتها الموجة الأولى للتوسع الإسلامي في القرنين السابع والثامن»، «العملية التي يجب أن تصل عندئذ إلى الجنس البشري كله في طول الأرض وعرضها، نظرًا لأن هدف هذا الدين هو الإنسانية كلها وفضاء حركته هو الأرض كلها»...

كان قطب، ذو الاطلاع الواسع والشغف الشديد، قد أعلن الحرب على الوضع العام - حداثة علمانية بفظاظة وتمزق إسلامي، كما جرى تصديقهما من قبل تسوية ما بعد الحرب العالمية الأولى الإقليمية في الشرق الأوسط.. كتلة الأفكار هذه تمثل عكسًا شبه كلي وقلبًا لنظام وستفاليا العالمي. لا تستطيع الدول، بنظر أنقى طبعات الحركة الإسلاموية، أن تكون المنطلق المناسب لأي نظام دولي لأن الدول علمانية»[٣].

ويحظى سيد قطب بأهمية خاصة لدى الغربيين، لا سيما الباحثين في الشؤون الأمنية والحركات الجهادية، وفي حدود ما اطلعت وعرفت فقد ندر أن جرى تناول سيد قطب وفكره بإنصاف في الكتابات الغربية، والنادر هنا بمعنى أني بعد البحث والسؤال والتعقب لم أعثر إلا على خمسة بحوث غربية قيل إنها تنصف سيد قطب، لكن لم يتيسر لي الاطلاع عليها.

٣

بقي أن يُقال: هل كانت أفكار سيد قطب متطرفة تخصه؟ أم هي الفكرة الإسلامية ذاتها قد عبَّر هو عنها، بلغته وأسلوبه وقلمه؟!

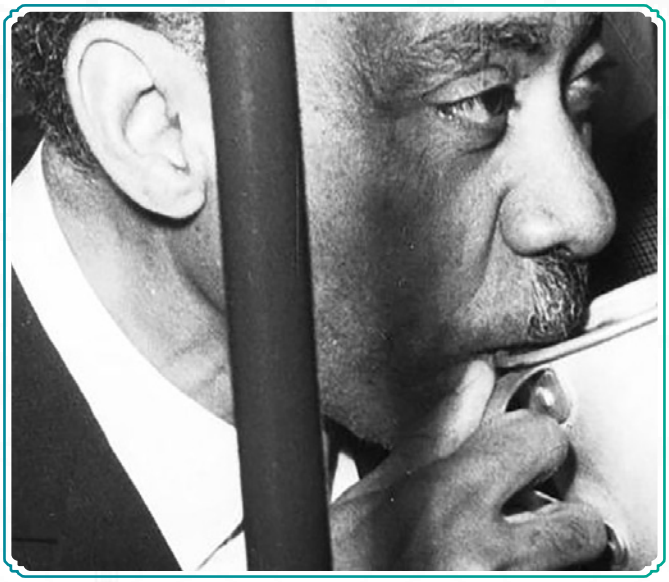

ليس أسهل من إجابة هذا السؤال من الإشارة إلى ما وُضع للشهيد وكتبه من الانتشار والقبول في الأرض، كما ذكرنا في مطلع هذا المقال. إذ ليس يمكن أن يروج في عالم المسلمين ما هو شاذ عن دينهم وإيمانهم وأفكارهم! لا سيما في هذه الأمة التي قدر الله أنها لا تجتمع على ضلالة وأن ما يكون حسناً فيها فهو عند الله حسن!

٣ هنري كيسنجر، النظام العالمي، ص١٢٤ وما بعدها.

كذلك فقد ذكرنا أن كافة أهل العلم المعتبرين الذين تكلموا في سيد قطب، فهم بين قسمين: إما أنهم عظموه ووقروه بلا تحفظ، أو أن تحفظاتهم واختلافاتهم معه كانت في أمور جزئية يسع فيها الخلاف أو تُغمر في بحر فضائل الرجل! فيكون الرأي النهائي لهؤلاء الناس أن الرجل من أهل الإسلام بل من ساداتهم والمبرزين فيهم.

وأي شيء أبلغ في الشهادة للرجل أن نجد بعض أعدائه يسرق منه كلماته، كما فعل علي جمعة -المفتي الأسبق في مصر- وشوقي علام -المفتي السابق- فقد رُصِد لكل منهم مقالات نقلوا فيها عن الشهيد دون أن يذكروا اسمه، وما فتئوا يطعنون فيه وفي أفكاره.

د. محمد البهي

ومما ينبغي أن يذكر هنا، للدلالة على الأمر، أن وزير شؤون الأزهر في الحقبة الناصرية، وهو نفسه أستاذ الفلسفة الإسلامية، الدكتور محمد البهي، سجل في مذكراته لقاءً له بعبد الحكيم عامر (أقوى رجل في مصر وقتها)، وفيه سأله عن رأيه في كتاب معالم في الطريق، فقال الرجل: «أجبته عن تقييمي لكتاب «معالم على الطريق» بأني كنت أتمنى أنا الذي كتبته. هاج ووقف من جلوس. وقال: كيف تقول ذلك والصحافة كلها نددت به؟ قلت له: إن ما في هذا الكتاب هو رأي القرآن فيما أرى. وما تقوله الصحافة عنه: شيء سياسي لا دخل له إطلاقاً في تقييمه»[٤].

٤ د. محمد البهي، حياتي في رحاب الأزهر، ص١٣٣.

وحتى الشيخ العلامة الكبير، فقيه العصر، يوسف القرضاوي، مع ما كان له من الخلاف مع الشهيد، لم يسعه في الإجمال إلا أن يقول: «سيد قطب أحد عظماء الرجال في أمتنا، في تاريخنا الحديث والمعاصر، هو مسلم عظيم، إذا قِسْنا العَظَمة بمقياس الإنسانية، وهو أديب عظيم، إذا قِسْنا العظمة بمقياس الإبداع في الأدب والنقد الأدبي، وهو داعية عظيم، إذا قِسْنا العظمة بقوة التأثير في الدعوة والتوجيه، وهو عالم ومفكِّر عظيم، له أثره في العلم والفكر، إذا قسْنا العظمة بمقدار الاستقلال في الفكر وأصالة العلم، وهو أيضًا مسلم عظيم، إذا قسنا العظمة بالبذل والتضحية في سبيل الله. وحسْبُنا أن الرجل قدَّم عنقَه ودمه فداءً للدعوة التي يؤمن بها»[٥].

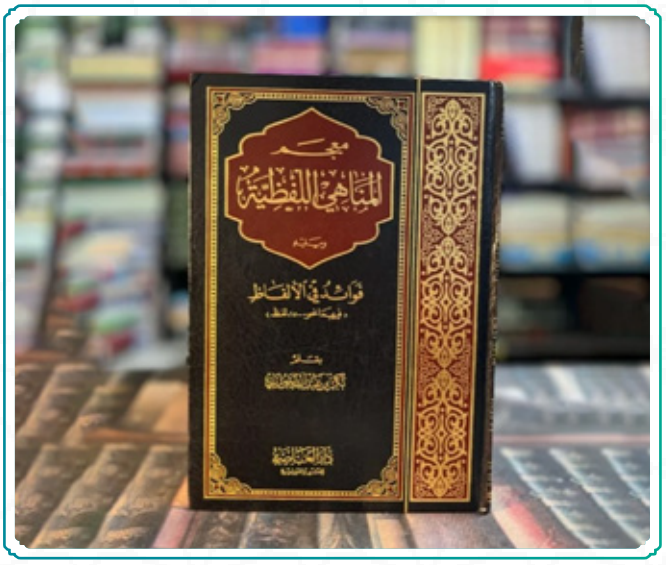

بل حتى البيئة السلفية التي يمكن القول بأنها أكثر البيئات العلمية تدقيقاً في الألفاظ وعناية بهذا الباب، إلى الحد الذي تقع فيه المغالاة، نجد عالماً سلفياً كبيراً مثل الشيخ بكر أبو زيد، وفي مقام النقد والاستدراك -كما في كتاب: معجم المناهي اللفظية- لا يسعه إلا أن يجمل القول في الشهيد فيقول: «في كلام سيد قطب -رحمه الله- وفي بعض تصانيفه مما يشعر الباحث أنه كان قد أصابه شيء من التحمس الزائد للإسلام في سبيل توضيحه للناس. ولعل عذره في ذلك أنه كان يكتب بلغة أدبية، ففي بعض المسائل الفقهية كحديثه

٥ د. يوسف القرضاوي، في وداع الأعلام، ص٨٤.

عن حق العمال في كتابه: «العدالة الاجتماعية» أخذ يكتب بالتوحيد، وبعبارات كلها قوية تحيي في نفوس المؤمنين الثقة بدينهم وإيمانهم، فهو من هذه الخلفية في الواقع قد جدّد دعوة الإسلام في قلوب الشباب، وإن كنَّا نلمس أحياناً أن له بعض الكلمات تدل على أنه لم يساعده وقته على أن يحرر فكره من بعض المسائل التي كان يكتب حولها أو يتحدث فيها»[٦].

ولقد نقلتُ من هذا الموطن الذي هو في مقام الاستدراك والنقد، ولم أنقل من رسالته الذهبية في الرد على ربيع المدخلي، فإن كلامه فيها كان في سياق إنصاف الشهيد والتحدث بمآثره!

رحم الله الشهيد سيد قطب.. وبلغه منازل الصديقين والشهداء والصالحين.. وألحقنا به على خير أجمعين!

---

٦ د. بكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية، ص٢١١.

مؤلفات

أ. محمد إلهامي

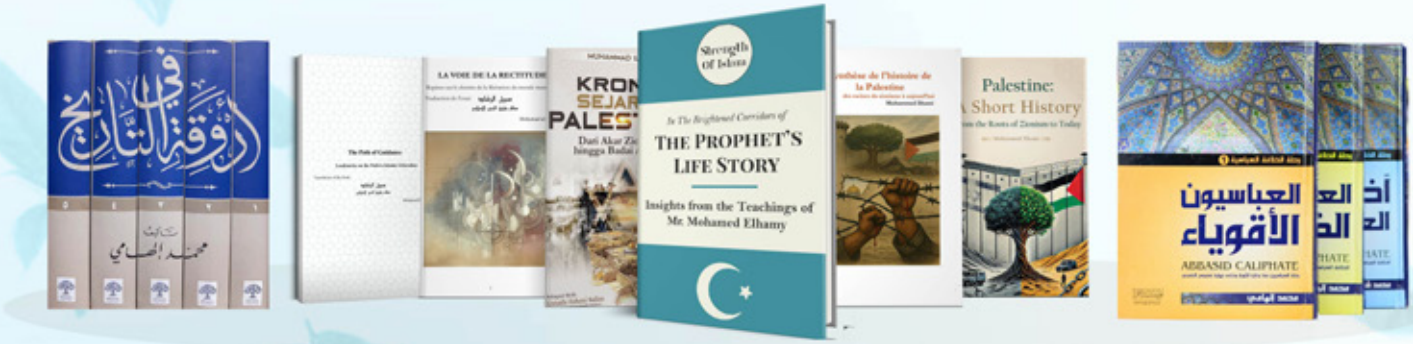

لتحميل المؤلفات اضغط هنا

الحسن بن علي الكتاني

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

كيف نقرأ فكر الأستاذ سيد قطب؟

بسم الله الرحمن الرحيم..

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

الأستاذ الشهيد سيد قطب، رحمه الله، أحد نوابغ المفكرين الإسلاميين، كما أنه كان أحد كبار الأدباء في القرن الماضي، الذين طبعوا بصمتهم على زمانهم، وانتقل عن هذا العالم وترك ضجة وراءه لا زالت قائمة إلى يوم الناس هذا.

ففي الوقت الذي يراه جماهير أبناء الحركة الإسلامية، وكثير من الباحثين المنصفين، كاتباً ومفكراً إسلامياً قديراً، ترك كُتباً كثيرة أصبحت منهجاً لمن بعده، فإن كثيراً من العلمانيين وغيرهم من بعض المتدينين التابعين للحكومات العربية، يرونه منظّراً للتكفير والإرهاب، وسبباً لما وصلت إليه كثير من الجماعات الإسلامية اليوم من الغلو في الحكم على الناس، والغلو في استخدام العنف تفجيراً وتقتيلاً!

فهل فعلاً كان سيد قطب، رحمه الله، في نفسه مغالياً متنطعاً؟ وهل فعلاً كان مسؤولاً عما حدث بعده من أفكار التكفير والتقتيل؟

الحقيقة أنه من الظلم وتجاوز الموضوعية الجواب عن هذا السؤال دون دراسة كتابات سيد قطب بإنصاف، ومقارنتها بحياته وكلام معاصريه. كما أن الإنصاف يقتضي النظر في المؤثرين الحقيقيين في الجماعات التي مالت للغلو في التكفير واستخدام العنف.

من هو سيد قطب؟

هو سيد بن قطب بن إبراهيم بن حسين الشاذلي.

وُلد في قرية موشا وهي إحدى قرى محافظة أسيوط في ٢٠ شعبان ١٣٢٤هـ (١٩٠٦/١٠/٩). وبها تلقى تعليمه الأولي وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمدرسة المعلمين الأولية عبد العزيز بالقاهرة ونال شهادتها والتحق بدار العلوم وتخرج عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م).

وعمل بوزارة المعارف بوظائف تربوية وإدارية، وابتعثته الوزارة إلى أمريكا لمدة عامين وعاد. ثم انضم إلى حزب الوفد المصري لسنوات وتركه على إثر خلاف في عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

وفي عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وخاض معهم نشاطهم السياسي الذي بدأ منذ عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) إلى عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م). وحوكم بتهمة التآمر على نظام الحكم وصدر الحكم بإعدامه وأعدم عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م). رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وتقبله الله في الشهداء.

تطوره الفكري

بدأ سيد قطب رحمه الله متأثراً بحزب الوفد وخصوصًا بكاتبه عباس محمود العقاد فقد تأثر كثيراً بمدرسة العقاد وكان من أشد المدافعين عنه، إلا أن نظرته إلى الجيل السابق أخذت تتغير شيئاً فشيئاً وصار ينحى باللائمة على ذلك الجيل في تردي أوضاع الأمة، وبدأ بإنشاء منهج اختطه بنفسه وفق ما اقتضته الظروف العصيبة للمجتمع والأمة. زاد شغفه بالأدب العربي وألّف كتاب: كتب وشخصيات، وكتاب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه. ثم تحول إلى الكتابة الإسلامية فكتب كتاب: التصوير الفني في القرآن، الذي لاقى استحسانًا واسعًا بين الأدباء وأهل العلم.

ثم ابتُعث سيد قطب للولايات المتحدة الأمريكية فرأى المجتمع الأمريكي على حقيقته، وهناك كتب رسالته: أمريكا التي رأيت. التي انتقد فيها بشدة ما وصل إليه الأمريكيون من انحطاط أخلاقي. وفوجئ بفرحة عارمة تغمر زعماء تلك البلاد عند استشهاد الإمام حسن البنا، رحمه الله وتقبله، فعندئذ قرر الرجوع لبلاده والانضمام لجماعة الإخوان المسلمين، وكان ذلك سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) وقد استقطبت حركة الإخوان المسلمين المثقفين وكان لسيد قطب مشروع إسلامي يعتقد فيه بأنه: «لا بد وأن توجد طليعة إسلامية تقود البشرية إلى الخلاص».

ولذلك كانت بداية العلاقة بين سيد قطب والإخوان المسلمين هي كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وفي الطبعة الأولى كتب في الإهداء:

«الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدًا كما بدأ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون».

وفهم الإخوان المسلمون أن هذا الإهداء يعنيهم هم فأصبحوا يهتمون بأمره ويعدّونه صديقاً لهم، إلى أن انضم فيما بعد إلى الحركة وأصبح مسؤولًا للقسم الدعوي فيها.

هذا وقد كانت له تغيرات فكرية بعد انضمامه للجماعة، فقد كانت كتاباته الأولى إسلامية أدبية، ثم بدأ يتطرق لمسائل فكرية غير منضبطة، لكنه استقر بعد ذلك على التركيز على حقيقة التوحيد، ومعانيه التي غابت عن جماهير المسلمين، ونثر هذه المعاني في كتاباته الأخيرة التي تميزت بالعمق وقوة العبارة.

ومؤلفات سيد الأخيرة هي التي اختلف الناس فيها بين مادح وقادح. وبين منتقد ومتأثر بها. والمتأثرون بها يتراوحون بين من فهم مقصوده جيداً ومن أساء الفهم فأساء التطبيق.

وفي رأيي فإن كتابات سيد الأخيرة، تشبه كثيراً كتابات رواد الدعوة السلفية، وإن لم يكن سيد يستشهد بكلام ابن تيمية ولا ابن القيم ولا غيرهما من رجالات هذه الحركة.

نعم، رأينا سيداً يستشهد بكلام ابن القيم في درجات الجهاد ضمن كتابه الأخير «معالم في الطريق»، كما أنه استفاد كثيراً من تفسير ابن كثير في كتابه العظيم «في ظلال القرآن». والذي يظهر لي أن سيداً، رحمه الله، وصل لنفس نتائج رواد الدعوة السلفية من خلال تمعنه في كتاب الله، ودراسته له دراسة صادقة.

وهذه المؤلفات الأخيرة هي التي ذكرها أستاذنا محمد قطب، رحمه الله، في رسالته التي أرسلها للأستاذ عبد الرحمن الهرفي حيث يقول فيها:

«سألتني عن كتاب (العدالة الاجتماعية)؛ فأخبرك أن هذا أول كتاب ألفه بعد أن كانت اهتماماته في السابق متجهة إلى الأدب والنقد الأدبي، وهذا الكتاب لا يمثل فكره بعد أن نضج تفكيره وصار بحول الله أرسخ قدماً في الإسلام. وهو لم يوصِ بقراءته، إنما الكتب التي أوصى بقراءتها قبيل وفاته هي «الظلال» وبصفة خاصة الأجزاء الاثني عشرة الأولى المعادة المنقحة وهي آخر ما كتب من (الظلال) على وجه التقريب وحرص على أن يودعها فكره كله، (معالم في الطريق) ومعظمه مأخوذ

من (الظلال) مع إضافة فصول جديدة، و(هذا الدين) و(المستقبل لهذا الدين)، (خصائص التصور الإسلامي)، و(مقومات التصور الإسلامي) وهو الكتاب الذي نُشر بعد وفاته، و(الإسلام ومشكلات الحضارة)، أما الكتب التي أوصى بعدم قراءتها فهي كل ما كتبه قبل الظلال، ومن بينها (العدالة الاجتماعية في الإسلام)».

إذا تبين هذا، فلا يجوز محاسبة سيد قطب على كتاب ألفه في فترة معينة من حياته، وتراجع عن تلك الأفكار في آخر عمره. وقد ذكرنا أنه كان للأستاذ عدة مراحل في حياته ولكل مرحلة أفكارها وخصائصها.

التهم التي وجهت لسيد قطب

وُجهت لسيد قطب رحمه الله مجموعة من التهم، واختلفت توجهات من اتهمه، فقد اتهمه جماعة من السلفيين بمخالفة عقيدة السلف في تفسيره (الظلال). وأنه تابع المتكلمين في عقيدتهم.

- واتهمه (المداخلة) بأمور كثيرة فيها تضليل بل تكفير له. حتى إنهم جعلوه رأس التكفيريين وأساس الخوارج، وحملوه مسؤولية جميع الجماعات الإسلامية المغالية في الدماء والتكفير. فضلاً عن اتهامه بالتنقيص من الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، بل والتنقيص من رب العزة والجلال، والعياذ بالله.

- واتهمه جماعة من الإسلاميين بالتشدد في مسألة التكفير والخروج على الحكام. ومنهم الشيخ القرضاوي الذي رد على العديد من أفكاره، وتابعه جماعة على ذلك، ولقبوا فكره بفكر السجون وما إلى ذلك.

- واتهمه العلمانيون بأنه زعيم الفكر الإرهابي المتطرف، وأن كتبه هي التي فرخت ذلك.

والحقيقة أن مناقشة تلك التهم قد يجرنا لمحاكمة تلك التوجهات نفسها، بمعنى أن الغلط قد يكون فيمن اتهمه لا فيه هو. فما يسميه البعض تطرفاً قد يكون هو الصواب والاعتدال ولكن لتطرف الآخر رأى الاعتدال تطرفاً.

وقد يكون ما سماه الآخر غلواً في التكفير هو بسبب مرض الإرجاء والتسيّب لديه. وهكذا يقال في كل تهمة اتهم بها سيد رحمه الله.

على أن هناك تُهماً اتُّهم بها الأستاذ لأسباب سياسية ولتحميل كلامه ما لا يحتمله وحمله على أسوأ المحامل.

ومسألة أخرى وهي أنه قد تكون التهمة صحيحة ولكنه تراجع عنها في كتبه الجديدة وما عاد يقول بها.

ومن الجدير بالذكر أن نذكر بأن سيداً، رحمه الله، كان معارضاً سياسياً، ومن الطبيعي أن تسعى كثير من الجهات لإسقاطه وتشويه سمعته، وتسخير أي فكرة لذلك.

وهذا لا يمنعنا من أن نعترف بأن سيداً، رحمه الله، كان بشراً وهو ممن يعتريه الخطأ، ولكن الخطأ ممن قصد الخير وسعى له مغفور، بخلاف الخطأ ممن سعى للباطل وعمل له.

الجاهلية

من العبارات التي أخذها البعض على سيد عبارة (الجاهلية) التي وصف بها الحكومات والمجتمعات المعاصرة، وزعموا أنه بذلك يكفر الجميع، على طريقة شكري مصطفى زعيم جماعة التكفير والهجرة.

لكن يرد البعض بأن سيد قطب استخدم لفظ الجاهلية في وصف المجتمعات الإسلامية ولم يستخدم لفظ الكفر ولم يصرح بتكفير فرد أو مجتمع. ورسول الله ﷺ وصف التعصب للجماعة والقبيلة بقوله: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم؟» وأيضاً عندما قال رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وذلك عندما عير بلال بن رباح بأمه.

بل إن الله تعالى وصف كل حكم يخالف الحكم الإسلامي بالحكم الجاهلي، وذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فأين العيب في وصف ما يخالف الشرع بالجاهلية؟ ومن زعم أن في هذا تكفيراً للحكومات أو المجتمعات فيقال له: أليس الله قد وصف من لم يحكم بما أنزل الله تعالى بالكفر والظلم والفسق كما في الآيات السابقة لتلك الآية؟ فماذا بقي للناس أن يقولوا بعد ذلك؟ ولكن المجتمعات لا توصف بالجاهلية المطلقة إلا إن كانت مخالفة للإسلام تمام المخالفة، وهذا هو الكفر، أما مطلق الجاهلية فلا يخلو من ذلك مجتمع منحرف، والانحراف يقل ويكثر بحسبه وضع ذلك المجتمع. وسيد رحمه الله فعلاً أكّد على أن الحكومات التي لا تحكم بالشريعة هي غير مسلمة ولا موحدة لله تعالى، وأن من رضي بذلك عن طواعية فهو يأخذ نفس الحكم.

ولا شك أن الفقهاء يفرّقون بين الكفر العام والكفر الخاص، ويشترطون في الثاني تحقق شروط وانتفاء موانع.

بل إن سيداً رحمه الله نفسه بيّن مقصده من هذه العبارة، فقد قال في آخر كتاب له وهو (لماذا أعدموني): «واتجاه المجموعة في الواحة إلى عدم تكفير الناس من ناحية أخرى! وقد قلت له: إننا لم نكفر الناس وهذا نقل مشوه إنما نحن نقول: إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة وعدم تصور مدلولها الصحيح والبعد عن الحياة الإسلامية، إلى حال تشبه حال المجتمعات في الجاهلية». (ص٢٢).

وقال في كتابه (معالم في الطريق): «المجتمع الجاهلي هو الذي لا يُطبَّق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوّراته، وقيمه وموازينه، ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه».

وجاء في كتاب (في ظلال القرآن) في تفسير قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فقال سيد: «فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم، ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية، ولكن هناك رابطة العقيدة».

وقال الشيخ فيصل المولوي، رحمه الله: «والفهم الصحيح المنسجم مع القواعد الشرعية، والمنسجم مع الشهيد سيد قطب نفسه في نصوص كثيرة، هو ما قال عنه أخوه الأستاذ محمد قطب حفظه الله، قال: «إن كتابات سيد قطب تركّزت حول موضوع معين، هو بيان المعنى الحقيقي لـ«لا إله إلا الله» شعوراً منه بأن كثيراً

من الناس لا يدركون هذا المعنى على حقيقته، وبيان المواصفات الحقيقية للإيمان كما وردت في الكتاب والسنّة، ولكنه مع ذلك حرص حرصاً شديداً على أن يبين أن كلامه هذا ليس مقصوداً به إصدار الأحكام على الناس، إنما المقصود به تعريفهم بما غفلوا عنه من هذه الحقيقة، ليتبينوا هم لأنفسهم إن كانوا مستقيمين على طريق الله كما ينبغي، أم أنهم بعيدون عن هذا الطريق، فينبغي عليهم أن يعودوا إليه، ولقد سمعته بنفسي يقول أكثر من مرة «**نحن دعاة ولسنا قضاة**» كما سمعته أكثر من مرة يقول: «**إن الحكم على الناس يستلزم وجود قرينة قاطعة لا تقبل الشك، وهذا أمر ليس في أيدينا، ولذلك فنحن لا نتعرض لقضية الحكم على الناس**».

وبناء على ذلك نقول: إن الشهيد سيد قطب كان يتحدث عن ردة المجتمع عندما يرفض الاحتكام لشريعة الله، وليس عن الردة الفردية التي يتحدث عنها الفقهاء ووضعوا لها شروطاً وبينوا حكمها. والإشارة إلى المؤذنين إنما وردت لبيان أهمية كلمة لا إله إلا الله وخطورتها ودعوتهم للالتزام بها قبل غيرهم، وليس المراد منها الحكم بردتهم. وعلى كل حال، فالعبارة خاطئة في اعتقادنا لأنها يمكن أن يساء فهمها. وإنما أردنا من هذه النّقول أن نؤكد أن سيد قطب رحمه الله لم يقصد هذا المعنى أصلاً، ولم نقصد إلى تبرير مثل هذه العبارات. وثبوت الخطأ على شهيد عظيم كسيد قطب رحمه الله لا يطعن في دينه، وإنما يؤكد بشريته، ونحن نعتقد أن لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ»[1].

الطعن في الصحابة رضي الله عنهم

ومن الانتقادات لسيد قطب طعنه في الصحابة رضي الله عنهم في كتابه (كتب وشخصيات)، فقد طعن في الصحابيين معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فقد اتهمهما بـ(النفاق) و(الرشوة) و(الخيانة) و(الكذب) و(الخديعة)، وطعن في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، واعتبر خلافة علي بن أبي طالب

١ مجلّة المجتمع الكويتيّة. العدد (٢٧١) في ١٩٧٥/١٠/٢١م.

رضي الله عنه امتداداً طبيعياً لخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن خلافة عثمان، رضي الله عنه، هي فجوة بينهما. ويُدافع عنه البعض بأن تلك الكتابات صدرت من سيد قُطب قبل تأثره بالفكر الديني تقريباً عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م)، وخلال مراحله الفكرية الأولى، حيث تغيرت أفكاره بعد نضوجه وكتب كتابات قوية موافقة للتصور الإسلامي الصافي كما في «الظلال» و«المستقبل لهذا الدين» وغير ذلك من كتبه الأخيرة.

موافقة المتكلمين

والحقيقة أن هذه التهمة لا يخلو منها تفسير من تفاسير المتأخرين بما فيهم علماء يحترمهم هؤلاء الناقدون. فلم الكيل بمكيالين؟

ومع هذا فمن قرأ آخر ما كتبه سيد قطب وهو «مقومات التصور الإسلامي» يجد أنه ينعى على كل من خالف السنة من المتكلمين وغيرهم. فيجب ألا ننسى التطور الفكري التدريجي لسيد قطب وأنه كلما وقف على الحق مال إليه وترك أفكاره القديمة.

وبعد هذا كله، فأهم شيء عندنا هنا هو موقف سيد قطب من تكفير الناس وقد بيّنّا براءته من ذلك، ولا يضره أن ينتحله بعض المنحرفين فلطالما انتحل الضُلاّل علماء صادقين ليروجوا باطلهم.

أما الجماعات الإسلامية الصادقة المدافعة عن حقوق أمتها، المتصدية للغزاة والمحتلين، والمطالبة بتحكيم شريعة ربها فهذه لا شك أن الخطأ فيمن خالفها وتعدى عليها واتهمها بما هي بريئة منه، والعيب فيهم وليس فيها، والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

عماد إبراهيم

مدير مشروع بصيرة الدعوي

شهيد الظلال.. دقيقةُ إنصَاف!

في زحمة القراءات المتعجلة، والحُكم على الأشخاص من خلف شاشات التحليل السطحي، البعيد كل البعد عن الحقيقة، تبهت الصورة وتختلط الألوان. ويصبح الفكر المستقيم النقي تهمة، والكلمة الصادقة جُرمًا. وما بين مَن اتهم شهيد الظلال الأستاذ سيد قطب رحمه الله بالتكفير، ومَن حاكمه بمنطق التجزئة والاقتباس المبتور.. ضاعت ملامح مشروع حضاري عميق حاول إعادة بناء الوعي الإسلامي على أسس قرآنية صافية. إن هذا المقال ليس دفاعًا عاطفيًا، ولا تسويقًا لفرد، بل شهادة حق ودعوة لإعادة القراءة بعين فاحصة، وعقلٍ حرّ، وقلبٍ لا يُشغل إلا بنهضة الأمة.

تحل علينا هذا الشهر يوم التاسع والعشرين من أغسطس ٢٠٢٥م الذكرى التاسعة والخمسون لاستشهاد الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وهنا يتجدد السؤال:

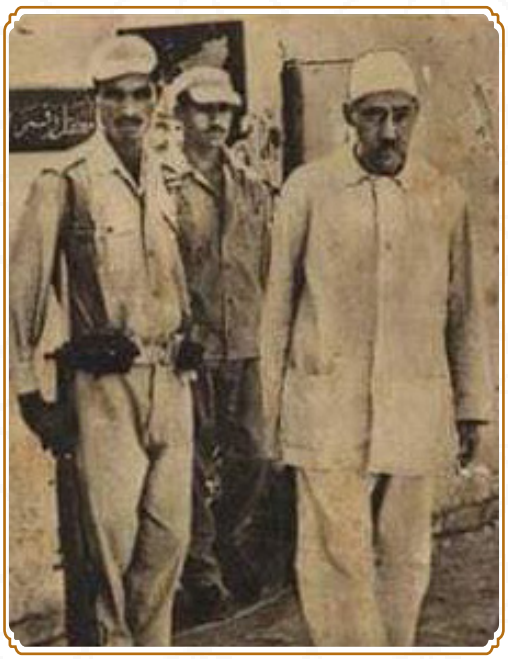

هل أفرزت الأمة في عصرنا الحديث مثل سيد قطب؟!

هل شهدت الأمة في عصرنا الراهن عقلًا بصفاء منطقه، وذهنًا بسمو تأمله، وسلامة بصيرته؟

هل رأينا في واقعنا الفكري من يضاهيه في فصاحة التعبير، ونقاء الأسلوب، وشفافية الطرح؟ من ذا الذي يُقاربه، فضلًا عن أن يُجاريه أو يُساويه، في سلاسة العبارة، وروعة البيان، ودقة التركيب، وجزالة المعنى؟!

كيف لإنسان أن يتحول بكليّته إلى فكرةٍ خالدة، تمكث في الأرض بعد رحيله، وتنمو عبر الأجيال وتثمر، في حين يذبل جسده ويفنى كيانه؟

❁ إننا اليوم، في زمن التيه وتشتت الاتجاهات بأمسّ الحاجة إلى عبقرية متفردة، تبعث في الأمة روح الحياة من جديد، كما فعل شهيد الظلال رحمه الله.

سيد قطب، رحمه الله، ليس مجرد كاتب بارع أو أديب مبدع، ممن يُثنَى عليهم فيقال: أخطأ ولكنه أحسن، وزلّ فقيل له لا تثريب عليك، بل هو أعلى من ذلك بكثير. نعم، هو بشر يخطئ ويصيب، يُؤخذ من كلامه ويُردّ، لكن من الجور أن يُوضَع في موضع المُتَّهَم، ويُعامَل كما يُعامل مَن تُقام عليه الحجج وتُعرض أقواله على محاكم النقد الجائر. لا يصح أن يُخاصمه من لم يبلُغ عُشر علمه، أو يجادله من لم يذق مرارة السجن أو أَلَم الغُربة الفكرية. لم يُقدَّر له أن يُعامَل كما ينبغي لمجدِّد في زمن عزّ فيه المجدِّدون، وندر فيه المصلحون. لقد كانت الأمة -وما تزال- في أمسّ الحاجة إلى نَفَسِه التربوي، وميزانه الفكري، ومنهجه المستقيم في رؤية الواقع وسبل تغييره.

لقد ترك الشهيد سيد قطب رحمه الله إرثاً فكرياً ضخماً لا ينبغي أن تُختزل في أخطاء جزئية أو قراءات مجتزأة؛ بل إن إرثه الفكري أداة نهضة، وأساس تجديد وبعث، ومَعينٌ لا ينضب لمن أراد أن يُقيم مشروعًا للإصلاح أو نهضة حضارية شاملة. من كِتابه (في ظلال القرآن) تُستخرج كنوز الهداية الربانية، وتُستلهم براهين الإيمان. ومن كِتابه (معالم في الطريق) تُضاء المنارات الكبرى التي تهدي الحائرين وتتضح معالم طريق التغيير والهداية. وتُستخرج من (خصائص التصور الإسلامي) رؤى شمولية عظيمة، تُبرز عظمة الخالق وسمو هذا الدين وخلوده، وتُجلي للمتأمل طبيعةَ العلاقة بين العقيدة والواقع، بين الفكرة والحياة. ويبث الأمل ويقر بالمعلوم يقيناً في كتابه بأن (المستقبل لهذا الدين).

لكن، ويا للأسف، لم نُقْبِل على هذه التركة الفكرية الهائلة بإجلال المستفيد، ولا بتوق الباحث، بل وقفنا موقف الناقد المرتاب، وصرنا نكيل له التقييمات غير المنضبطة، والتقويمات المجحفة. ولو كنّا، حين اقتربنا من قمة كهذه، نحمل أدوات العلم والمنهج، ونتسلح بالنزاهة والإنصاف، لكان لنا عذر. لكننا اقتربنا بلا عُدة، ولا علم، ولا هِمة، فأنتجنا ما يُضحك ويبكي في آنٍ واحد! فهل يُعقل أن يُقال هذا في رجلٍ مثل سيد قطب؟!

هل يعقل أن يُتهم سيد قطب بأنه كفّر المجتمعات؟! ثم يخرج من بين صفوفنا نحن أبناء الحركة الإسلامية من يعتذر عنه بأعذار أشد قسوة من الاتهام نفسه، فيقول: لقد عاش في ظروف نفسية وصحية قاسية، فانعكس ذلك على فكره! أيّ استخفافٍ بعقول الناس هذا؟!

وهل من عاش حياته في كهف الألم والابتلاء، وسُجن في زهرة عمره، وصودرت حريته سنوات طويلة، ثم خرج لنا بهذه الروائع الفكرية، يمكن أن يكون ضعيفًا نفسيًا؟! إنّ من يغوص في مؤلفاته، يجد نفسه في أعماق إنسان عملاق، شفاف، عميق، يسمو فوق الجراح والآهات، ويتسامى على السجن والعذابات، كيف يُتّهم هذا بأنه مريض نفسيًا؟! إن الحقيقة أن المحنة لم تكن عنصراً نفسياً ضاغطاً على قطب جعلته يؤصل لهذه الأفكار، ولكن كانت المحنة دافعًا له إلى تشخيص الواقع بدقة، وفي كتابة العلاج بمهارة متفردة.

أليس من الإنصاف أن نردّ كلام الكاتب إلى سياقه، ونربط بعضه ببعض قبل أن نبتّ في الحكم عليه؟! أليس من الواجب -عند قراءة نص أدبي رفيع- أن يُفهم في ضوء فنونه البلاغية، لا بمنهج الفتوى والقانون؟! لو قرأ هؤلاء ولو شيئًا يسيرًا من علم البلاغة، لعلموا أن المعنى لا يُفهم من سطرٍ منفصل، بل من نَسَقٍ متكامل. إنّ سيد قطب لا يفكر من داخل منظومةٍ أسيرة، بل من خارجها تمامًا. لا يعيش في صندوق النظام العالمي، كما يفعل غيره من المنظّرين، بل يثقب الجدران، ويخرق السقف، ويُعيد تشكيل الواقع بمنهج رباني متكامل.

اعترض عليه البعض لأنه وصف الواقع المعاصر بالجاهلية، فليُسمّوا لنا هُم -إن صدقوا- اسمًا آخر لهذا الواقع! أهو واقع إسلاميّ يحكم بشرع الله؟! أم حالة وسطى لا جاهلية ولا إسلام؟! أليس الواقع اليوم -كما نراه ونعيشه- واقعًا يعج بالكفر والفساد، وتُحكم فيه البلاد بأنظمة علمانية طاغوتية، ويُقصى فيه شرع الله؟! أليس الواقع أقرب إلى الجاهلية منه إلى الإسلام؟! وهل يَسقط الوصف لمجرد وجود

أفراد مسلمين؟! إنّ وجود المسلمين لا يُغَيّر من طبيعة النظام الحاكم شيئًا، ولا يُبرر التغاضي عن وصف الواقع كما هو. ثم إنّ سيد قطب لم يَقُل أبدًا إنّ كل من يعيش في هذا الواقع كافر، بل ميّز بوضوح بين واقع الجاهلية وبين تكفير الأفراد، لكنهم لم يقرأوا، ولو قرأوا ما فهموا، وإن فهموا تعمدوا التشويه.

ثم جاءت الموجة الأشد شراسة: اتهامه بأنه أصل للتطرف والإرهاب! فبدلًا من تحميل المنظومة العالمية الجائرة، والأنظمة الطاغية التابعة لها، مسؤولية بروز العنف والغلو، ذهبوا يفتشون في كتب سيد قطب عن كلماتٍ اجتزؤوها لاتهامه زورًا وبهتانًا. عجبًا لهم! أما علموا أن الخوارج قد استندوا إلى قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فهل نُحمِّل القرآن مسؤولية أفعالهم؟! إن الانحراف في الفهم لا يعود على النص بالإدانة، بل على العقل الذي أساء الفهم. إنّ سيد قطب دعا إلى فكر نقي، وإلى إسلام متكامل، وإلى منهجٍ ربانيّ يقيم العدل، لا إلى تطرف ولا إرهاب.

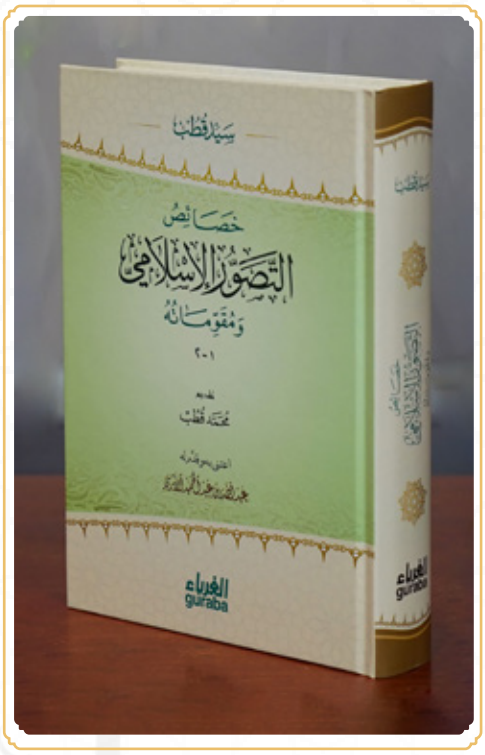

بل والأدهى، أن تُلصق به تُهَمٌ باطلة، كدعوى الحلول ووحدة الوجود! وهي دعاوى تُشعر السامع بالبؤس الفكريّ لمن أطلقها. إنّ من يُحسن قراءة كتبه يدرك أنّه صاحب توحيدٍ نقيّ، وأنّ رؤيته قائمة على التمييز الحادّ بين الخالق والمخلوق، بين الإلهية والعبودية. كيف يُقال عن رجلٍ كان يُجدد في فهم العقيدة ويعيد تشكيل العلاقة بين الإنسان وربه بهذه الاتهامات التي لا تُلصق إلا بأهل الانحراف العقدي الحقيقيين؟! هل قرأ هؤلاء (خصائص التصور الإسلامي)؟ هل تأملوا مقالاته عن حقيقة الألوهية والربوبية؟ أم اكتفوا بنقلٍ مُغرض عن فقرات مبتورة؟

سيد قطب ليس نبيًا معصومًا، بل مجدد من مجددي هذا الدين، يُؤخذ من كلامه ويُرد، لكن لا يُحاكم بمنطق الخصومة، ولا يُوضع فكره في ميزان التشكيك، فإن ذلك ظلم لفكره، وإقصاء لميراثه الذي يُعد من أهم ما أنتجه العقل الإسلامي الحديث. لقد كان مجددًا لا تابعًا، حرًا لا سجين فكرٍ أو تقليد.

إنّ أفكاره خرجت من رحم المحنة، فنطقت بالحكمة، وتجلّت فيها ملامح الصدق والمعاناة، والهمّ الصادق بقضايا الأمة. لقد كان رحمه الله واضحًا صريحًا غير متلون من البداية، وثبت وضحى بحياته من أجل المبادئ التي آمن بها، وعلى الرغم من إدراكه أن الأمة في هذه اللحظة متعلقة بالحضارة الغربية المتغلبة، ورغم هذا أصر على أن تعريف الحضارة هي الحضارة التي قامت على القيم الإسلامية، ورفض أن يسمي أي تقدم مادي صناعي أو علمي أو اقتصادي لم تتوفر فيه القيم الإسلامية حضارة حقيقية.

ودافع بجرأة عن كون القيم الإسلامية يمكن تحققها في الواقع وليست مثالية خيالية، ورفض مبدأ التطبيع مع العلمانية تحت مسميات اشتراكية الإسلام أو ديمقراطية الإسلام، أو العلمانية الجزئية وغيرها من المفاهيم التي تريد أن تُتطبع مع الدولة الحديثة، فقال بوضوح:

«إن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية بشتى أسمائها ورياتها جميعاً، وإنما هو الإسلام فقط، الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل وأوضاعه المستقلة. الإسلام الذي يحقق للبشرية خيراً مما تحلم به كله من وراء هذه الأوضاع».

وختاماً..

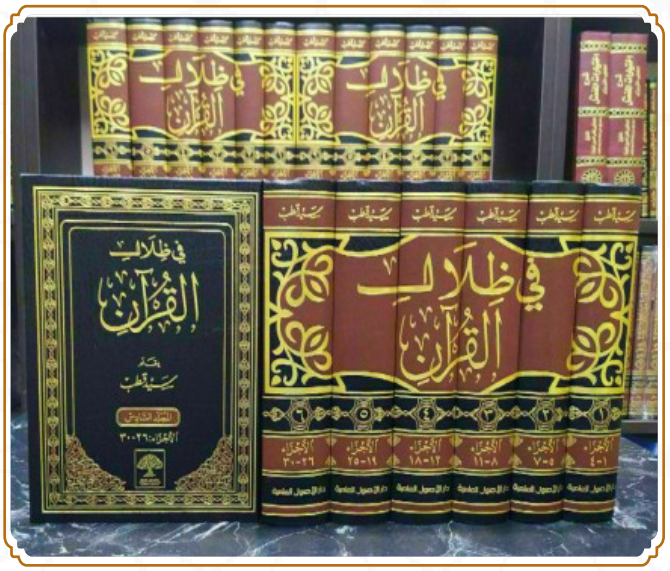

ولئن كان فكر قطب لم تستوعبه الحركة الإسلامية خلال القرن الماضي -فضلاً عن شراسة الهجوم عليه من العلمانية وغيرها من الأيدولوجيات- فإن إرهاصات اللحظة التي تمر بها الأمة والرسائل الربانية تشير إلى صحة هذا المنهج، تقول بوضوح إن فكر الظلال هو فكر القرن القادم، الفكر الذي سوف يمهد الطريق إلى خلافة على منهاج النبوة.

لقد آن الأوان للحركة الإسلامية أن تأخذ أطروحات قطب موضع الجد، وأن تعيد قراءتها وأن تُقبل على تراثه بوعي الباحث الجاد، لا بعين المشكك المرتاب. لننظر إليه باعتباره إمامًا فكريًا مجددًا، لا متهَماً في قفصٍ زُجّ به ظلمًا. لنستفيد من تراثه في فهم الواقع فهمًا متوازنًا، وفي إعادة بناء الأمة على أساس العدل الإلهي والشريعة الربانية. ليكن شهيد الظلال قدوتنا في البذل، وفي الثبات، وفي صفاء الفكرة، وجمال العبارة، وعلو الرؤية. إنّه واحد من أولئك الذين يموتون، فتظل أفكارهم حيّة، وتندثر أجسادهم، فتظل كلماتهم تنبض بالحياة.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الشيخ محمد بن محمد الأسطل
من علماء غزة

أين سُنة الله في نصرة المظلوم والانتقام من الظالم؟

وقد يسأل سائل: هل تعطلت فاعلية الآيات والسنن الإلهية في هذه المعركة؟ وأين سنة الله في نصرة المظلوم؟ وأين سنته في الانتقام من الظالم؟

فالجواب بالقطع: كلا، لم تتخلف سنة الله ولا فاعلية الآيات، بل إن الآيات فاعلةٌ على بابها، والسنن الإلهية ماضيةٌ على بابها دون أن تختلف، بل إنها لتكاد تُحَسُّ وتُرَى وتتشخص ماثلةً كأن لها أقدامًا تمشي بها على الأرض.

* تنشر مجلة «الطوفان» على حلقات متتالية، كتاب: في غمرات الطوفان: آمال تتدثر بالآلام للشيخ الغزي الفقيه محمد بن محمد الأسطل -حفظه الله- وهو الكتاب الذي سطره صاحبه تحت القصف والموت والدمار في غزة، ونشره على قناته على التليجرام. وهو مادة نفيسة نرجو أن يهتم بقراءتها كل من كان يهمه أمر المسلمين.

وقد كان الشيخ محمد بن محمد الأسطل من الكتاب الدائمين لمجلتنا، مجلة «الطوفان» حتى حال الطوفان بينه وبين الاستمرار في ذلك، نسأل الله تعالى أن يمتعنا بالشيخ وعودته القريبة إلى أحبابه، وأن يمتعنا جميعاً بنصر قريب في غزة وسائر بلاد المسلمين.

ولكن من الإشكاليات في التعامل مع هذا الأمر عدم التيقظ لأمرين من جملة أمورٍ لا بد من استحضارها في التعامل مع فقه السنن:

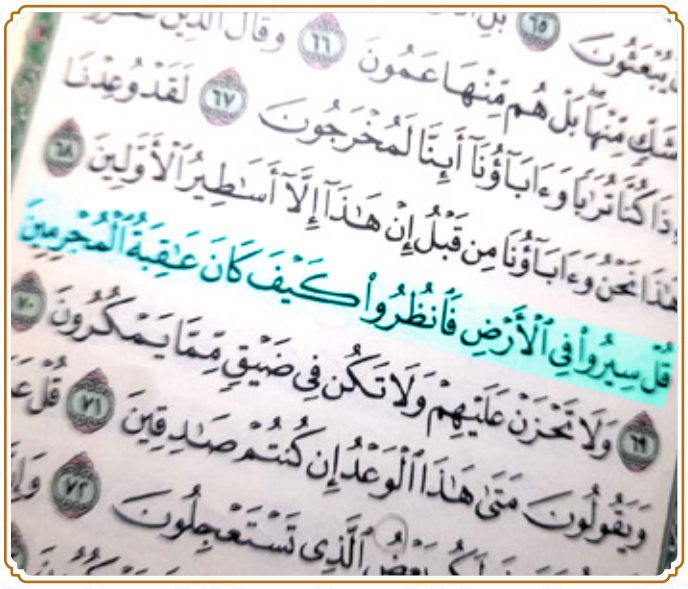

●● **الأول: إغفال العامل الزمني:** فالذي يقرأ منا أخبار الأقوام وأصحاب التجارب سواء كانوا من الأمم السابقة أو من المتقدمين أو من المعاصرين لا ينتبه للزمن؛ لأنه ليس جزءًا منه، فالمشاعر باردة، ويمكن أن تقرأ في بعض السور خبر نشأة قوم وهلاكهم في أسطر معدودة، وإن كانوا حضارةً ممتدةً، فالنظر دائمًا مسلطٌ على الخواتيم.

فمثلًا: روى ابن عساكر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «كلمتان قالهما فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِن إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، إلى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ كان بينهما أربعون عامًا، فأخذه الله بنكال الآخرة والأولى»[1].

وهذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله، وبغض النظر عن عدد السنوات بالتحديد إلا أن هناك مدةً طويلة بينهما، أو على الأقل فإن المدة التي قضاها موسى في دعوة فرعون وما تخلل ذلك من أحداث كانت طويلة، لكن الآيات تطوي ذلك.

---

١ تاريخ دمشق (٢٤٨/٥٢).

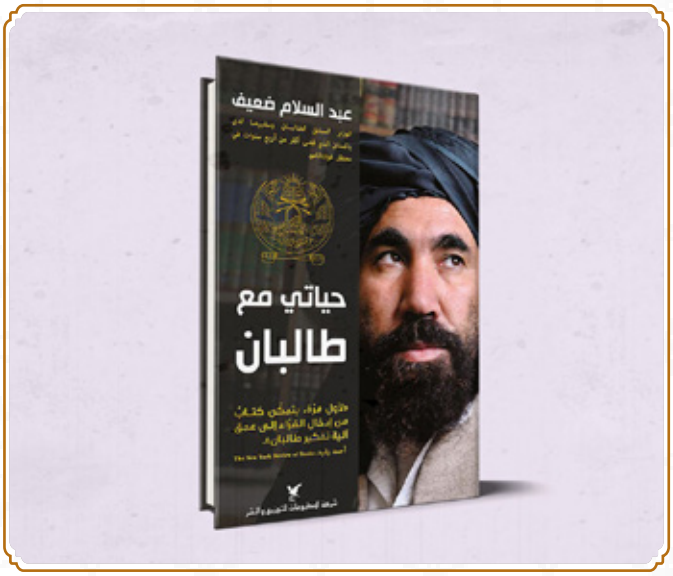

والموقف الذي ذكرته في مطلع الجواب نقلًا عن الملا عبد السلام ضعيف -وفقه الله- من حضور الأسئلة العقدية لدى الناس لما حصلت هزيمة طالبان سنة ٢٠٠١ لم يكن من شأننا التفاعل معه يومئذٍ ولو كنا متابعين للحدث ومهتمين به؛ لأنه ببساطةٍ لسنا جزءًا من المشهد، فالغلبة في قراءة المشهد للخارج عنه إنما هي للعقول لا للمشاعر.

ولو قيل لأحدنا يومها: لماذا لم تنتصر طالبان خلال أشهر؟ ربما قال: وهل الحروب مع الدول الكبرى نزهة! لا بد من الصبر، وإن الله عدلٌ وقد وعد بالنصر ولن يخلف الله وعده، وربما قال في الجواب: وهذا هو النبي قد عانى التكذيب والتعذيب هو وأصحابه ثلاث عشرة سنة بمكة، وكان الله قادرًا أن ينصره من أول يوم لكنها سنة الله.

وحين انتصرت طالبان سنة ٢٠٢١، واستطاعت أن تُخرِجَ الولايات المتحدة الأمريكية حاكمة هذا العصر وهي ذليلة تفر بعد أن زادت تكلفة بقائها عن المصالح التي تُحَصِّلُها فرح المسلمون بنصر الله المبين، وقالوا: لقد صدق الله وعده، وبدأوا يتداولون كلمة للملا محمد عمر يقول فيها: «إن أمريكا وعدتنا بالهزيمة والله وعدنا بالنصر فسننظر أي الوعدين ينجز أولًا»!

فحين يكتمل المشهد تصبح الآيات أكثر اتضاحًا، ولكن من يعيش داخل فرن البلاء يكون يومه كأنه سنة، فلا يحسن أن يقرأ الآيات إلا أن تنتهي فينظر إليها وشفتاه تسبحان بحمد الله.

وإني لا أذكر هذا لأسقِط ما حصل في الساحة الأفغانية على ما يجري الآن في الساحة الفلسطينية من أن المعركة ستمكث عشرين سنة!

كلا، فلكل معركةٍ ظروفُها وحساباتُها، ولكن المعركة التي نحن فيها حصل فيها مواجهة للنظام العالمي بأدواته فإن العاقبة فيها وإن كانت ستكون للمتقين قطعًا بإذن الله ولكن كيف يمكن أن تكون المعركة نزهةً؟!

ومن العجيب فيما يتعلق بفقه السنن في خصوص معركتنا مع العدو أنه لم يقف عند حدود السنن الإلهية العامة، بل جاءت كثيرٌ من النصوص تنزل إلى مستوى التفاصيل فيما يتعلق بالمدافعة بين المسلمين وبين كفرة بني إسرائيل في نطاق هذه الأمة خاصة، من مثل:

- أن علو بني إسرائيل سيكون كبيرًا كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].
- وأنهم سيجتمعون في فلسطين بعد أن كانوا مشتتين طيلة التاريخ الإسلامي كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].
- وأن إمدادهم سيكون من خارج على مستوى الأموال والجنود والإعلام كما قال سبحانه: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، ولعل الإعلام داخلٌ في النفير كما

ذكر الشيخ الشعراوي رحمه الله، ووجهه -كما يقول-: أن النفير هو الصوت العالي الذي يجذب الانتباه، ونحن نرى الآن أن إسرائيل تسيطر على وسائل الإعلام والدعاية في العالم، وأن صوتها عالٍ ومسموع.

●● وأنهم سيُكثِرُون من الجُدُر والتحصينات كما قال سبحانه: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤].

واعتمادهم على الدبابات لا يخرج عن هذه العقلية؛ فإنها كالقرية الصغيرة المحصنة، ومثل ذلك ما نراه من كمية الجدر الفاصلة في الضفة والسواتر الإسمنتية والرملية حول المواقع والمناطق السكنية.

ثم إن الله أخبرنا أنه سيبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، فأخاطب ابن هذا البلد أقول له:

هل خطر ببالك يومًا أنك من القوم الذين يُسلَّطون على اليهود وسمع بهم الصحابة وما زالوا يتقلبون في أصلاب الرجال حتى شهدتهم أو كنت واحدًا منهم؟ صدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

●● العامل الثاني: تداخل السنن

وهذه قضيةٌ ممتدةٌ لا تكفيها هذه الإشارة، ولكني أكتفي بالقول: إنَّ جملةَ السنن تسير معًا من غير تنافر، فثمة تكامل بينها.

ففي يوم أحدٍ مثلًا انتصر المسلمون أول الأمر جريًا على سنة الله في نصرة المؤمنين متى كانوا على أهلية وأخذوا بالأسباب، ثم حصلت الوعكة العسكرية لما حصلت المخالفة، فالمعركة واحدة لكن كل سنةٍ صارت في مسارها.

وفي اتجاهٍ ثالثٍ كان بعض الصحابة قد ألحوا على الله في الشهادة، وكان من تقدير الله في حصول المخالفة والخطأ أن يُصطفى هؤلاء شهداء، فجاءت المخالفة بما أنتجته من واقعٍ عسكريٍّ جديدٍ تضع الأسباب التي يُصطفى في سياقها هذا المقدار الكبير من العدد.

وفي اتجاه رابعٍ كانت الجولة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للكافرين، فحصلت سنة التداول كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. إلى غير ذلك من جوانب التداخل.

وفي هذه المعركة -أعني طوفان الأقصى- كثيرة هي السنن التي حصلت ليخرج مشهدٌ متكاملٌ تنتظم فيه عامة السنن الإلهية من غير أن تتنافر.

ومن أعجب ذلك أنَّ الحفلَ الموسيقي الذي داهمه المجاهدون في عملية السابع من أكتوبر كان متعلقًا بالمثليين، فسلط الله المجاهدين عليهم من غير تخطيطٍ مسبق من المجاهدين، وتعلم ما الذي حصل لقوم لوطٍ لما بدلوا فطرة الله.

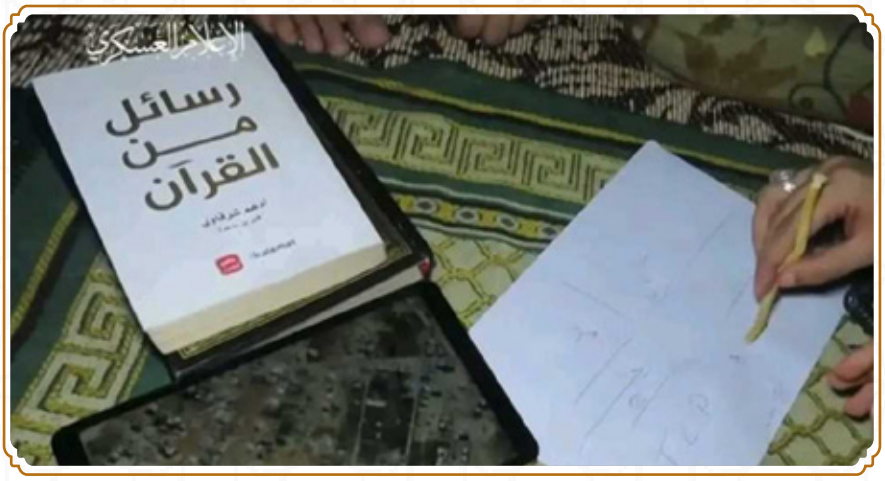

ومن رسالة هذه المعاني: أنَّ دراسةَ الحقائق القرآنية لا تتجلى على وجه التمام إلا في الميدان، وهو ما حظي به الصحابة الذين عاينوا التنزيل ورأوا الآيات ماثلةً أمامهم فكانوا فقهاء الدنيا.

إنَّ حقائقَ هذا الدين لا يكفي فيها أن تؤخذ من الكتب، بل ولا حتى من أفواه العلماء؛ لأن هذا الدين نزل ليكون فاعلًا في الحياة، فإذا اشتبك النص بالواقع استطاع أن يفهمه الناظر بما لم يكن يفهمه من قبل، مع أن النص واضحٌ أمامه وربما كان يحفظه ويرتله.

وقد ذكرت عند الحديث عن ثمار المعركة أني لم أكن أعي جيدًا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب: ١٠] مع أني كنت قد قرأت تفسيرها من قبل، فلما جاءت المعركة في أيام شدتها الأولى صار الذهن معتقلًا لها لا يكاد يفكر في غيرها قط، وكثيرًا ما كان يحصل السهو في الصلاة في معرفة عدد الركعات أو السجدات، وليس هذا عن غفلةٍ وسرحان؛ إنما كان يأتي مع شدة التفكر فيما أنت فيه من آيات.

ولما قرأت تفسير الآية من جديد وأنا في المعركة وأن تفسيرها هو أن الأبصار زاغت عن كل شيء إلا عن المعركة.. فهمتها فهمًا عميقًا؛ لأنها كانت تُوصِّفُ الحالَ الذي كنت عليه!

وفي نفس الآية جاء الختام بقوله سبحانه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، ويعلم الله أني كنت مع قراءتي لتفسيرها يحوك في صدري شيءٌ إزاء الآية، وأقول: كيف يمكن أن يظن المؤمن بالله الظنون؟!

وجاءت المعركة وكانت تأتي لحظات من التوجس والخوف حتى إنك لتأخذ في الصلاة والسجود لتخرج مما أنت فيه، ثم تأتي لحظات تكون فيها في غاية السكينة مع ضخامة الأحداث التي تأتي لحظتها، فقرأت في تفسير الآية: مرة تظنون النصر ومرة تظنون اليأس، فشعرت من جديدٍ أن الآية ليست إلا عملية توصيف لما نحن فيه.

وصدق الإمام الجصاص حين قال: «القرآن لا تتفتق معانيه إلا لمن يعانيه».

وبقي قوله بين الجملتين: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] لا يتجلى لي معناه على وجهه، وإن كان ظاهراً أنَّ المعنى: أن القلوب من شدة الخوف لكأنها انتقلت مكان الحناجر.

وقبل مدة ليست بالبعيدة كان أحد المجاهدين يحدثني عما جرى لهم عند مواجهة جنود العدو، ويذكر مواطن الخوف ومواطن السكينة، وإذ به يقول أثناء حديثه في إحدى محطات الخوف: في هذا الموقف خرج قلبي من مكانه وصار في حنجرتي ووضع أصبعه على مكان الحنجرة!

نستكمل في المقال القادم إن شاء الله.

الشيخ حسن الخطيب

عضو رابطة علماء فلسطين

آيات النصر

بعظيم الصبر (٢/١)

يَمُرُّ علينا الشهر الثاني والعشرون، وما زال شعبنا يتعرض لأبشع أنواع المذابح والتجويع والموت الجماعي، ومقاومتُنا وشعبُنا رغم عِظَمِ البلاء ما زالا في أوج صبرهما وثباتهما وإصرارهما وتحديهما وعزيمتهما، وأدائهما الرائع على أرض المعركة، لا يثنيهما عن مسارهما شدة بطش الطغيان ولا نذالة الخذلان..

لقد اقتضت سنة الله تعالى الذي خلق خلقه للابتلاء، ليرى جل في علاه [وهو يعلم] مَنْ مِنْ عباده أيُّهم أحسن عملاً، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٦].

وليميّز الشكور الصبور من الكفور، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢- ٣]

بل وتزداد هذه الابتلاءات شدةً وضراوةً، كل حسب مقدار إيمانه ودينه، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قالَ ﷺ: «الأنبياء ثمَّ الأَمثلُ فالأَمثلُ، يُبتلَى الرَّجلُ علَى حسَبِ دينِهِ، فإن كانَ في دينِهِ صلبًا اشتدَّ بلاؤُهُ، وإن كانَ في دينِهِ رقَّةٌ ابتليَ علَى قدرِ دينِهِ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يتركَهُ يمشي علَى الأرضِ وما علَيهِ خطيئةٌ»[1].

هذه شهادة من الله ورسوله ﷺ

لأهل غزة ورجالها بصبرهم وثباتهم وصمودهم وتحديهم؛ أنهم إن شاء الله داخلون في قوله عز وجل ﴿هُمُ المؤمِنونَ حَقاً﴾ [الأنفال: ٤]؛ بما تحملوا من أعباء وملمات وكروب

---

١ رواه الترمذي بسند حسن صحيح.

وجوع، وما أدراك ما الجوع! والصواب: التجويع.. الذي يفتك بالأجساد المنهكة والمتعبة والنازحة ويهلكها، وما أنفقوا من دمائهم في سبيل الله، وهم ما زالوا على صبرهم وثباتهم، وبما أنزل الله عليهم من سكينة في قلوبهم، وبما مَنَّ عليهم من ذِكْرٍ ويقين يُطَمْئِنُ قلوبَهم، حتى يَلْقَوْا رَبَّهُم بألسنة تلهج بالدعاء، يتحصنون به لمواجهة أخس وأنذل و﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

ولسان حالهم يقول: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

يخوضون أشرس معارك التاريخ وأشدها ضراوة؛ ليكشف الله بهم الناسَ.. كل الناس، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ [الأنفال: ٣٧].

بشريات صبر الأبرار رغم عظم الأخطار

رضينا أم أبينا، كرهنا أم امتعضنا، فإن الطوفان حقق الكثير من الأهداف العظيمة:

- أولاً: تهاوى على أيدي الأبرار نمر الورقِ المصطنع بهالته الضخمة، التي رسمتها وصنعتها مصالح الغرب وإعلامه الخبيث الحاقد على الإسلام والمسلمين.

- ثانياً: سقوط نظرية الردع الصهيونية التي لازمت عدونا لأول مرة على يد المجاهدين الأبرار وإلى الأبد.

- ثالثاً: وهذا بلا شك أوقف قطار التطبيع العربي المخزي، والذي تسارع في السنوات الأخيرة دون أي مواربة أو خجل.

- رابعاً: وعلى إثره أُفشلتْ صفقة القرن بكل أبعادها وأهدافها، وخاصة مشروع الهيمنة الصهيو أمريكي في المنطقة العربية.

- خامساً: ظهور حقيقة العرب وفساد إعلامهم وخَوَر أعلامهم الذين تزينوا بغير ما أمر الله تعالى.

- سادساً: كشف الله حقيقة النفوس الخبيثة التي سكنتها المذلة، ووَلَّدَتْ جُبْناً وتَخَاذُلاً، لذلك رأينا النبي ﷺ يتوعد العرب بقوله: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هذِه». وَعَقَدَ سُفْيَانُ بيَدِهِ عَشَرَةً. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قالَ: «نَعَمْ، إذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[٢]. وكأن الخبث ديدن المتخاذلين، ورأس مالهم.

لماذا الخَبَثُ أهم صفات المتخاذلين؟

عندما تخلى بعض العرب المسلمين عن أمتهم بدويلاتهم الصغيرة وبكراهيتهم لطاعة الله وعُجْبِ نفوسهم بحضارة الغرب، خرج حُبُّ دينِ الله من قلوبهم بسبب إعجابهم بحضارة الغرب القائمة أساساً على الشرك والمعاصي، التي هي أصل عمل الكافرين، هذا العُجْب تحول إلى اغترار بحضارتهم الزائفة، وبما يزينُ لهم الشيطان وأنفسهم هذا الاغترار، مع أن الله نهانا عن ذلك بقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

---

٢ صحيح مسلم، بسنده عن زينب بنت جحش.

وبما أصابهم من حب الدنيا وكراهية الموت، وهذا مصداقاً لقوله ﷺ: «يُوشِكُ الأممُ أن تَداعَى عليكم، كما تَداعَى الأَكَلةُ إلى قصْعتِها»، فقال قائلٌ: ومن قِلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعَنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ»، فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ وما الوهْنُ؟ قال: «حبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ»[٣].

هذا الوهن الناتج عن حب الدنيا الذي وَلَّدَ لديهم الذلةَ والهوان، رغم كثرتهم وما يملكون من ضخامة الأموال، فامتلأت قلوبهم بحب الدنيا فخارت نفوسهم وخَبُثَت قلوبهم، وخاصة عندما تخلوا عن ولائهم لدين الله وعدم انتمائهم له، فكان يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، ليكشف أمر العدو وحقيقته الواهية ومن والاه، ويُظْهِرُ سوءاتهم جميعاً، بل ويفضح كل مدعي الإنسانية والديمقراطية والأخلاق وأصحاب اللحى المزيفة والعمائم المستأجرة!

فعُرِف القريب من ربه، من البعيد، والطيبُ من الخبيث، والشكور من الكفور، والبرُّ من الفاجر، والخلوقُ من الدعي، والمُنَاصرُ من المتخاذل، والمؤمنُ من المنافق، قال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

لقد بات الأمر واضحاً، ليس على مستوى غزة فحسب، بل على جميع المستويات والأصعدة العربية والإسلامية والعالمية.

---

٣ صحيح الجامع.

سنة ماضية في الأمم

كان الناس في زمن موسى عليه السلام راضين بالمذلة والهوان، يقبلون قتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، حتى جاءهم موسى عليه السلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقد استجاب أتباع موسى عليه السلام فآمنوا، لكنهم فوجئوا بشِدة رَدِّ فعل فرعون الطاغي بإبادة خضرائهم، واستئصال شأفتهم، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا...﴾ [الأعراف: ١٢٩].

لقد اعترف أتباع موسى عليه السلام بأنهم أوذوا من قبل أن يأتيهم عليه السلام، لكنهم كانوا ساكتين راضين، متحملين بذلة وهوان، وعندما أرادهم موسى لما أراد الله لهم من العزة والكرامة والحرية، استنكروا، فماذا قال لهم موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، رفضوا أن يستخلفهم ربهم بعبادته وطاعته، وبما رضوا لأنفسهم من ذلة وهوان، وهذا للأسف حال كثير من أبناء أمتنا اليوم، ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

معركة لها أهلها ورجالها

إن احتلال أرض فلسطين وبيت المقدس لعشرات السنين، وقد تجاوز العدو كل الخطوط الحمر في اعتداءاته وإجرامه، لم يحرك للعربان والمسلمين ساكناً، ويُعَدُّ امتحاناً عظيماً ومهما لأمة محمد ﷺ جميعاً،

والذي فشل في تجاوزه الكثير الكثير، ولم ينجح فيه إلا ثلة قليلة مؤمنة، تلك التي أيقنت أن ليس للأقصى وبيت المقدس إلا أهله، الذين تَزَوَّدُوا بالتقوى، ليجوزوا هذا الامتحان الصعب والمؤلم والقاسي، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]..

التزود الذي ألزمهم العكوف على ذكر الله، وتلاوة كتابه وحفظه ودراسته وتدبره، والعمل بسنة رسوله ﷺ وخاصة سُنة الذكر والدعاء، والتي تحصنوا بها وقادتهم إلى سلامة التوحيد، والإعداد الجيد، حسب المستطاع والإمكانات، لمقاتلة من احتل أرضنا واعتدى علينا، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١]، فكان الإعداد بالرجال والكتائب والسرايا، من أهل الوضوء والفجر، زمراً وأفواجاً، فرادى وجماعات، مقبلين على الله بإيمانهم، متحصنين بذكر الله ودعائهم، يتسارعون بذلك إلى مغفرة الله ورضوانه، يرمون بالله عدوَ الله بشتى أنواع الرمي، امتثالاً لأمر الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ولِتُطْوَى صفحة العدوان والطغيان، وتَطهر الأرض التي باركها الله للعالمين بإذن الله تعالى.

صدق الإيمان وحسن الإعداد

هذا التسارع إلى الله تعالى لم تكن بدايته طوفان الأقصى، بل من قبل الطوفان بعشرات السنين، مع حِلق القرآن والذكر ودراسة الفقه والسيرة النبوية، وليالي الاعتكاف، والكتائب السرية بين القيام والذكر والدعاء،

وليالي الرباط التي ما انقطعت ليلة؛ حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه؛ ووصولاً إلى صفوة الحفاظ، ومن عشرات الحفاظ لكتاب الله؛ إلى المئات؛ بل إلى آلاف الحفظة من الرجال والنساء الصادقين بزهدهم ونقائهم ودينهم وأخلاقهم؛ حتى تُوِّجَ جُهْدَهُم وجهادهم بيوم السابع من أكتوبر؛ قال الله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

رجال بذكر الله تسابقوا وبقول الله قالوا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أيهم يلصق اللغم في بطن دبابة أو ظهرها ليدمرها ويحقق الهدف؟

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ قبل أن يوجه (الأر. بي. جي.) وهو يدعو ويقول: اللهم سدد اللهم سدد!

وهو يعلم أن الله يرمي نحو الدبابة ليدمرها؛ دون أن ترمش له عين؛ وزميل آخر في الجهة المقابلة يجري مسرعاً، بـ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ بكل جرأة يحمل عبوته ليفجر دبابة أخرى بالجانب الآخر ليعود أدراجه بكل الطمأنينة والسكينة!

وآخر يركض مسرعاً ناحية عربة جند يعتلي ظهرها بقوله: اللهم وفق! ثم يُلقي في قمرة قيادتها عبوة الشواظ ويحرقها؛ وينتقل إلى أخرى بكل الجرأة والإقدام بين الركام؛ ليوقف رتل الدبابات ويمنعها من التقدم والحركة؛ لأكثر من خمس ساعات، ويحقق الهدف؛ رغم طائرات العدو التجسسية التي تملأ المكان!

وللحديث بقية إن شاء الله..

عبد القادر مهدي أبو سنيج
باحث شرعي

نهاية الجهاد وخاتمته

نهاية الجهاد وخاتمة القتال بأن تضع الحرب أوزارها ويكون مكانه الشام بيت المقدس وأكنافه، وزمانه آخر الزمان بنزول عيسى عليه السلام وقتاله والمسلمون معه الدجالَ ومن معه من اليهود والأتباع، كما جاء في سنن أبي داود وأخرجه الحاكم، من قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي يُقاتلون على الحقّ، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يُقاتل آخرهُم المسيح الدجال»، وهذا لا يَمنع من كون الجهاد باقياً إلى قيام الساعة، أو يوم القيامة!

وجملة: «حتى يُقاتل آخرهُم المسيح الدجال»، جملة كاشفة عن أنه آخر قتال وأشرف قتال، وكل ما ورد من نصوص في القتال في باب الملاحم والفتن آخر الزمان إنما يقع أكثره في عموم الشام كغوطة الشام كما في حديث أبي الدرداء أن رسولَ الله رحمه الله قال: «إن فُسطَاط المسلمين يوم الملحمة بالغُوطَةِ إلى جانب مدينة يقال لها: دمشقُ، من خير مدائن الشام»[1].

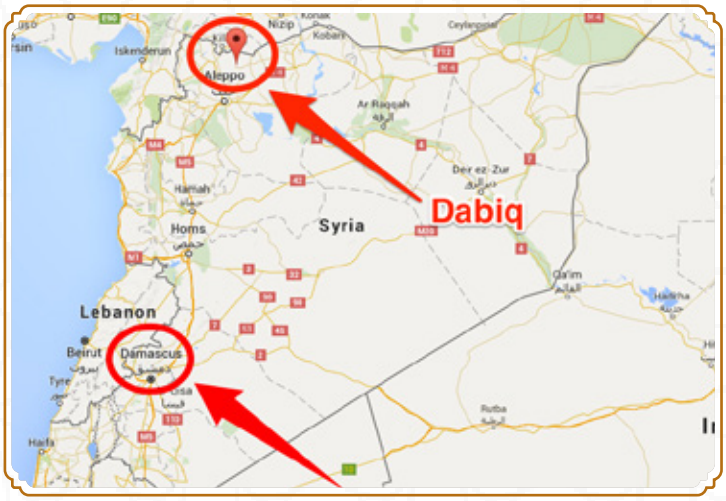

والأعماق ودابق: كما جاء من حديث أبي هريرة رحمه الله مرفوعًا: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق...». قال الإمام النووي رحمه الله: «الأعماق ودابق موضعان بالشام بقرب حلب»[2]. وهذا يصدق عليه (أطراف بيت المقدس وأكنافه).

كما يقع ذلك القتال ويكون في مدن قريبة من القدس كعسقلان التي وصف النبي ﷺ رباطها بأنه خير رباط، ثم يكون الأرض المباركة حتى يهلك الدجال عند باب لد من الأرض المقدسة، وقد روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ».

---

١ أخرجه أبو داود رقم (٣٢٩٨) في الملاحم، باب في المعقل من الملاحم، وإسناده صحيح.

٢ انظر: شرح صحيح مسلم (١٨/ ٢٩)، مراصد الاطلاع (١/ ٩٦).

ومعلوم أن ذلك يكون ببيت المقدس دل على ذلك الدليل والمشاهدة، قال الصدر المناوي: «والغرقد: بالغين المعجمة والراء المهملة وبالقاف نوع من شجر الشوك، معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود»[٣].

وقد دلت نصوص السنة على أن سيدنا عيسى عليه السلام ينزل قرب الساعة، ويقتل الدجال ويحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ، ويمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث. ثم يموت ويصلي عليه المسلمون. فعن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيا وَما فِيها». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: واقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩][٤].

ويؤكد هذا المعنى الأحاديث التي دلّت على استمرار الجهاد ودوامه كحديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ يومَ الفتحِ: «لا هِجْرَةَ بعدَ الفتحِ ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ وإذا اسْتُنْفِرتُمْ فانْفِرُوا».

---

٣ شرح النووي على مسلم (١٨/ ٤٤، ٤٥)، كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح (٤/ ٤٧١). ومن الجدير بالذكر أن يهود الدولة اللقيطة يكثرون الآن من زراعة هذا الشجر في المستوطنات والحدائق غيرها، وانظر: «واقعنا المعاصر» ص٥٤٣.

٤ متفق عليه.

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ في نَوَاصِيهَا الْخَيرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٥].

فقد ذكر البخاريّ[٦] هذا الحديث مفسّرًا بقوله في حديثه: في نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ والغَنِيمَةُ.

هذا هو الخير الّذى ذكره في هذا الحديث.

«قال علماؤنا: يخرج من هذا الحديث أنّ الجهادَ باقٍ إلى يوم القيامة مع كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ. وتأويلُه عند علمائنا: أنّ المراد به خيل الغزو في سبيل الله، وأنّ الإسلام باق لا تذهب جملته حتّى لا يبقى مَنْ يجاهد عن الدِّين. ويدلُّ أيضًا أنّ أهلَ الكفرِ ومن يجاهد على الدِّين لا يخلو منهم وقت»[٧].

ومما سبق نعلم أن الرباط والقتال لا ولن ينقطع في أطراف بيت المقدس وأكنافه، ولا تزال طائفة من أمة النبي ﷺ ظاهرة على الحق لا يضرها من خذلها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «لَا تَبْرَحُ هَذِهِ الْأُمَّةُ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ مَنْصُورِينَ أَيْنَمَا تَوَجَّهُوا، يُقْذَفَ بِهِمْ كُلَّ مَقْذِفٍ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[٨].

---

٥ متفق عليه. ٦ الحديث (٢٨٥٢) عن عُروة البارقي. ٧ المسالك في شرح موطأ مالك (٥/ ١١٣).

٨ "حسن بشواهده" سنن سعيد بن منصور- الفرائض إلى الجهاد- ت الأعظمي (٢/ ١٧٧) موقوفاً: «فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن الربعي» (ص٩) (١٦)، وعنه ابن عساكر في «تاريخه» (١/ ٢٥٩)، وأخرجه ابن عساكر من وجهين آخرين (١/ ٢٥٨- ٢٥٩) عن جبير، وقال في رواية: "هم أهل الشام". وجبير بن عبيدة صوابه جبر بن عبيدة، كذا ترجم له غير واحد، وترجم له الذهبي تحت جبر ابن عبيدة، وقال: وقال بعضهم جبير بن عبيدة، وهو مجهول العين. وقال الذهبي في «الميزان» (١/ ٣٨٨): لا يعرف من ذا. وقال الحافظ: مقبول. وللحديث شواهد يرتقي بها، وقال الألباني في "فضائل الشام ودمشق" (٦): صحيح، دون قوله: «وأكثرهم أهل الشام». انظر: موسوعة بيت المقدس وبلاد الشام الحديثية (ص٢٠٩).

وهم كما قال ﷺ: «مَنْصُورِينَ أَيْنَمَا تَوَجَّهُوا، يُقْذَفَ بِهِمْ كُلَّ مَقْذِفٍ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ» وهي «تُقَاتِلُ أَعْدَاءَهَا، كُلَّمَا ذَهَبَ حَرْبٌ نَشَبَ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ»[٩].

فهم في حرب دائمة يتنوع فيها العدو ويتجدد النصر مع كل عدو، ما يعني أن هناك «أحزاباً» مختلفة المشارب والمصالح ولكنهم متفقون على عداوة الإسلام.

والتعبير «بالمقذف» يصف لك حالة الحرب وشدتها والدمار والرعونة في العداوة والقتل والفتك بالضعفاء، وما يصاحبه من زور وكذب وفجور، وقذف للشبهات المثبطة والكلمات المخذلة، والتي هي عين الفجور ثمرة الكذب الذي لا يهدي إلا الفجور.

وهذه الغلبة في هذا الحديث تشير من طرف خفي بأن هناك قوماً بل أقواماً من «الأمة» تزيغ قلوبهم من الإيمان إلى الكفر، وذلك بتضييع الولاء لله عز وجل ورسوله ﷺ والبراء من الكفر وحزبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ: «لَا تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي عِصَابَةٌ قَوَّامَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ عز وجل لَا

---

٩ «إسناده صحيح»، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق الفسوي (١/ ٢٥٨)، وابن ماجه (٧)، مقتصراً على قوله: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها»، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٠٧) بنحو سياق الفسوي، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٢٤٨).

يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا تُقَاتِلُ أَعْدَاءَهَا، كُلَّمَا ذَهَبَ حَرْبٌ نَشَبَ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ، يُزِيغُ اللَّهُ قُلُوبَ قَوْمٍ لِيَرْزُقَهُمْ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَيَفْزَعُونَ لِذَلِكَ حَتَّى يَلْبَسُوا لَهُ أَبْدَانَ الدُّرُوعِ»[١٠].

وفي هذه الأحاديث بشرى ببقاء هذه العصابة الطائفة وأن الله ناصرهم ومن نصر الله لهم أنهم لا يضرهم من خذلهم.

ومن البشريات كذلك هزيمة الأحزاب وأن ذلك من سُنة الله تعالى، فقد قضى الله بقدرته هزيمة من تحزبوا ضد المسلمين، ففي غزوة الأحزاب علم رسول الله ﷺ أن الله سينصره على المشركين واليهود لما تحزبوا ضده وقال: «أبشروا معشر المسلمين». لأنهم بهذا التحزب قد حققوا سُنة إهلاكهم؛ لأنه من أفعال الله أن يهزم الأحزاب، ولهذا قال الرسول ﷺ: «اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»[١١]، ولهذا أيضًا عبر القرآن عن الكافرين بعد إهلاكهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [ص: ١٣][١٢].

جنود صهاينة

---

١٠ «إسناده صحيح»، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق الفسوي (١/ ٢٥٨)، وابن ماجه (٧)، مقتصرًا على قوله: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها»، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٠٧) بنحو سياق الفسوي، كلاهما بذكر أبي هريرة فقط دون ذكر ابن السمط، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٢٤٨) عنهما، ولفظه: «لا تزال عصابة قوامة»، ثم قال: «هم أهل الشام». اهـ. وقال الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢٥): هذا إسناد صحيح.

١١ متفق عليه.

١٢ حكمة الدعوة (ص٤١).

وسُنة الله تعالى كذلك عبر التاريخ وفيها إهلاك مَن يتجبر ويطغى على الناس بإخراجهم من ديارهم وتهجيرهم وتمكين عباد الله، كما في سورة إبراهيم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٥].

- وبهذه النصوص نوقن أن هذه الطائفة المرابطة منصورة مهما كان الخذلان ومهما تداعى عليها الأعداء.
- وأن هذا القتال لن ينقطع.. فإن توقف حيناً سيتجدد أحياناً.
- وأن التهجير وإخراج أهل الرباط -وإن خطط له القوم ومكروا وتأمروا- فلن يتم حتى وإن وقع بعضه؛ بل تمام الأمر ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٥].

فيجب على المسلم أن يوطّن نفسه على عدم الانخداع بدعاوى السلام والتعايش مع قوم ينتظرون ويجهزون لمناصرة أعظم فتنة منذ خلق الله آدم، كما في حديث أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ:

خَطَبَنَا رسول الله ﷺ، فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا، حَدَّثَنَاهُ عَنِ الدَّجَّالِ، وَحَذَّرَنَاهُ، فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ أَنْ قَالَ: «إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ»[١٣] الحديث.

قال ابن حجر: وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «لَا فِتْنَةَ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ» وَكَانَ يَسْتَعِيذُ مِنْهَا فِي صَلَاتِهِ تَشْرِيعًا لِأُمَّتِهِ[١٤].

ويؤكد النبي ﷺ مفهوم الدفع في علامة الدجال إذ يقول: «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ»[١٥].

ويقول في حديث آخر: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَّالَ»[١٦].

---

١٣ «سنن ابن ماجه» (٤٠٧٧)، وأخرجه أبو داود في «سننه» (٤٣٢٢)

١٤ فتح الباري (١٣/ ١٠٣)

١٥ أخرجه مسلم من حديث نافع بن عتبة، في الصحيح ٤/ ٢٢٢٥، كتاب الفتن (٥٢)، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الرجال (١٢)، الحديث (٣٨/ ٢٩٠٠).

١٦ أخرجه أبو داود (٢٤٨٤) وأحمد ٤/ ٤٣٤ و٤٣٧ والحاكم ٤/ ٤٥٠ بإسناد صحيح عن عمران بن حصين مرفوعاً.

د. أحمد شتيوي

أخصائي طب الأسنان

رب يضحك

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فقد قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. صدق الله العظيم.

قارئي الكريم بما أن أمتنا تمر بأيام لن تُنسى من عمر هذه الدنيا فإني أريد أن أتوقف توقفاً واجباً أمام معنى نذكّر به مبتلي هذه الأمة أينما ومتى كانوا، فقد اشتد البلاء وطغى الأعداء وبلغ العجز ما نرى.

تخيل أخي المجاهد الصابر وأخي المتألم لصبر إخوته أن همك وبلاءك هذا قد زال، ووجدت نفسك فجأة في جنة من جنان الدنيا وسرت بسكينة وراحة بال فيها وصرت تتمتع بما تراه.. تتأمل رقة الورد وعذوبته، وانسياب الأغصان الباسقة مع الهواء اللطيف يحركها.. وما فوقها من عصافير تغرد، وتأملت في رقة قططها ودلالها الجذاب أو حماستها وهي تطارد الفراشات ذوات الأجنحة الفاتنة الرقيقة رقة بتلات الورود التي تتنقل بينها، ثم نظرت لترى كيف تخفض الحمامة جناحها لفرخها ثم تضمه تحتها، وهذه البهيمة تلعق جلد صغيرها حرصاً ورحمة وأُنساً، كل هذا وأنت تسمع خرير الماء اللطيف الذي يزيد المشهد روحاً وحياة، الآن خذ نفساً عميقاً طويلاً هادئاً.. واذكر ربك.. ثم عُد لواقعك الذي أنت فيه واسأل نفسك: ما المشترك بين واقعك وبين ما تأملت؟

ما تأملته لم يكن خيالاً من ذهنك بل هو استحضار لمشهد حقيقي يحدث في حياتنا في كل لحظة وبين كل نَفس وما يتلوه، برغم كل ما يُمزج بالمشهد من آلام أو أهوال حتى إن كان في لحظة ابتلاء، إن المشترك بين المشهدين أن من يقدرهما هو الله العليم بما يحدث، الحكيم بتدبيره، اللطيف في مشيئته، ولو شك مقهور أو ظن فاجر أن له من أمر الأقدار شيئاً!

دعك من مشهد ربما يصعب تخيله في أوقات عصيبة ولنغمض أعيننا هذه التي ترى كل ما يحيط بنا من كون يُذكّر بسلطان الله تعالى، وقيوميته، لنترك ما يحيط بنا ولنذهب لعالم آخر لا سلطان لأحد فيه على أحد إلا لذي السلطان سبحانه، تذكّر معي تلك الخفقة التي خفقها قلبك يوماً، خفقها برؤية حبيب، أو رؤية

ابن لأول مرة أو بعد غياب، ألا تتعجب من هذا الطعم الغريب العجيب، الرقيق الراقي؟ ألسنا ننتقل بهذه الخلجات والخفقات من عالم الدنيا لعالم آخر نختار في وصف حلاوة طعمه؟ ننتقل بهذه اللذة من بؤس لهناء، ومن يأس لأمل ومن فراغ ولوعة لطمأنينة.. ونعيش كثيراً على انتظار أمثال هذه الخفقات لتمدنا بدفقات جديدة من الحياة ومعانيها، وكثير من سؤالنا لله هو عنها.

وإن رباً يخلق هذا الحسن والجمال ويُهديه لنا لحريٌّ بالحب والوُدّ وطلب الوصال، وقبل كل هذا: حُسن الظن ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٩].

إلا أننا كثيراً حين يأتينا هذا الشعور العالي الماتع نكون كصاحب الحاجة وللأسف أرعن! فنحن تخفق الخفقة في قلوبنا فنُتيَّم بالسبب ونغرق في اللذة الآسرة، وننسى مَن أحدث في قلوبنا هذا الجمال! ثم تتكرر لنا الأعطيات والخفقات واللذات فننساها ولا نتعلم منها شيئاً، فيصير حالنا حال الغافل الذي إذا أُذيق رحمة نسي المسبب سبحانه، وإن حُرمها تذكره سبحانه لا ليرضيه بل ليأتي بفعل لا يرضيه ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

إلا أن هناك مَن يسلك طريقاً آخر راقياً.. يرى فيه الأمور بصورة أخرى، فلا يرى بلاءً إلا ويوقن أن في جنباته رحمة الله، يرى البلاء مكرمة للمبتلى واجتباءً لأنه قد خبر رحمة المسبب وحكمته.. هو متيّم في حبه لذا فهو من الذين يرون ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، و﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]

في جنب كل بلاء، وهؤلاء هم الذين إذا قُذفوا في البلاء رأوه اجتباء ومكرمة ورفعاً للدرجات العلى، ويعلمون أن الله معهم بأقداره وبرحماته وبتجلياته.

وبما أننا نذكر الابتلاء، فتعالَ نتأمل في تلك التجليات الإلهية علينا في مواضع الابتلاء من توجيه وحرص وحث ورحمة، ولنذكر أصعب اللحظات وأشدّها والتي تتبدد فيها الآمال ويستهان فيها بكل غال!

لنبدأ من حيث نؤتَى، ومن حيث تخور قوانا، من حيث أخبر سبحانه حين قال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، تأمل معي توجيهه سبحانه.. فكأن تفسير الآية: يا عبادي الذين فروا تعالوا لأعلمكم كيف لا تفرون، وكيف تثبتون ولا تضعفون.. يا عبادي عندما تلقون فئة ويشتد البأس لا تهتزوا لذنب أذنبتموه، لا يوقعنّكم الشيطان في هذا الفخ، فخ استصغار الذات واستشعار الضعف فتهون أنفسكم عليكم فتزهد في المعالي!

تهتز في موقف طالما استحضرتْه ورجتْ أن تثبت فيه! لا تكونوا كما فُعل مع أبويكم ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ فإبليس يريد أن يتدنى قدركم في نفوسكم ويذكركم الآن ببعض ذنوبكم لتزل أقدامكم، وليس هذا مكان ولا وقت الوقوع في فخ استذلال الشيطان، بل هو وقت الثبات وتذكُّر سَعة رحمة الله وعظيم جزائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأول فعل تفعلونه هاهنا هو الثبات، ثم بعد هذا الثبات يأتي أن تذكروني لأعِينكم، ولا يُلبسن عليكم الشيطان هذا الترتيب!

ثم تجده سبحانه إذا رأى من جنوده رغبة في الصبر والجلَد له تجده يمدّ لهم يد العون، بل إنه سبحانه يوحي لهم بالصبر ابتداء ليتصبروا فيزيدهم صبراً لغاية يريدها منهم وليس الأمر إلا هكذا.. فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [سورة محمد: ٧] قال القرطبي: «الْمُرَادُ تَثْبِيتُ الْقُلُوبِ بِالْأَمْنِ، فَيَكُونُ تَثْبِيتُ الْأَقْدَامِ عِبَارَةً عَنِ النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ فِي مَوْطِنِ الْحَرْبِ. وَقَدْ مَضَى فِي «الْأَنْفَالِ» هَذَا الْمَعْنَى. وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾». انتهى كلام القرطبي. فكان النصر هو الانتصار على الشيطان والذات لنيل غنيمة الثبات، ولعل هذا هو سبب تقدم النصر في الترتيب على الثبات في الآية الكريمة.

إن رباً يبيّن لعباده أي طريق يسلكون لمرضاته، ويظل معهم يصبرهم ويرشدهم في ضعفهم ألّا ييأسوا ويظلوا على الطريق حتى ينالوا ما أحب لهم.. حريٌّ بأن يُحتفَى بقضائه، كما يُحتفَى بالطبيب يصف دواءً فيُشكر عليه.

ولعلك أخي الكريم قد دار بخلدك أن الثبات هذا شأن الأنقياء، فكيف يثبت عاصٍ مذنب في موطن تزلّ فيه الأقدام؟! أليس موضع الثبات هذا موضع شريف لا يُنال بالتمني إنما هو حصاد عمْر في مجاهدة النفس؟ ألم يقل تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أليست هذه الحياة بطولها إلا أسئلة في امتحان يقيّم بجميع أسئلتها وأجوبتها؟ وأن المقدمات تؤدي إلى النتائج، وأن «من تمام البدايات كمال النهايات»؟ فكيف يرجو عاصٍ مذنب أن يرتقي لدرجة عالية بموقف؟! هذا ليس بمنطق!

الشهيد الساجد تيسير أبو طعيمة

أقول لك أخي إن قاعدتك سليمة منطقية، إلا أن ربك عظيم المغفرة وجعل العبرة بالخواتيم! وتعال مرة أخرى لنرى في القرآن ما يثبت هذا، قال سحرة فرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ [طه: ٧٣]، أليس هذا موقف في يوم واحد قبله آلاف الأيام التي عاشوها -كما قالوا بأنفسهم- في غير طاعة بل في معصية؟ ألم يأخذوا قرار الثبات في موطن واحد تحدوا به جبروت عصرهم فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]، ثم -ويا للعجب- طلبوا من الله سبحانه المعونة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وكأنهم من السالكين إلى الله الدارسين لسبل الوصول، الواعين بها العارفين بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه يُطلَب منه العون على البذل له! وهم لم يدرسوا شيئاً إنما هي رحمة ربك بمن عزم على السير له!

لطالما وقفت أمام قصة هؤلاء السحرة متعجباً من عظيم ثباتهم بعد لحظات من الإيمان! وكنت أظن هذا المشهد استثناء وليس قاعدة، استثناءً عظيماً يُحتفى بذكره! إلا أنه ومع ثبات أهل غزة الذي دفعنا إلى التعمق في القرآن علمت أنها القاعدة: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وتأمل في «إن» التي تفتح لك المجال في أي وقت! وبعد أن فتحت لك المجال في أي وقت، وفي أي وضع وتحت أي ضغط تجد في قرآن الله تعالى بعد الحث على الصبر والبشارة بعظيم الأجر أنه سبحانه لن يكلفك فوق ما تطيق ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فإذا قضى عليك بهذا الحمل فاعلم أنه قد أودع فيك قدرة عليه، إنما يريدك أن تمد قدرتك هذه على خط الزمان فتحولها لصبر! فالصبر ثنائي الأبعاد، ثم توقن بحكمته وصدق وعده فتحوله لثبات ثلاثي الأبعاد إلى أن ينقضي الزمان الذي قضاه عليك.

وفي هذا الزمان الذي قضاه عليك لا تغفل عن لطفه ورحمته، التي لا تفارق المؤمنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقيّض لك كائنات نورانية تصلّي عليك بعد أن صلى عليك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ لكي يرتقي بك في درجات النور ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وبعد هذه المعينات لا يغلبك شيطان في موضع الثبات، ولا يوهمك بأن الله ابتلاك بما لا تستطيع فتقدم وساوسه على القوانين التي أظهرها الله جليةً في كلامه! أو يشعره الشيطان بدنو مستواه لتخور عزيمته فيخسر الجولة العظيمة أو ينسى أن الله يحبه وأنه يريد أن يرقيه بصبره لدرجة أعلى وأن كل ما فيه إنما هو ألم لحظي في حياة دنيا ما تلبث أن تزول ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، وإن طالت لن تطول عن الحد الذي تستطيعه، وأنه ما زالت فيك سعة ترقيك إلى رضوان الله، يريد الله أن تبلغها، وأن هناك سكينة تتنزل للثابتين ضعافاً كانوا أم أقوياء فيكون ثباتهم معجزة يتعجبون منها ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦] وتأمل «على رسوله» أي أنزل سكينته على أكمل إنسان، ليخبرك أن الأمر كله من عنده وحده!

إن لحظات الشدة والضيق التي يكون المرء فيها أمام أسئلة لا يجد لها جواباً: متى وكيف الخلاص مما أنا فيه؟

ورُبما يسأل: وماذا فعلت؟ وهل هو عقاب أم تكريم؟ ويظل الإنسان في جنبات الابتلاء كسجين في سجن ضيق بسور عال، ومع مرور الوقت أو عظم الخطب يأتي الشيطان ويبذر في عقلك كل مُشكل،

ويسقيه بمياه كثيرة أولها هو ماء استصغار الشأن «الاستذلال» وكفى به موبقاً مزلزلاً للأقدام، ثم يتدرج به فيزيد عليه ماء الغفلة فينسيك أنك أنت وما أو من تعانيه تحت سلطان الله وبين أقداره الحكيمة اللطيفة! ثم يزيدك من مائه الخبيث حتى يصل بك للشك في الموعود، لينفرط عقدك، وهذا البذر والري والتدرج ما هو إلا معركة عنيفة حامية الوطيس يشعل نارها إبليس بحقده الدفين ليحرمك من منزلة عليا تؤهَّل لها بصمودك وبيقينك في ربك، وبإصرارك على الفوز بمعركة اليقين التي يتجلّى فيها ضعف البشر بقوة من مدد الله! واقرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٥].

فيا من يريد الجنة، انتظر أن يأتيك مَثَلَ الذين خلوا من قبلك، فهو شرط، فإن أهلتك الأقدار لها فاتقِ الله واصبر فإنها منحة لا تعطى للهُمل، اتق الله وأقدم ليمدك الله! وراجع نفسك.. ألم تتمنّ أن يجعلك الله في الدرجات العلى، ألم تتمنّ ولو مرة أن تكون صلباً ثابتاً في موقف لله تعالى.. لابد أن هذا مر في نفسك يوماً وتمنيته، إذاً فلمَ لمّا وضعت فيه استعجلت الخلاص دونه!

هل تريد أجراً بلا تعب؟ وهل نسيت ما ينتظرك من أجر، وهل نسيت رحمة الكريم؟ الذي -وإلى الآن- لا يريد أن يعجل بعجلتك فتُحرم الأجر، فهو يريد أن يوصلك لمرادك الذي طلبته منه يوماً، فأنت

لم تهُن عليه إنما يرى عندك وسعاً يريد أن يرفع درجتك به! يريد أن ينصر عزمك على خوارك، فهو يعلم أنك إن فاتتك هذه ربما تألمت لها ألماً عظيماً، وإن احتملتها سعدت سعادة لا تنتهي.. فثبّت قدميك وجدد العهد.. واستعن بربك فإنه يحب أن يُستعان به كما فعل السحرة.. ولا يستزلنك الشيطان فمن منا سيصمد بحوله دون حول الله؟! ومن منا سيصمد لأنه لم يفرط في جنب الله؟!

إنما هي أعطيات فاطلب من كريم العطاء.. ألم تقرأ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧] فهي المكرمات من الله الذي قدر كل هذا.. لأنه يريد أن يبلي المؤمنين منه بلاء حسناً.. هذه هي حقيقة الصبر والعمل وإن كان الصبر والعمل جاء من أشرف الأنبياء.. فليس إلا عطاء!

وبعد الصبر يأتي رفع المرتبة لمكانات أعلى وغير متوقعة، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٤] فعندما ابتلى الله سبحانه وتعالى إبراهيم ووجده صابراً ذا عزيمة شكَر له ورفعه إلى المرتبة العليا: أن يكون رمزاً دالاً على الله سبحانه، ليس فقط جزاء الصبر الذي يكون بغير حساب بل أن يكون معلماً للناس كيف يصلون! فأي منزلة تلك ستكون في الآخرة، وفي الحديث: يا رسولَ اللهِ! أَوَيضحكُ الربُّ؟ قال: «نعم». قلتُ: لن نعدِمَ من ربٍّ يضحَكُ خيرًا.

أما أنتم يا أهل غزة فآلامكم التي لا حدود لها ليست إلا تحت تلك الآية السابقة، وهذه التالية:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٤٢] فهنيئاً لكم، نسأل الله لكم الثبات وألا تزلوا عن هذه المنزلة، فإن ما تكابدونه في جنب ما ينتظركم ليس بشيء، وما يفتح الله بكم لهذه البشرية لا حدّ له، كفاكم أن الإسلام يُذكَر في أقصى الدنيا بثباتكم.

د. حسين عبد العال

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

النصب والرفض
وجهان لعملة واحدة

في وقت عصيب على الأمة الإسلامية، في وقت أشد ما نكون فيه لوحدة الصف وجمع الكلمة، في وقت يكون فيه واجب وقتنا أن نتكاتف ونضع خلافاتنا جانبًا، في وقت كان ولابد أن نقف صفًا واحدًا مع قضية الأمة المحورية، في وقت وجب أن يكون الحديث فيه عن غزة وفقط، في وقت تسطر فيه المقاومة الباسلة أروع البطولات أمام أقوى آلة حربية غربية مجرمة.

في هذا الوقت العصيب، تصرّ فئات من البشر أن تصرف أنظار وأسماع الأمة عن القضية المحورية بشتى أنواع الصرف.

فهم لا يألون جهدًا في اختلاق القضايا، واستخراج الخلافات من صناديق النفايات، بحثًا عن أية خلاف يفرق الأمة، أو يزرع الأحقاد في نفوس الشباب والأطفال، ويزيد الهُوَّة والفُرقة بين أبناء الأمة، إنهم في الحقيقة هم النواصب المدافعون زورًا عن بني أمية، ولأجل هذا يعادون أهل بيت رسول الله ﷺ، وكذلك المتشيعة الذين يدافعون زورًا عن آل البيت مما يدفعهم لتكفير بني أمية، وهكذا يريدون للأمة أن تنشغل بخلافات طائفية ما أنزل الله بها من سلطان، لا لشيء سوى أن ينشغلوا عن قضية الإسلام الأولى وهي حرب الكيان الصهيوني الغاصب، وترك المجاهدين يعانون وحدهم، وشغل الناس بأمور لا تصح في وقت لا يصح، ولا يكفيهم خذلان الأمة لأهل غزة، حتى يعملوا على صرف القلة القليلة من المسلمين التي كانت تهتم بالقضية.

من هم النواصب؟

النواصب هم من ناصبوا آل البيت العداء، وبخاصة أمير المؤمنين وخليفتهم الرابع سيدنا علي بن أبي طالب، فمنهم مَن فسّقه ومنهم من سبَّه ومنهم من كفَّره! عياذاً بك اللهمَّ!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة: «ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ... ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويُمسكون عما شجر بين الصحابة[1].

١ العقيدة الواسطية، مجموع الفتاوى ٣/ ١٥٤.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «النواصب، هم الذين ينصبون العداء لآل البيت، ويقدحون فيهم، ويسبونهم، فهم على النقيض من الروافض»[٢].

وإنما يفعل النواصب ذلك ظنًا منهم أنهم بذلك يناصرون بني أمية، وفي الحقيقة هم لا يناصرون إلا الغلاة من بني أمية، ولكن مؤمني وصالحي بني أمية لا يحبون من ناصب آل البيت العداء، ومنهم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وخلق كثير من صالحي بني أمية.

فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وهو سيد بني أمية -خلا الصحابة منهم- لما ولي الإمارة نَهى عن سب عليٍّ رضي الله عنه، فقد قال ابن الأثير في كتابه (الكامل): «كان بنو أمية يسبّون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام، إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، فترك ذلك وكتب إلى العمال في الآفاق بتركه.

وكان سبب محبته علياً أنه قال:

كنت بالمدينة أتعلم العلم وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فبلغه عني شيء من ذلك، فأتيته يوماً وهو يصلي، فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ من صلاته، التفت إليّ فقال لي: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك. قال: فما الذي بلغني عنك في عليّ؟ فقلت: معذرة إلى الله وإليك!

٢ شرح الواسطية ٢/ ٢٨٣.

وتركت ما كنت عليه. وكان أبي إذا خطب فنال من علي، رضي الله عنه، تلجلج، فقلت: يا أبه، إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر عليّ عرفت منك تقصيراً؟ قال: أوَفطنتَ لذلك؟ قلت: نعم. فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده.

فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجلها، فترك ذلك، وكتب بتركه، وقرأ عوضه: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى الآية، فخلّ هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً، وأكثروا مدحه بسببه[٣].

آل البيت وبنو أمية

ظل سيد آل البيت عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وسيد بني أمية عثمان بن عفان رضي الله عنه، فترة حياتهما إخوة متحابين في الله تعالى، ما سمعنا يومًا ولا ورد عنهما ولا حتى شيء يسير من الشقاق، فقد كانا رضي الله عنهما من السابقين الأولين للإسلام، أي عندما كان المسلمون على وجه الأرض كلها عشرة فقط، كان منهم عثمان وعليٌّ رضي الله عنهما، بل واشتركا رضي الله عنهما في مصاهرة رسول الله ﷺ، إذ تزوج عثمان من رقية ثم أم كلثوم رضي الله عنهما، وتزوج عليّ من فاطمة أختهما الصغرى رضي الله عنها.

---

٣ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٤ ص٩٨- ٩٩.

بل وكانا يتباريان في الفضل والقرب من رسول الله ﷺ:

فهذا عثمان يجاهد بماله حتى قال عنه النبي ﷺ: «ما ضَرَّ عثمانَ ما عمِل بعدَ اليومِ»[٤].

وهذا عليٌّ يجاهد بسيفه ونفسه حتى قال عنه النبي ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي»[٥].

وكانا سويًا من العشرة المبشرين بالجنة، وفضل كل منهما لا يخفى على مسلم، لدرجة أن أهل السنة اختلفوا في تفضيل أحدهما على الآخر، وهكذا صالِحو بني أمية وآل البيت، بينهم من الحب والقرب ما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ.

فلما ظهر عبد الله بن سبأٍ اليهودي -لعنة الله عليه- وأراد أن يوقع الفتنة بين المسلمين، لم يجد سبيلًا لهذا سوى بث الفتنة بين آل البيت وبين بني أمية، وذلك بتأليب غوغاء المسلمين على عثمان رضي الله عنه حتى قتلوه، وادعى فعل ذلك حبًا في عليٍّ وطلبًا لخلافته! وعليٌّ منه ومن فعله براء، وحدث ما تعلمونه جميعًا من الوقيعة بينهما، ومن هنا ظهر الروافض الملاعين يدعون حب آل البيت ويكفرون الصحابة وبني أمية خاصة، وظهر النواصب أيضًا يفسقون عليًا ويبغضون آل البيت، والفريقان على ضلال مبين.

---

٤ رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه- برقم ٣٧٠١.
٥ رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- برقم ٢٤٠٤.

الرفض أو التشيع المذموم

الرفض: من التَّرْك. وأُطلق الرفض على مَن رفضوا خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وذلك مع اختلاف رأيهم في الخلفاء سواء مَن كفّرهم أو فسّقهم.

وكانت الرافضة تنتسب إلى شيعة عليّ زورًا وبهتانًا، ولم يُعرفوا بهذا الاسم إلا بعد حوارهم الشهير مع سيدنا زيد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنه، لما أثنى على أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- رفضوا قوله فسُموا رافضة، ومَن وافقه سُموا زيدية.

قال الإمام ابن تيمية: «قُتِلَ زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بِالْكُوفَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَصُلِبَ عَلَى خَشَبَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَفَاضِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَكَانَتِ الشِّيعَةُ تَنْتَحِلُهُ، قُلْتُ: وَمِنْ زَمَنِ خُرُوجِ زَيْدٍ افْتَرَقَتِ الشِّيعَةُ إِلَى رَافِضَةٍ، وَزَيْدِيَّةٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمَا رَفَضَهُ قَوْمٌ، فَقَالَ. لَهُمْ: رَفَضْتُمُونِي، فَسُمُّوا رَافِضَةً لِرَفْضِهِمْ إِيَّاهُ، وَسُمِّيَ مَنْ لَمْ يَرْفُضْهُ مِنَ الشِّيعَةِ زَيْدِيًّا، لِانْتِسَابِهِمْ إِلَيْهِ»[٦].

والرافضة من أكثر الفرق ضلالا، فهم الذين كفروا وفسّقوا أصحاب النبي ﷺ، وخاضوا في عِرض الطاهرة المبرَّأة بنت الصديق رضي الله عنهما، مخالفين بذلك صريح القرآن الكريم الذي نزل ببراءتها، ولا شك أن مَن يفعل ذلك منهم عالمًا قاصدًا يكفر بالله عز وجل.

٦ منهاج السنة النبوية، لابن تيمية ج١ ص٣٥

لا يحب آل البيت من كفّر بني أمية

كما أنه لا ينصر بني أمية من أبغض آل البيت، فلا يحب آل البيت من كفّر أو لعن بني أمية، والرافضة اليوم تلعن كل مَن كان من بني أمية، وهذا مخالف لشرع الله تعالى، فبنو أمية من المسلمين كغيرهم من الناس صحابيهم كالصحابة، وصالحوهم كالصالحين من غيرهم، والناس جميعًا سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى، غير أن آل البيت لهم فضل لابد أن يُذكَر، وهم مقدَّمون على غيرهم في حال تقواهم، وأما العصاة من آل البيت فلا مزيّة لهم وهم كبقية عصاة الأمة.

والخلاصة

إننا في زمن وجب فيه أن تتحد الأمة، ولا أقصد الوجوب الشرعي بالكتاب والسنة والإجماع، فهذا ثابت في كل زمان ومكان، ولكني أقصد وجوبًا واقعيًا بعد أن علت الأمم واستخدمت قوتها افتراء علينا جميعًا، فما أحوجنا اليوم أن نكون يدًا واحدة ضد الظلم والقهر الذي نعانيه! وما يحدث في غزة وسورية والسودان وغيرها ليس منا ببعيد، فهلا تركنا خلافاتنا جانبًا لنقيم سدًا منيعًا لأمتنا قبل انهيارها تمامًا، فكلنا والله مسؤولون عن هذه الأمة، وإن كنا قد أصبحنا كغثاء السيل إلا أننا نستطيع العودة لماضينا وأمجادنا إن أردنا.

فتعالوا بنا لا نفتخر إلا بما يوحدنا، ونترك كل فخر بما يبعث فينا داعي الفرقة، فلسنا نواصب ولا نحب النصب، وواجب علينا أن نجد عصر أصحاب النبي ﷺ، وخاصة آل البيت منهم، فهذا سبيلنا وهذا ما أُمرنا به.

ولسنا روافض ولا نحب هذه البدعة الكُفرية، وواجب علينا أن نعظم أصحاب النبي ﷺ، كما عظمهم هو ورفع شأنهم في حياته وجعلهم مصابيح الهدى، وأمرنا أن نأخذ بسُنته وسُنة الخلفاء الراشدين من بعده، فعن عبد الرحمن بن عمرو السُّلميّ وحُجرِ ابنِ حُجْرٍ، قالا: أتينا العرباضَ بن سارية -رضي الله عنه، وهو مِمَّن نزل فيهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢] فسلَّمنا وقلنا: أتيناكَ زَائِرِينَ وعَائدينَ ومُقتبسينَ. فقال العرباضُ: صَلَّى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبلَ علينا، فوَعَظَنا موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العيونُ ووَجِلَت منها القلوبُ، فقال قائل: يا رسولَ الله كأنَ هذه موعظةُ مودعٍّ فماذا تَعهدُ إلينا؟ قال: «أوصيكُم بتقوى الله والسمع والطَّاعةِ وإنْ عَبْداً حبشيًّا، فإنَّه من يَعِشْ منكم بَعْدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ، المَهديِّينَ الرَّاشدينَ، تَمَسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فإن كُلَّ مُحدَثَةٍ بدْعَةٌ، وكل بدعَةٍ ضَلالةٌ»[٧].

٧ رواه أبو داود برقم ٤٦٠٧، وهو حديث صحيح، ورواه أحمد والترمذي وغيرهما.

القدوة الحسنة

العظمة النبوية في التواصل والإقناع ٢

محمود عبد الغفار

ماجستير في الإعلام

نواصل في هذا المقال تلمس أوجه القدوة الحسنة من نبينا الحبيب ﷺ في مهارات التواصل والإقناع، ونبدأ في ملامح عدة تتدرج تحت عنوان:

(ب) استخدام الاستمالات العقلانية: تعتمد هذه الاستمالات على المنطق والحجج لإقناع المتلقي، ولأن الحوار عقلي فلابد من حشد المعلومات والأحداث وبناء النتائج على مقدمات منطقية، إضافة إلى تفنيد وجهات النظر الأخرى إن لزم الأمر.

الحوار

من بين المواقف الحاشدة بالاستمالات العقلانية الحوار الذي أداره الحبيب ﷺ مع الأنصار عقب توزيع الغنائم في غزوة حنين، كما يتضح جلياً في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عما حدث إذ قال:

لَمَّا أصابَ رسولُ اللهِ الغنائمَ يومَ حُنَينٍ، وقسمَ للمُتألِّفينَ مِن قُرَيشٍ وسائرِ العربِ ما قسمَ، ولَم يكُن في الأنصارِ شيءٌ مِنها، قليلٌ ولا كثيرٌ، وجدَ هذا الحَيُّ مِن الأنصارِ في أنفسِهِم حتَّى قال قائلُهُم: لَقِيَ - واللهِ - رسولُ اللهِ قومَهُ. فمشَى سعدُ بنُ عُبادةَ إلى رسولِ اللهِ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ هذا الحَيَّ مِن الأنصارِ وَجدوا عليكَ في أنفسِهِم؟ قالَ: «فيمَ؟» قالَ: فيما كانَ مِن قَسمِكَ هذهِ الغنائمِ في قَومِكَ وفي سائرِ العربِ، ولَم يكُن فيهِم مِن ذلكَ شيءٌ. قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فأينَ أنتَ مِن ذلكَ يا سعدُ؟» قالَ: ما أنا إلَّا امرؤٌ مِن قَومي. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اجمَعْ لي قومَكَ في هذهِ الحظيرةِ، فإذا اجتمَعوا فأعلِمني».

فخرجَ سعدٌ فصرخَ فيهِم فجمعَهم في تلكَ الحظيرةِ، حتَّى إذا لَم يبقَ مِن الأنصارِ أحدٌ إلَّا اجتمعَ لهُ أتاهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ اجتمعَ لكَ هذا الحَيُّ مِن الأنصارِ حَيثُ أمرتَني أن أجمعَهُم. فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقامَ فيهِم خطيبًا، فحمِدَ اللهَ وأثنَى عليهِ بما هوَ أهلُهُ، ثمَّ قالَ: «يا معشرَ الأنصارِ ألَم آتِكُم ضُلَّالًا فهداكُمُ اللهُ، وعالةً فأغناكُمُ اللهُ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبِكُم؟» قالوا: بلَى! قالَ رسولُ اللهِ: «ألا تجيبونَ يا معشرَ الأنصارِ؟» قالوا: وما نقولُ يا رسولَ اللهِ وبماذا نُجيبُكَ؟ المَنُّ للهِ ورسولِهِ. قالَ: «واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم: جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ، ومَخذولًا فنصَرناكَ». فقالوا: المنُّ للهِ ورسولِهِ.

فقال: «أوَجَدتُم في نُفوسِكُم يا مَعشرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِن الدُّنيا تألَّفتُ بِها قَومًا أسلَموا، ووَكَلتُكُم إلى ما قسمَ اللهُ لكُم مِن الإسلامِ! أفَلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ إلى رِحالِهِم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم؟ فوَ الَّذي نَفسي بيدِهِ، لَو أنَّ النَّاسَ سَلكوا شِعبًا وسَلكتِ الأنصارُ شِعبًا، لسَلكتُ شِعبَ الأنصارِ، ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ. اللَّهمَّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ». فبكَى القَومُ حتَّى أخضَلوا لِحاهُم. وقالوا: رَضينا باللهِ رَبًّا، ورسولِهِ قسمًا، ثمَّ انصرفَ، وتفرَّقوا[1].

الأرقام

يُعد الاستدلال بالأرقام دلالة مهمة على دقة ما يجري الإخبار به، وأيضاً للتوثيق والتشويق معاً لما يخبر به الشخص غيره، فما بالنا إذا كان المتحدث نبياً يخبر عن ربه عز وجل.

وورد في هذا الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة:

فعندما تحدث الرسول الكريم ﷺ عن الموبقات حدد سبعة أنواع فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات...»[2].

وعندما تحدث عن الذين يظلُّهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة حدد سبعة أصناف، فقال: «سبعة يُظلّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه...»[3].

---

١ أخرجه أحمد.

٢ أخرجه البخاري ومسلم.

٣ أخرجه البخاري ومسلم.

وعندما يتحدث عن الظلم وأخْذِ شيءٍ من الأرض بغير حقّه فإنما يجعل من الرقم سبعة رمزاً للعذاب يوم القيامة، يقول ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قِيْدَ شِبْرٍ مِنَ الأرضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أراضين»[٤].

بناء النتائج على مقدمات

تعد من الاستمالات العقلية القوية؛ إذ ترسي المقدمات المنطقية التي تمهد للعقل وتقنعه بالنتيجة المبنية على هذه المقدمة.

ومن أبرز الأحاديث النبوية في هذا الصدد هو رد خاتم الأنبياء محمد ﷺ على الشاب الذي أتاه كي يستأذنه في الزنا، فلم ينهره النبي أو يذكر له التحريم مباشرة ليعلمنا كيفية مخاطبة من يسألون مثل هذه الأسئلة، وأنهم في الغالب إما ضعيفو إيمان، أو حديثو إسلام، أو غلبتهم الشهوات، وهذه الحالات تتطلب الخطاب العقلاني لجم الشهوات وتحريك الإيمان. وهذا نص الحديث:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: «أُدنُه»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال ﷺ: «أتحبه لأمك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك»،

---

٤ أخرجه البخاري ومسلم.

قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصِّن فَرْجَه»، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء»[٥].

تفنيد وجهة النظر الأخرى

من غير خاتم المرسلين ﷺ يملك الحجة البالغة والرد المفحم على الآراء المنافية للدين والخلق. وفي قصة لقاء النبي الكريم ﷺ مع وفد نصارى نجران وردّه على أكاذيبهم ما يبيّن ذلك بجلاء.

فقال الواحدي في (أسباب النزول): قال المفسرون: قدِم وفد نجران -وكانوا ستين راكباً- على رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيْهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان شَرُف فيهم ودرس كتبهم حتى حَسُن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده.

---

٥ أخرجه أحمد.

فقدموا على رسول الله ﷺ ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات (ثياب يمانية)، جباب وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب، يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلوا إلى المشرق. فكلم السيد والعاقب رسولَ الله ﷺ فقال لهما رسولُ الله ﷺ: «أسلِما»، فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: «كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير»، قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟» قالوا: بلى! قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟» قالوا: بلى! قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟» قالوا: لا، قال: «فإن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدِث»، قالوا: بلى! قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّيَ كما يُغذَّى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويُحدِث؟» قالوا: بلى! قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم؟» فسكتوا، فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آيه منها[٦].

ونستكمل في المقال القادم إن شاء الله

---

٦ أورده الواحدي، ونقله كثير من العلماء في كتبهم من غير نكير، كابن تيمية في (الجواب الصحيح)، وابن حجر في كتابه (العُجَاب في بيان الأسباب).

بسم الله الرحمن الرحيم

مشروع البصيرة

لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام

أطلقت الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ مشروع البصيرة للتعريف بالإسلام ونبيه ﷺ ودعوة غير المسلمين من غير الناطقين بالعربية للدخول في الإسلام، ومَن يدخل منهم في دين الله يُلحَق ببرامج تعليمية تحتوي على عدة مساراتٍ تعليميةٍ وتثقيفية، لتعليم المهتدين الجدد مبادئ الإسلام، وتثقيفهم بما لا يسع المسلم جهله، ومتابعتهم حتى ترسخ أقدامهم، ويكونوا حملة للدعوة في بيئتهم ومحيطهم. وينشط المشروع في الدعوة باللغات: الفرنسية والبرتغالية والإنجليزية، وستُوسَّع الدعوة بمزيد من اللغات إن شاء الله.

ندعو الجميع للإسهام كما نرحب بأصحاب الخبرة والتجربة، وكل من يرى في نفسه الهمة والكفاءة للتطوع والانضمام لفريق عمل البصيرة في أحد هذه الأقسام:

- قسم الحوار أو التعليم باللغة الفرنسية.
- قسم الحوار أو التعليم باللغة البرتغالية.
- قسم الحوار أو التعليم باللغة الإنجليزية.
- قسم التصميم والمونتاج.
- قسم النشر وإدارة صفحات السوشيال ميديا والمواقع الإلكترونية.

متطلبات التطوع لقسمي الحوار والتعليم:

- إتقان لغة القسم الذي سينضم له بدرجة ممتاز.
- قدر جيد من العلم الشرعي الذي يؤهل المحاور أو المعلم للقيام بمهمته.
- خبرة عملية في دعوة غير المسلمين غير الناطقين بالعربية.
- (في حال عدم وجود خبرة سابقة في المجال، يرجي ذكر ذلك).
- تخصيص وقت محدد (عدد ساعات) يلتزم بها المتطوع معنا في المشروع.

للتطوع معنا

للتواصل معنا...

Basirah
WhatsApp contact

﴿هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

كيف أسلمنا

بصيرة

٩٦ لم أجد قلبي في الكنيسة!
كارلوس موانزا

١٠١ شهيد الظمن سكون الجبل إلى نورِ الإسلام
فيكتور سيلفا

١٠٤ ابني... كان سبباً في إسلامي!
سيرج بونغو

١٠٧ الاختفاء الذي غيّر كل شيء
سيلفيستر مابيكا

١١١ الشفاء الذي جاء من السماء
الدكتورة سارة رافالو

مشروع "بَـصِـيرة" الدعوي

أطلقت الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ مشروع "بصيرة" للتعريف بالإسلام ونبيه ﷺ وهديه وسنته وأخلاقه، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام من غير الناطقين بالعربية للدخول في الإسلام، مستعملا في ذلك كافة الوسائل التقنية المتاحة، للوصول إلى الناس في أقاصي الأرض وأطراف المعمورة، قيامًا بواجب الدعوة إلى الله، وذلك بتقديم الإسلام لهم بصورته الحقيقية والدخول معهم في حوار مباشر، لنصحح لهم الصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام ورسول الإسلام.

للتطوع معنا

للتواصل معنا

تبرع الآن

BASIRAH
I invite to Allah with insight

كارلوس موانزا

من دولة موزمبيق

لم أجد قلبي في الكنيسة!

وُلدت في أحد أحياء العاصمة مابوتو، حيث تمتزجُ الحياة العصرية بأنفاس الاستعمار القديم. كنتُ الابن الأكبر لعائلةٍ تنتمي للمذهب الكاثوليكي، وكان والدي يعمل في هيئة الموانئ بينما والدتي تعمل معلمة في مدرسة ابتدائية. كبرنا على حضور القداس كل أحد، وترديد التراتيل في المناسبات، والجلوس في اجتماعات الكنيسة العائلية. لكن رغم كل هذا، كنت أشعر بشيءٍ ما أفتقده داخلي، فراغ لا أعرف مصدره، وتساؤلات لا أجد من يجيبني عنها!

كنت شغوفًا باللغات منذ الصغر، وأتقنت البرتغالية والإنجليزية وبعض الفرنسية، ما جعلني أعمل لاحقًا في وكالة سياحية لاستقبال الزوار الأجانب. كان عملي يقربني من عوالم متعددة، لكن قلبي كان مترددًا في كل شيء، أشعر أني أُجبر على ارتداء زيّ ديني لا يعبر عني، وأن قلبي يبحث عن شيء أعمق من مجرد طقوس مكررة لا معنى ولا تأثير لها!

في إحدى الجولات السياحية، تعرفتُ على سائح عربي يُدعى حمزة، كان مختلفًا عن بقية السياح. كان قليل الكلام، كثير التأمل، وحين كنا ننتظر في أحد المواقع الأثرية سألته: «أنت مسلم، أليس كذلك؟» ابتسم وقال: «نعم، وهل لديك فضول عن الإسلام؟». أجبته بصراحة: «لا أعلم لماذا، لكن دائمًا أشعر أنكم، أنتم المسلمون، تعيشون بسلام داخلي لا نفهمه نحن!». ضحك وقال: «ربما لأننا نعرف لماذا خُلقنا، وإلى أين نمضي..».

مرت الأسابيع، وغادر «حمزة»، لكن كلماته بقيت تتردد في ذهني. بدأت أبحث على الإنترنت عن الإسلام، وذات ليلة وجدت منصة لمشروع «بصيرة» الذي يدعو إلى الإسلام، ولفت انتباهي حلقات برنامج «رحلتي إلى الإسلام» الذي كان ينشر على منصات مشروع بصيرة، والذي كان يتناول قصص إسلام المهتدين الجدد ممن أسلموا معهم في المشروع. كل حلقة كانت تكشف لي شيئًا جديدًا يقربني من الإسلام خطوة.. خطوة.. وكم كنت بحاجة إلى هذا القرب.

ويساعد من يريد الدخول في الإسلام لتعلم تعاليم الإسلام، والجميل أنهم يقدموا ذلك من خلال محتوى دعوي بلغة برتغالية راقية، يناسب أمثالي. شدتني طريقتهم: لا ضغط، لا جدال، بل دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

حدثت نقطة التحول حين تُوفي صديقي الأعز «أنطونيو» فجأة في حادث دراجة نارية. كنت برفقته قبل الحادث بساعات، كنا نضحك ونتحدث، وفجأة ذهب.. بلا وداع. عدتُ إلى المنزل تلك الليلة وأنا منهار. جلست وحدي في الغرفة، وأمسكت هاتفي، وكتبت في محرك البحث:

«ماذا يقول الإسلام عن الموت؟»، وبعد مرور عدة ساعات من المشاهدة والقراءة والبحث،قررت التواصل مع أحد الدعاة في مشروع بصيرة على (واتساب) بحثاً عن أجوبة شافية لتساؤلاتي. وبالفعل تواصل معي أحد الدعاة وحادثني باللغة البرتغالية، كان صبوراً، رحيماً، شرح لي ما لم أكن أفهمه منذ طفولتي: أن الموت ليس نهاية، بل انتقال إلى الحياة الحقيقة.. وأن العدالة المطلقة لا تكون في الدنيا بل في الآخرة.. بكيت وأنا أستمع إليه.

قلت له: «أنا لا أكره ديني، لكن لا أشعر أني أؤمن به بصدق.. وأخاف أن أبدله فأهلك». فرد عليّ: «بل إنك تقترب من الله أكثر حين تبحث عنه بصدق».

وقرأ لي سورة الإخلاص، ثم أخبرني أنها تلخص بكلمات معدودة، حقيقة الله عزّ وجل الذي خلق كل شيء.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

شعرت أن هذه الكلمات البسيطة أجابت عن أسئلة عمري كله. لم أكن أحتاج إلى آلهة متعددة، ولا إلى وسطاء بيني وبين خالقي. فقط خالقٌ واحد، يسمعني ويهديني ويرزقني ويغفر لي.

بعد حواري مع الداعية، شعرت أنني أمام خطاب واضح، لا جدال فيه، لا غموض ولا ضغوط من أي نوع.

حينها، اكتملت لدي القناعة، وقلت للداعية: «هل يمكنني أن أكون مسلمًا؟». أجابني: «نعم، اليوم، الآن، فالله ينتظر صدق قلبك لا أكثر»..

وبالفعل نطقت بالشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته».

كانت لحظة غامرة، شعرت فيها أنني خرجت من سجنٍ طويل. ثم بكيت.. بكيت بحرقة، كأن كل الآلام التي تراكمت في قلبي طوال سنوات، قد ذابت في لحظة واحدة.

لم أستطع إخبار عائلتي مباشرة، لكنني بدأت أغير في سلوكي: أقل عنفًا، أكثر هدوءًا، أحرص على أوقات الصلاة، حتى دون أن يعلموا أني أصلي. لاحظ والدي الأمر، وسألني ذات مرة: «هل كل هذا بسبب الإسلام؟» فأجبته بصراحة: «نعم.. وجدت في الإسلام نفسي التي كنت أبحث عنها».

مرت شهور، وبدأت أتلقى دروسًا تعليمية منتظمة عبر مشروع بصيرة: دروس فقه، تفسير، سيرة، وكلها بلغتي البرتغالية. وشعرت أنني لا أتعلم دينًا غريبًا، بل أستعيد فطرتي التي كنت أجهلها.

ثم بدأت أشارك في توزيع كتب تعريفية بالإسلام على من أسافر معهم من السياح، وأشرح لهم بلطف من هو محمد ﷺ، وما هو القرآن، وأن الإسلام ليس كما تصوره (الميديا السوداء)، بل هو دين الرحمة والعدالة والتسامح.

اليوم، وبعد ما يقرب من عام على إسلامي، قررت أن أكتب قصتي هذه، علها تصل إلى قلب شخص مثلي، كان يبحث ولا يدري ما الذي ينقصه. وأقول لكل من يقرأ كلماتي: «لا تخف من الحقيقة، ولا تفر من النور. الله أقرب إليك مما تظن... فقط اجتهد، ابحث، وستجد الطريق بإذن الله».

وأسأل الله أن يثبتني، وأن يستعملني وأن يجعلني سببًا لهداية غيري، كما كان مشروع بصيرة سببًا لهدايتي.

فيكتور سيلفا
من دولة: أنجولا

من سكون الجبل إلى نورِ الإسلام

ولدت في قرية نائية بين الجبال الشاهقة في مناطق «هويلا»، كانت قريتنا هادئة جداً، تحتفظ بجمالها الطبيعي، ولا يزورها أحد إلا نادراً. كنا نعيش في سكون بعيد عن الضوضاء والتقنية، ونعتمد على الزراعة ورعي الماشية. كان جدي كاهن القرية، وأبي يعمل معه في طقوس وراثية نصفها بالدين، ولكنها كانت مزيجاً من الخرافة والطقوس القديمة.

في أحد الأيام، وأنا أعود من الحقل، لفت نظري شاب غريب يتحدث إلى بعض الشبان في الساحة. كان يتكلم عن «الإسلام» و«الله» و«الوحي» بكلمات جديدة على أذني. كنت أحذر نفسي: «لا تقترب! هذا رجل جاء ليفسد عقيدتنا!». ومع ذلك، بقيت أراقبه بصمت من بعيد.

لم تطل إقامته في قريتنا، وبعد أيام، رأيته يودع الناس ويركب دراجته النارية ليغادر. لكنه ترك خلفه شيئاً.. كتيباً صغيراً مترجماً بلغتنا المحلية.

خبأت الكتيب بعيداً عن أعين أهلي، وبدأت أقرأ فيه سراً في الليل عندما يخف الضوء وينام الجميع. وجدت فيه أجوبة على أسئلة كانت تزاحم صدري منذ سنين: من خلقنا؟ ما الغاية من وجودنا؟ لماذا نصلي؟ والكثير والكثير من التساؤلات التي كانت تجول في خاطري.

تغير شيء ما في داخلي. وفي أحد الأيام، وأنا أتصفح في هاتفي البسيط، كتبت في متصفح البحث: «ما هو الإسلام؟» وظهر لي رابط لـ«مشروع بصيرة للدعوة إلى الإسلام». كأن الأمور تتكرر وقدر الله يسوقني.

تواصلت مع أحد الدعاة، وكان صبوراً ورحيماً وصاحب حكمة ومنطق. كان يجيبني على كل ما يدور في ذهني، بطريقة عقلانية، بلغة تحترم سؤالي ولا تستهين بي. كنا نتحاور على مدار اليوم، وفي كل مرة، كنت أشعر أن قلبي يلين، وأن نوراً ما يخترق ظلمات ما كنت أعيشه.

في ليلة صافية، وبعد أن قرأت سورة الإخلاص وتفكرت في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ . بكيت! فقد وجدت أخيراً رباً أعبده دون وسيط، ودينا يجيب أسئلتي دون طقوس غامضة.

وفي صباح اليوم التالي، أعلنت إسلامي مع الداعية في مشروع بصيرة، ونطقت الشهادتين، وشعرت وكأن شمساً سطعت في قلبي. أخفيت إسلامي في بداية الأمر، ثم بعد أشهر من التعلم والثبات، كشفت لأسرتي السر وفوجئوا! ولكنهم رأوا التغير في سلوكي قبل أن يسمعوا كلماتي.

أسعى اليوم، وبعون الله، لتكوين نقطة تواصل مع مشروع بصيرة في منطقتي، وأتعلم كل يوم جديد؛ لأني أؤمن أن الحق إذا وصل، يخترق كل الحجب.

وأسأل الله الثبات على الحق وأن يستعملني في خدمة الإسلام والمسلمين!

والحمد لله رب العالمين.

سيرج بونغو

من دولة: الجابون

ابني
كان سبباً في إسلامي!

كنت أعيش في أحد أحياء ليبرفيل، العاصمة التي تجمع بين زحمة السياسة وهدوء الغابات القريبة. تربيت في بيت كاثوليكي متدين، كان والدي عضواً في الكنيسة، وأمي تقود جماعة التراتيل. ومع ذلك، كانت نفسي تحمل في داخلها قلقاً لم أكن أفهمه، وأسئلة لم أجد لها إجابة!

كنت أعمل في إحدى الشركات السياحية سائقاً بين الغابات والمتنزهات، أرافق سياحاً أجانب في جولات تستمر أياماً. وفي أحد الرحلات، كان معي رجل آسيوي هادئ، يحمل معه كتيباً يطالعه أثناء الرحلة. وفي أحد الليالي، ونحن نقيم معسكراً في طرف أحد الغابات، سألته: «ما هذا الكتاب الذي تقرؤه؟»، فقال: «إنه القرآن الكريم.. كلام الله الذي أُنزل على نبينا محمد ﷺ».

تفاجأت.. فهذه أول مرة أسمع شخصاً يذكر «محمداً» ﷺ في هذا السياق. وكنت أعتقد أن الإسلام دين للشرق الأوسط فقط، لا صلة لنا به.

قضينا ليلة طويلة نتحاور فيها عن الخلق، وعن الآخرة، وعن الحق. وقبل أن نفترق، قال لي: «لا أريد إقناعك، ولكن إذا شعرت يوماً أن قلبك يحنّ للمعرفة عن الإسلام فابدأ بالبحث وسيهديك الله الطريق».

مرت الأيام، ونسيت كلامه.. حتى جاء ذلك اليوم الذي سألني فيه ابني الصغير «ميشيل»:

«أبي، أين يذهب الناس بعد الموت؟ ولماذا نصلي؟ وهل يرانا الله ونحن نائمون؟».

سكت. لم أعرف كيف أجيب. كانت الأسئلة أكبر مني، وأعمق مما درسته في الكنيسة. بل لم أجد لمثل هذه الأسئلة أجوبة شافية واضحة ومقنعة في دين المسيحية.. في تلك الليلة، تذكرت كلام الرجل السائح.. وبحثت عن معلومات وإجابات على الإنترنت. فإذا بي أجد إعلاناً لمشروع يُسمى (مشروع بصيرة للدعوة إلى الإسلام).

فكرت وترددت كثيراً قبل أن أتواصل معهم، ربما أجد عندهم أجوبة شافية لبعض التساؤلات التي تدور في رأسي!

وبالفعل تواصلت معهم، ورحب بي داعية من المشروع.. كان يجيب أسئلتي بصبر وبساطة ووضوح. كان يرسل لي بعض الفيديوهات التي تجيب عن كثير من تساؤلاتي، ومقاطع قرآنية مع التفسير، وأرسل لي كتاباً رائعاً عن سيرة النبي محمد ﷺ. وكأني كلما قرأت سطراً أضاءت نقطة في صدري!

في ليلة ماطرة، ونحن نجلس أمام شرفة المنزل، نظر إليّ ابني وقال: «أبي، ماذا تخفي عني؟ أنت تبدو مختلفاً»! فقلت له: «يا ميشيل.. أبوك قرر أن يسير نحو النور والهداية... وقد وجد الطريق».

وفي تلك اللحظة، تواصلت مع (مشروع بصيرة) مرة أخرى، وقلت للداعية : «أنا مستعد.. أريد أن أصبح مسلماً». ونطقت الشهادتين، وأنا أبكي، لكنه لم يكن بكاء الحزن، بل بكاء من وصل بعد سفر طويل.

بعد إسلامي، بدأت أتعلم الصلاة، وأرتب وقتي بين العمل ومعرفة المزيد عن الإسلام، وكنت أجيب أسئلة ابني باطمئنان. وبعد شهرين، سألتني زوجتي: أتريدني أن أعرف ما الذي غيرك؟

فقلت: «أريد ذلك من كل قلبي».. في البداية لم تنطق زوجتي بأي كلمة.. ومع مرور الوقت بدأت في التقرب مني تسألني عن الإسلام! وهل هو السبب الذي جعلني هكذا: هادئاً، صبوراً، حنوناً ومرتباً عن ذي قبل؟!

مرت الأيام والدعاء لزوجتي بالهداية لم يفارقني في كل صلاة.. أسأل الله أن يشرح صدر زوجتي ويمنّ عليها بالهداية والإسلام. وأن ينفع بي الإسلام والمسلمين. وأن يبارك في مشروع بصيرة والقائمين عليه، وأن يجزيهم عني خير الجزاء!

سيلفيستر مابيكا

من دولة: الجابون

الاختفاء الذي غيّر كل شيء

كنت أعرف غابة «إيفيندو» المطيرة في الجابون كما أعرف اسمي. لكن ذلك اليوم من نوفمبر ٢٠٢٣ كان مختلفًا. الضباب الكثيف الذي التف حول قمم الأشجار العملاقة جعل كل شيء يبدو متشابهًا. بعد ساعات من التيه، شعرت بقلق يزداد داخلي. «أين أنا؟» همست لنفسي وأنا أنظر إلى ساعتي المتوقفة منذ ساعتين. رائحة الأرض الرطبة والأوراق المتعفنة ملأت أنفي، وحاولت عبثًا التقاط إشارة هاتفي.

وفجأة... لاحظت وميضًا غريبًا تحت طبقة سميكة من الطحالب عند قاعدة شجرة عتيقة.

ارتجفت أصابعي من الإعياء وأنا أسحب الكتاب الغريب من تحت الطحالب. كان غلافه الجلدي البني سليمًا بشكل مدهش رغم الرطوبة. وعندما فتحته، اكتشفت أنه مصحف قديم مكتوب بالفرنسية والعربية.

وقعت عيناي على هذه الكلمات التي لم أفهم معناها جيداً: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أخذت أردد هذه الكلمات دون وعي كامل، ومنذ تلك اللحظة، شعرت بوجود غريب حولي لا أعرف كيف أوصفه لكم، وكأن الغابة كلها تردد معي تلك الكلمات.

بينما كنت أتصفح المصحف، سمعت فجأة صوت خرير ماء قريب. تبعته لأجد جدولًا صافيًا لم أره من قبل. «هذا مستحيل!» صرخت وأنا أركض نحو الماء لأسقي ظمئي المحترق. بعد أن شربت حتى ارتويت، نظرت إلى المصحف المفتوح على الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

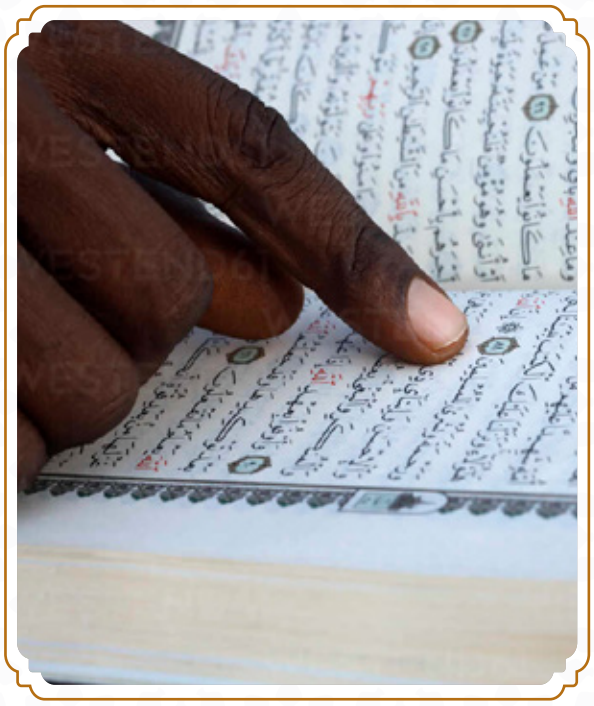

وفي اليوم التالي، وجدتني مجموعة البحث من قريتي. كنت ما زلت ممسكًا بالمصحف، وكأنه كنز لا أعوضه!!

بعد عودتي إلى قريتي «ميكوني»، أصبحت منعزلاً. زوجتي «جيسيل» لاحظت التغيير وقالت لي: «أنت تبدو مختلفاً، لم تعد الرجل الذي عرفته!».

وفي إحدى الليالي، بينما كنت أقرأ قصة النبي موسى في سورة طه، اشتعلت النيران في جزء من كوخنا بسبب مصباح زيت انقلب.

بعد إخماد الحريق، اكتشفت أن أجزاءً من المصحف قد احترقت، والتقطت بقايا من أحد الصفحات المحروقة، وقد كتب عليها: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. هذه الآية فتحت في قلبي باباً وشغفًا لا يُوصف لمعرفة المزيد عن الإسلام.

قررت البحث عن المزيد عن الإسلام، وبالفعل وجدت مواقع كثيرة وصفحات عديدة على منصات التواصل الاجتماعي تتحدث عن الإسلام، أخذت أقرأ عن الإسلام طوال شهرين حتى وجدت قدَراً إعلاناً عن مشروع لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام من غير الناطقين بالعربية يُسمى: «مشروع بصيرة الدعوي». ترددت كثيراً قبل أن أضغط على الرابط مع داعية مشروع بصيرة، لكن الذي دفعني للضغط لبدء المحادثة مع الداعية هو حبي وشغفي للحديث مع أحد المسلمين المتخصصين حتى يجيبني على الكثير والكثير من الأسئلة التي تدور في ذهني. أخبرت الداعية عن المصحف الذي وجدته في الغابة، ودار بيننا هذا الحوار العميق:

الداعية: «كيف وجدت هذا المصحف؟»

أجبت: «كأن الغابة هي ما دلتني عليه.. ولكن كيف يؤكد القرآن حقائق علمية لم تُكتشف إلا حديثًا؟»

قال مبتسمًا: «لأنه كلام الخالق العليم!». وأرسل لي مقطع فيديو يتحدث عن الإعجاز العلمي في القرآن.

أنهيت الحوار مع الداعية، على وعد باستكماله مرة أخرى.

وبعد شهرين كاملين من البحث والتفكير والتردد، قررت أن أعاود التواصل مع داعية مشروع بصيرة، لكن ليس للنقاش بل للدخول في الإسلام عن رغبة وطمأنينة وقناعة بأنه الدين الواحد الحق، وأنه هو الطريق الوحيد إلى النور والهداية والسرور، لا أنسى السعادة التي أبداها الداعية وفرحه لانشراح صدري للإسلام، وبدأ بالفعل بتلقيني الشهادتين، وكانت الدموع تنهمر من عيني وأنا أقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته».

وعندما عدت إلى قريتي، واجهت معارضة شديدة من زوجتي وعائلتي. لكني تذكرت وصية الداعية لي عندما قال «إنك ربما تجد معارضة لدخولك في الإسلام من أقرب الناس لك، حينها تذكر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾، واصبر واحتسب». وأوصاني بهم خيراً قائلاً: «لعل الله يجعلك سبباً لهدايتهم للإسلام».

أسأل الله أن يثبتني على الإسلام، وأن يكرمني بحفظ القرآن الكريم وأن يعلمني ما ينفعني من الإسلام وينفع بي المسلمين، وأن يبارك في مشروع بصيرة والقائمين عليه وأن يجزيهم خير الجزاء.

د. سارة رافالو
من دولة أنجولا

الشفاء الذي جاء من السماء

كنت أقف أمام حالة مستعصية في المستشفى الحكومي التي أعمل بها بمدينتي، حيث تختلط روائح التوابل مع ضجيج الأسواق الصاخبة. الطفل «ليو» ذو الثماني سنوات كان يخوض معركةً خاسرة ضد سرطان الدم النادر.

«ليس لدينا علاج لهذه الحالة هنا»، قلتُ ذلك لـ«فاطمة» أم الطفل التي ارتدت حجاباً بسيطاً. لكن المفاجأة كانت عندما لم تبكِ ولم تنهَر كما توقعت أنا، بل رفعت يديها بهدوء وسكينة وقالت: «الحمد لله على كل حال».

لاحظتُ أن الأم تعطي ابنها دواءً عشبياً غريباً بينما تهمس بكلمات غير مفهومة!

«أنتِ تفسدين علاجه!»، انفجرتُ غاضبةً!

لكن فاطمة أخرجت من حقيبتها كتاباً صغيراً وقالت: «هذا القرآن، أقرأه له ليشفيه الله».. تعجبت من كلامها، ولم أنطق حينها!

بعد أسبوع، عادت الأم ومعها طفلها للمتابعة،فحصتُ الطفل فوجئتُ بأن المؤشرات الصحية بدأت تتحسن! «هذا مستحيل طبياً!»، هكذا همستُ لنفسي وأنا أراجع التحاليل.

انتابتني الحيرة كثيراً! كيف يحدث هذا بهذه السرعة ودون دواء واضح؟! فهذا المرض لا ينجو منه أحد!

وفي تلك الليلة، بينما كنتُ أبحث في كل كتاب أو موقع أو منصات، عن تفسير لما حدث للطفل، ظهر لي قدراً إعلان عن «مشروع بصيرة». أرسلت لهم رسالة عبر الـ(واتس آب)، ربما أجد عندهم تفسيراً أو توضيحاً لما يدور في ذهني! وكان هذا الحوار مع الداعية:

أنا: «كيف يمكن لكتاب أن يشفي مريضاً؟»

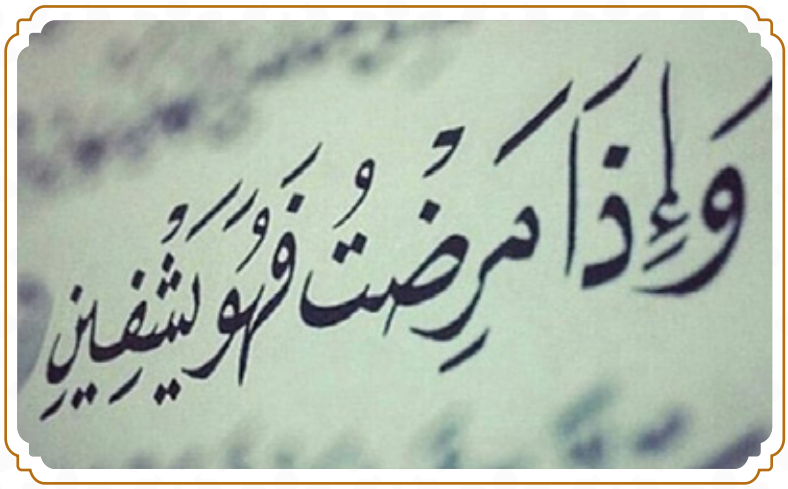

الداعية: «الشفاء بيد الله، والقرآن شفاءٌ للقلوب والأجساد وقد أمرنا الله بالأخذ بالأسباب والشفاء بيد الله».

هكذا أخبرنا الله ورسوله. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

كان الحوار قصيراً ومركزاً ومفيداً، وانتهى بإرسال الداعية لي بحثاً علمياً غربياً يتحدث عن تأثير سماع القرآن على خلايا الدم، وكذلك تأثيره على الحالة النفسية.

وكانت المفاجأة الكبرى، أنه بعد شهر، تعافت حالة «ليو» بشكل غير متوقع.

لا أخفي عليكم، أنا التي كنتُ ملحدة حينها، بدأت أدرس الإسلام سراً. اكتشفتُ أن القرآن ذكر مراحل تكوين الجنين بدقة قبل العلم الحديث بقرون!

وذات ليلة، بينما كنتُ أراجع (الشات) الذي كان بيني وبين الداعية في «مشروع بصيرة»، وقعت عيناي على آية من القرآن قد ذكرها لي المحاور أثناء الحوار، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]. انهمرت دموعي على لوحة المفاتيح دون إرادتي!

قررتُ زيارة «فاطمة» أم الطفل في منزلها المتواضع. هناك، رأيتُ الأسرة المسلمة الصابرة القنوعة.. رأيتهم يصلون بخشوع وسكينة لم أشعر بها في حياتي.. فقلت لنفسي بصوت مرتجف: «أريد

أن أعرف المزيد». عدت مسرعة إلى منزلي، وتواصلت مع الداعية في مشروع بصيرة وطلبت منه معرفة المزيد عن كيف أصبح مسلمة؟ فقال لي: الأمر يسير جداً! رددي معي هذه الكلمات لتصبحي من المسلمين، لكِ ما لهم وعليكِ ما عليهم: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته».

لا أستطيع أن أصف لكم حجم السعادة التي غمرت قلبي وجسدي كلها بعدها، شعرت بنهم شديد في تعلم تعاليم الإسلام، وازدادت سعادتي أكثر عندما أخبرني الداعية بأنهم يقدمون فرصة لتعلم تعاليم الإسلام (أون لاين) مجاناً ضمن مشروع بصيرة.. وقد بدأت معهم بالفعل.. أسال الله أن يكون عوناً لي في حياتي مع الإسلام كما هداني إليه بكرمه وقدرته.

والحمد لله رب العالمين.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾

سفراء النبي ﷺ

مقالات سفراء الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

١١٦ سيّد قطب المُلهِم المظلوم
د. سليمان بن عمّار الأحمر الأنصاري

١٢٨ سيد قطب في ظلال القرآن (١)
أ.د. خير الدين خوجة الكوسوفي

١٣٧ أديان باطلة (١)
فرج كُندي

١٤٨ معجزاته ﷺ في تكثير الماء
أ.د. جمال بن عمار الأحمر الأنصاري

١٥٦ سوريا الجديدة والنهضة الدعوية
الشيخ جلال الدين حمصي

د. سليمان بن عمار الأحمر الأنصاري

سفير الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ في الجزائر

في ذكرى استشهاده
سيّد قطب المُلهِم المظلوم!

سنة الظالمين في ورثة النبيين القتل والتنكيل!

قلة أولئك الذين ملأت آثارهم دنيانا، وهم الخاصة التي تعرضت للظلم والقهر والتنكيل.

ودون عناء يمكنك استحضار موتة أعلام الإسلام من السلف والخلف!

فقد قُتل من الخلفاء الراشدين المبشرين بالجنة عمر وعثمان وعلي -رضوان الله عليهم-

وقُتل الحسين وبعدهم خلقٌ كثيرٌ من الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء بأبشع وأفظع القتل!

قُتل سعيد بن المسيب، وقَطع سيف الحجاج رأس سعيد بن جبير، وقُتل الشافعي ضرباً بالهراوات (في رواية)، ومات سفيان الثوري فاراً، ومات الطبري محاصراً، ومات البخاري مهجوراً، ومات النسائي مقتولاً، ومات ابن حزم مطارداً، ومات عياض مسموماً، ومات ابن تيمية مسجوناً!

وما تزال سُنة الظالمين السيئة في الصالحين ورثة الأنبياء ماضية، فقد استشهد حسن البنا وحملت جنازته نساء قلة من عائلته، وصلى عليه فقط والده ودُفن سراً ومنع أهله من إقامة العزاء.

وأُعدم سيّد قطب فجراً ودُفن سراً دون حضور أحد وما يزال قبره مجهولاً!

واستشهد مهدي عاكف، ومُنع أهله من إقامة جنازة له، ودُفن قبل الفجر بحضور أربعة أشخاص فقط!

وإلى قريب استشهد الرئيس محمد مرسي ودُفن فجراً بحضور عدد قليل من أسرته ومحاميه فقط «يخافون الإخوان أحياءً وأمواتاً».

فلسطين في فكر سيّد قطب

تزامنت ذكرى استشهاد سيّد قطب الميلادية «٢٩ أوت (أغسطس) ١٩٦٦م» مع الذكرى الهجرية لاسترداد بيت المقدس «صفر٦٤٢هـ» على يد المجاهد الرمز نجم الدين أيوب، بجيش جرار مقداماً لا فراراً، استقر بعدها في غزة العزة..

اهتم سيّد قطب باكراً بقضية فلسطين وشارك في المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس سنة ١٩٤٥ معية كبار أعلام العالم الإسلامي.

وتأتي ذكرى استشهاده، وذكرى تحرير بيت المقدس على يد الأيوبيين في وقت شديد على الأمة المسلمة، فمن ناحية العلماء فإن سُنة الطاغين في العلماء الربانيين فاعلة في مشارق الأرض ومغاربها بالقتل تارة والسجن والاعتقال تارات، كُمّت أفواه العلماء ومُنعوا من الإفتاء، وصودرت مؤلفاتهم ومُنعت من معارض الكتاب، وفق سياسة فاسدة رفعوا لها شعاراً أسموه «تجفيف منابع الإرهاب» وفتحوا المجال واسعاً أمام العالمنيين ومنكري السنة والمتفحشين عن الفطرة «المثليين»، فتحوا لهم الشاشات والقنوات وسودوا بمدادهم الصفحات.

أما بيت المقدس المبارك فهو تحت تدنيس اليهود الغاصبين بالغلق والحفر تحت أساساته، والرقص والزحف وكل طقوسهم الشركية! وأهل غزة يبادون ليلاً ونهاراً، تهجير وترحيل، وقتل وتنكيل، لم توقفه -قرابة السنتين- المسيرات والاعتصامات والصيحات والنداءات، ولا بيانات الشجب والاستنكار من العرب والعجم والمسلمين وغيرهم، في صورة واضحة لم يسبق لها مثيل في التعدي على كل القوانين والأعراف الدولية، في السلم، ولم يلتزم فيها اليهود بقوانين الحرب، على مرأى مؤسسات الأمم المتحدة التي تُقذف هي الأخرى بالراجمات الأمريكية والمُسيَرات الإسرائيلية! تكشف أن مصطلحات حقوق الإنسان والمجتمع الدولي والسلم الدولي، وحماية المدنيين، والمرضى والمسنين... إلخ، لا معنى لها وأنه من الزيف والنفاق تدريسها كتخصصات أو كمقاييس في الجامعات والكليات!

أخذت فلسطين من سيّد قطب اهتماماً بالغاً في خطبه وأقلامه ووقته -وإن كان لم يجاهد ببدنه- فقد كتب سيّد قطب مقالات كثيرة في الخمسينات من القرن الماضي، جُمعت -فيما بعد- في كتاب بعنوان «معركتنا مع اليهود» ومما جاء فيها: «أما الفدائيون الحقيقيون، الذين لا يعلنون عن أنفسهم ولا عن أسمائهم، ولا عن أماكن تجمعهم وتدربهم... يعملون بلا أمجاد ولا ألقاب ولا أوسمة...»[1]. تقرأ هذه الكلمات وتتمثلها في اللاحقين، المتأثرين بفكره، أحمد ياسين والرنتيسي وهنية والسنوار ومحمد الضيف... إلخ أسماء كثيرة في قائمة الشرف في تاريخ الأمة المقاومة المجاهدة.

نقرأ لسيّد في معركته مع اليهود تلك النصائح للمقاومين: «أما أنتم أيها الفدائيون فامضوا في طريقكم.. تقاتلون في سبيل الله فتَقتلون و تُقتلون.. امضوا في واجبكم المقدس.. امضوا في طريقكم تطلبون الموت فتوهب لكم الحياة..»[2].

كتب سيّد: إن علامات النصر تلوح من وراء الشدائد (وختم) فعلى بركة النية، فليسِر الجميع في طريق المجد[3].

صدق سيّد قطب -رحمه الله- حين كتب مقاله «معركتنا مع اليهود» الذي اتُخذ عنواناً لكتابه «ما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائس اليهود ومكرهم».

---

١ سيّد قطب، معركتنا مع اليهود، عناية: عبد الله عبد المجيد الأثري، دار الغرباء، ٢٠٢٤، إسطنبول، تركيا: ص١٩/٢٠ بتصرف.

٢ سيّد قطب، المرجع السابق.

٣ سيّد قطب، سباق إلى التضحية والفداء، مجلة الدعوة، بتاريخ ١٩٥٤/١١/٣١، ص٣٤.

وقال: «إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة، وبلغة العقيدة يخاطبنا، وبنصوص القرآن يذكرنا وليست العقيدة التي ادعاها أقوام يوالون اليهود ويعادون أهل الرباط والجهاد»!

وحذّر سيّد -وكأنه يعيش معركة طوفان الأقصى وإفرازاتها- وعانت أمتنا التلبيس من اليهود ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وذكّر سيّد: أن العشرات من الشخصيات المدسوسين على الأمة المسلمة في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهاينة! وأنا أتساءل: كم عدد هؤلاء اليوم من الملوك والرؤساء والمسؤولين النافذين؟

وقد وقف سيّد طويلاً مع الشخصية اليهودية في القرآن الكريم وبيّن أن حقدهم يمتد من جبريل إلى رسول الله ﷺ ومنه إلى القرآن، وذكّر أنهم لم يفوا بوعدهم مع رسول الله ﷺ، وأنهم يؤلبون الكل في حربهم على الجماعة المسلمة[٤]. حرب غزة خير مثال على ذلك!

إن مما استجلب سخط (المَداخِلة) على سيّد قطب -رحمه الله- تأصيله ودعوته للجهاد، وهم مثل الطائفة القاديانية، لا يرون الجهاد إلا الذي تدعو إليه أمريكا ضد خصومها، وعلى رأسهم روسيا، وباقي الجهاد يقدحون فيه بأكاذيب وشبهات كثيرة منها غياب الراية، ويطلبون خلوه من الأخطاء والمخالفات الشرعية..

---

٤ سيد قطب، حقيقة الكتلة الإسلامية، مجلة الدعوة ١٩٥٢/٠٤/٢٢.

وقرر في مقالة من كتابه (معركتنا مع اليهود) بعنوان إلى المتثاقلين عن الجهاد: الجهاد فريضة على المسلمين، ولو كان عدد أعدائهم أضعاف عددهم ولا يشترط فيه تكافؤ القوى، وذكر إثم التخلف والتثاقل عن الجهاد وأنه نفاق، وفي الحديث: «من مات ولم يغزُ، ولم يحدّث نفسه به مات على شعبة من نفاق»[٥].

«الإسلام نظام حكم ونظام اجتماع، ونظام عالم... الكتيبة الإسلامية لا تحقق إلا أن تصبغ كل عمل لها وكل هدف صِبغة السنة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]».

إن معارك سيّد قطب -رحمه الله- سطرها قلمه، في معالم واضحة محددة الوسائل، معركة مقدسة، قداسة العقيدة الإسلامية، من معين الوحيين الصافيين، تستهدف إيقاظ النائمين الغافلين ناصرة للموحدين المقاومين.

شكلت حياة الشهيد سيّد قطب بثرائها الممتد عبر ستين عاماً إلا شهراً وأياماً، مدرسة راقية للمتعلمين والفاهمين مقاصد الإسلام وغاياته!

عاش سيّد قطب بداية شبابه كاتباً إعلامياً، يروي القرّاء من معين البلاغة الزلال الصافي، وكَتب كتباً لأهميتها علّق عليها المخالفون والموالون، كان واضحاً فيما كَتب إذ عين عدوه وحدد ساحات معاركه في كتابيه: «معركتنا مع اليهود» «معركة الإسلام والرأسمالية»، بل صرح سيّد -رحمه الله- فيهما أن أمريكا تريد إسلاماً أمريكياً!

٥ صحيح الإمام مسلم ١٩١٠.

إسلام أمريكاني

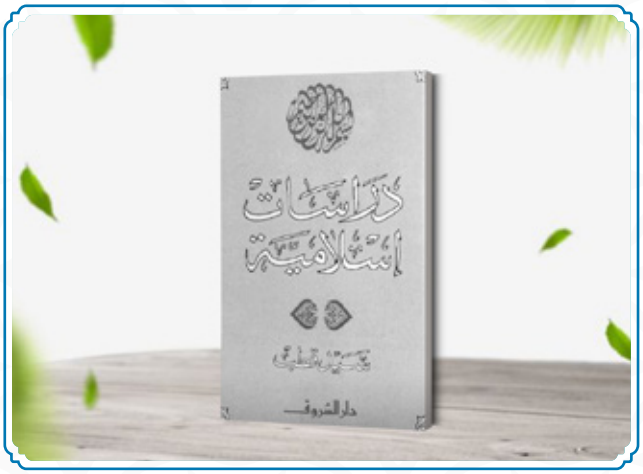

كتب الشهيد سيّد قطب في كتابه العظيم دراسات إسلامية مقالاً بعنوان: «إسلام أمريكاني» جاء فيه: «والإسلام الذي يريده الأمريكان وحلفاؤهم في المنطقة الإسلامية، ليس هو الإسلام الذي يقاوم الاستعمار، وليس هو الإسلام الذي يقاوم الطغيان، ولكنه فقط الإسلام الذي يقاوم التوعية».

من هنا تفهم لماذا أيد زعماء المدخلية الجهاد في أفغانستان ومنعوه وحرّموه في المنطقة نفسها «أفغانستان»! وواضح التدخل الأمريكي في الفتوى: الجهاد ضد روسيا مشروع، والجهاد ضد أمريكا ممنوع! بل هو خروج عن الحكام، وليس فيه راية و... و... و...

إنهم يريدون إسلاماً أمريكانياً، إنهم يريدون الإسلام الذي يُستفتى في نواقض الوضوء، ولكنه لا يُستفتى في أوضاع المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمالية، إنها لمهزلة بل إنها لمأساة!

أمرت أمريكا إحدى الدول التي يُفترض أنها إسلامية «وهي في حلف الرأسمالية»، أن تجند «هذه الدولة المسلمة» مخابراتها الدينية لتكثيف هجمتها على سيّد قطب، مستخدمة سلاح السنة والمنهج وفهم السلف في حربها الكبيرة ضد سيد قطب وفكره! وهو ما نفذته تلك الدولة، من خلال مشايخ لا عدو لهم إلا سيد قطب! وهذا ما يفسر سبب عداوة المداخلة وأشياخهم لسيّد -رحمه الله-، لأنه فضح -مُستشرفاً- جنديتهم مع الاحتلال الأمريكي، وأنهم أدوات تُستخدم أمريكيا في تدمير الأمة وتخديرها، ومن هنا أطلقوا العنان لألسنتهم والحبر لأقلامهم أن يستهدفوه بكل نقيصة حتى وصلوا إلى تكفيره!

خصوم سيّد جبهة متعاونة بين أمريكا واليهود والمداخلة

زعيمهم، وناطقهم الرسمي «ربيع بن هادي المدخلي» الذي اتهم بشدة ووضوح سيّد قطب بالتكفير تارة، والبدعية أخرى، والقول بخلق القرآن ثالثة، وسب الصحابة... إلخ.

وقد جمعت مآخذهم على تفسيره في ظلال القرآن، والتهم التي ألقوها عليه، ورجعت لتفسيره في مكتبتي مآخذهم على تفسيره في ظلال القرآن، جمعت هذه التهم، وقد رجعت لتفسيره في مكتبتي، وهو من طبع دار الشروق، وهي طبعة شرعية بعناية شقيقه محمد قطب رحمهما الله، ووجدت ملاحظاتي عليه بقلم الرصاص، متحققاً من جنايتهم عليه، علماً أننا لا نجعله معصوماً، ومجتهداً أصولياً فقيهاً وهو لم يدَّع ذلك ولا أشار إليه، خاصة وأن سيد قطب رحمه الله لم يعد يعتمد تلك الكتب بشهادة المستشار العقيل سنة ١٩٧٢، أي قبل ما أثير حول كتب الشيخ سيد، وفي الوقت الذي كان الإقبال على كتبه على أشده وبشهادة شقيقه محمد رحمهما الله.

وسائر المآخذ التي أخذوها عليه يمكن أن تجمع في صفحة واحدة، في خضم تفسيره العظيم، من ستة مجلدات، وبعضها مآخذ من العلماء وهي معتبرة، وبعضها الآخر مآخذ من المداخلة الذين لم يلتزموا الموضوعية والأمانة العلمية، وتعليقا على مآخذهم نقول إجمالا:

إن بعض المآخذ وجيهة وحقيقة بالتراجع والتصحيح، وأخرى ظنيات تحتاج من سيد رحمه الله من ضبط المصطلحات الشرعية الدقيقة، ومآخذ أخرى باطلة، اتهم بها باطلاً وتأويلاً من أصحابها وتحقيقاً لحظوظ النفس، قوّلوه فيها ما لم يقُل، والله المستعان!

تسوية سيد الرأسمالية والاشتراكية في عداوتهم للإسلام

صرح سيّد أن الغرب الرأسمالي والاشتراكي سواء، يناصبنا العداء كله كتلة واحدة. وفي فلسطين شاهد من هذا العداء.

وكتب سيّد ضد الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية في (معركة الرأسمالية)[٦] وكتب في مقالة (الإسلام خلاص): «إذا اتضح أن الإسلام يملك أو يحل لنا مشكلاتنا الإسلامية ويمنحنا عدالة اجتماعية شاملة، ويريدنا عدلاً في الحكم وعدلاً في المال وعدلاً في الفرص وعدلاً في الجزاء»[٧].

وكتب: «والإسلام حجة لا تملك الرأسمالية المستغلة له دفعاً كما تجد للشيوعية..».

يشير سيّد إلى إشكالية قائمة في زمانه إلى زماننا: «إنني أفهم جيداً أن ينصب المستغلون والطغاة للإسلام لينحوه عن هذه المعركة، إما باستغلال المحترفين لإصدار الفتاوى المكذوبة على الدين، وإما باضطهاد الدعاة الحقيقيين لعدالة الإسلام».

---

٦ سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، دار الكوثر، برج الكيفان، الجزائر، دون تاريخ نشر، ص٣٠.

٧ المرجع السابق ص٣٦.

كتب سيّد في معركته مع الرأسمالية كلاماً يعده الطغاة تهديداً صريحاً لإمبراطوراتهم: «إذا أريد للإسلام أن يعمل، فلابد للإسلام أن يحكم..»[٨]. وهذه قطعت الطريق أمام الطغاة ومفتيهم وثاروا بسببها على سيّد «مسألة الحاكمية».

سيّد يفند الشبهات المثارة حول حكم الإسلام

ذكر سيّد ما يقلق عبّاد الملوك، أن الحاكم يخضع في اختياره لإرادة الأمة دون إكراه وأنه مُلزم بالشورى، فكيف لا يعاديه وينتقضه من يرى أن الحاكم غير مخاطب بالأوامر والنواهي الشرعية، وله أن يزني ويلوط يومياً نصف ساعة على مرأى الأمة في التلفاز؟!

كيف لا تعادي سيّد مدرسة وظيفتها التخدير والتغرير للجماهير بهدف التكسب وهو على نقيضهم؟ ويختم سيّد بقوله: أيتها الجماهير ها هو ذا الإسلام حاضر يلبي كل راغب في العزة والاستعلاء والقيادة..

بلوغ المأمول وتحقق المرغوب!

قضى سيّد أنفاسه وأوقاته فيما آمن به، وحمل نفسه على العزيمة، فصنف وألف وخطب وبيّن -بكل إيمان ودقة ووضوح- أفكاره وعقيدة الولاء والبراء، فتعرض للسجن والتعذيب والتقييد، ولكن

---

٨ المرجع السابق ص٣٦.

أعظم الأذى -للأسف- كان باسم الدين والمنهج والسنة والتوحيد والعقيدة، والمؤسف أنها أدوات ووسائل وأسلحة أمريكية الصنع إسلامية الاستخدام! شعارات خلاف الحقيقة، فالإسلام العظيم، ورسالته التوحيد، وسنة نبينا ﷺ، والدين براء من هذا الاستغلال الباطل، وصدق علي -رضي الله عنه- لما قال فيما ينسب إليه: كلمة حق أريد بها باطل!

خلافاً للذين حاربوا شرك القبور فقط، فإن سيّد رحمه الله حارب شرك القبور كما حارب شرك القصور، ولئن حاربوا الاشتراكية فقط، فقد حارب سيّد الرأسمالية والاشتراكية، وستبقى كتب سيّد وأفكاره تضيء درب الشباب، وستبقى أشعاره تتحدى الطغاة الظالمين في كل قطر ومصر.

أخي ستبيد جيوش الظلام ●● ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك إشراقها ●● ترى الفجر يرمقنا من بعيد

ولعل أكبر من تصدر محاربة سيّد قطب زعيم تيار المداخلة «تيار المعسكر الرأسمالي» الذي أغدقت عليه سلطات الممالك بالمال وجهزت له المطابع والنشر والإعلام والمجالس، فتداعوا فيها على قصعة سيّد قطب أكلاً ونهشًا في عرضه وعلمه وقدره، حتى جعلوه في مجالسهم وكتبهم، أبغض من اليهود والنصارى وعبّاد الشجر والبقر والحجر!!

والحقيقة أن سيّد قطب -لو أنصفوه- لعلموا أنه عملاق في فكره، قوي في عزيمته، لا يخضع ولا يركع إلاّ لله، ويكفيه شرفاً أنه -وإن مات- ما ماتت أفكاره وكتبه: «ستظل كلماتنا عرائس من الشمع لا روح فيها ولا حياة فيها، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة». «إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء انتفضت حية وعاشت بين الأحياء».

قبل موته صرح -خصمه- زعيم المداخلة أنه لا يحفظ القرآن، في حين نجد كل الذين ترجموا لسيّد قطب، يذكرون أنه حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره، ومعه عاش متدبراً ومفسراً، وغالب مؤلفات سيد تستقي من القرآن، ويكفيه تفسيره الذي لم يذهب فيه مذهب الفقهاء، بل استقراء روحه التي بها تحيا النفوس المؤمنة بربها وبكتابه.

إن سيّد مر فكريا بأربع مراحل:

١ مرحلة المثقف ١٩٢٥-١٩٣٩

٢ مرحل الأديب ١٩٣٩ -١٩٤٧

٣ مرحلة المفكر الإسلامي ١٩٤٧ -١٩٥٣

٤ مرحلة المنظر الإسلامي ١٩٥٣ -١٩٦٦

لابد من قراءة كتب سيد، اعتباراً لهذه المراحل، وأن ما كتبه ربيع بن هادي المدخلي عن سيّد قطب، تأليباً وتشويها وتحريضاً، جريرة وجريمة وظلم من حي لميت، ولكن اليوم تساوى الميت مع الميت. وقد نصح كبار العلماء ربيع المدخلي بالعدول والرجوع عن ظلمه لسيّد قطب إلاّ أنه استمر وأصّل لهذا الظلم لجيل كامل من السفهاء ومتسربي المدارس للنيل من قامة سيد العالية، وقد نصح لربيع أعلام المدرسة السلفية وبينوا له ظلمه وتأويله المردود وافترائه عليه، وكأنه يريد أن يشق عن صدر سيّد ليُحصِّل ما يريد لإدانته. دافع عن سيّد قطب العلامة بكر أبو زيد وابن باز والعثيمين والمنصفون الذين لا حصر لعددهم..وبمجرد صدور الحكم عليه بالإعدام، انتفض ابن باز وأرسل برقية إنكار شديدة، كما ذكره أستاذ الجامعة الإسلامية المدنية محمد المجدوب.

رحم الله سيّد قطب الذي عاش لله ومات من أجل «لا إله إلا الله»، نحسبه، فرفع الله مقامه، وطيب ذكره.

أ.د. خير الدين خوجة

سفير الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ في البلقان

سيد قطب
في ظلال القرآن ١

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، [المجادلة: ١١]، والقائل عز شأنه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ..﴾ [آل عمران: ٣٧]، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سار على هديه والتزم منهجه إلى يوم الدين، وبعد:

فيذكرنا التاريخ ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م من كل عام بذكرى استشهاد أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، أحد أعلام التجديد في تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً منهجياً دقيقاً، تفسيراً حيوياً دعوياً حركياً سياسياً مقاصدياً أدبياً لغوياً بيانياً علمياً أصولياً عقدياً سلفياً بكل ما تحمل هذه الكلمات من معانٍ ودلالات، يعلم ويدرك ذلك جيداً من رافق وعاش مع هذا التفسير المؤثر في النفس والعقل والوجدان بمجرد شروعه في قراءة السطور الأولى منه.

إن الأستاذ سيد قطب حقاً ودون أدنى مبالغة سيدٌ من سادات العلم والمعرفة والفكر والقرآن في العصر الحديث، كما هو قطب من أقطاب التفسير الحركي والعملي بلا نزاع. وقطب للصحوة الإسلامية ببركة جهوده وإخلاصه في كتاباته، فقد كتب الله له القبول في العالم وتُرجم تفسيره ومؤلفاته إلى أغلب لغات العالم.

إن استكشاف منهج وسر تفسير وكتابات الأستاذ سيد قطب له أهمية كبرى على الدعاة والخطباء والعلماء وطلبة العلم الشرعي في العالم العربي والإسلامي، وانطلاقاً من هذه الحقيقة وحباً في تعميم الخير على القراء العرب وغير العرب في البلاد العربية والإسلامية وبخاصة في شبه الجزيرة البلقانية، وإحياء لفكره وجهوده فقد عزمت على تخصيص هذه المقالات التحليلية عنه وعن جهوده ومنهجه تقرباً إلى الله تبارك وتعالى.

هذا المقالات المخصصة عن حياة وفكر ومنهج عَلَم من الأعلام الإسلامية والتفسيرية في العصر الحديث ما هو إلا إسهام علمي متواضع للدفاع عن حق وجهود هذا الأستاذ الإمام، والمفسر الداعية سيد قطب رحمه الله تعالى.

وفي المقابل -وللأسف الشديد- هناك بعض الأقلام المستأجرة وبعض النفوس المريضة والمحسوبة على الإسلام، نصبوا أنفسهم لنشر الأكاذيب والمطاعن والشبهات في حق هذا المفسر والإمام الجليل. كما أن المنصات والفضائيات المستأجرة والمتحالفة مع الكيان الصهيوني اليهودي في حرب الإسلام والعلماء المسلمين لتشويه صورة تلك الشخصيات العلمية المخلصة التي رفعها الله عز وجل للأولين والآخرين، من أمثال الأستاذ الإمام سيد قطب والإمام حسن البنا وغيرهم كثيرون، تقبل الله عز وجل جهود هؤلاء الشهداء الكرام بقبول حسن، فقد كانوا ولا يزالون سُرُجاً وضّاءة لنا في زمان عز وجود مثل هؤلاء، ولا نزكي على الله أحداً، والله حسيبهم، ولكننا نحسبهم أنهم صدقوا مع الله؛ فصدق الله معهم وكتب لهم القبول الحسن.

هذه المقالات المخصصة تأتي دفاعاً عن هذا المفسر المظلوم الذي ظُلم مرتين: مرة من بني جنسه من بعض المسلمين من العرب وطلبة العلم الشرعي والأئمة والخطباء المرجفين في المدن والدول العربية والإسلامية المختلفة، وظيفتهم صرف الناس عن اتباع توجيهات هذا الإمام الشهيد في كيفية التعامل مع كتاب الله عز وجل فهماً وتدبراً وتفسيراً وتحكيماً في حياتنا العامة والخاصة، في الجانب الأخلاقي والسياسي والاقتصادي.

وأما ظلمه ثانياً فهو من قِبل أعداء المسلمين الطاعنين والمشككين في الإسلام والمقدسات الإسلامية من خلال ربط وإلصاق كل الأحداث الإرهابية والإجرامية في كل بلاد العالم بفكر الأستاذ الشهيد وفكر الإخوان المسلمين، وكأن العالم العربي وغير العربي خال من المجرمين الآخرين، وكأنهم أصيبوا بعمى البصر والبصيرة ولا يرون جرائم ومذابح ومجازر الاحتلال الإسرائيلي الأمريكي الأوربي الصهيوني اليهودي المعاصر على إخواننا وأخواتنا في غزة العزة منذ ٢٢ شهراً ما يزيد عن ٦٤٥ يوماً من ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ إلى يومنا هذا الموافق ١٧ يوليو ٢٠٢٥، سبحانك هذا بهتان عظيم.

تأتي هذه المقالات لكي تدل على الصراط المستقيم المبني على الكتاب والسنة من خلال كشف النقاب عن حياة وحقيقة فكر ومنهج الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وذلك من خلال العيش في ظلال تفسيره للسور القرآنية ولسورة الأنعام على وجه خاص، إضافة إلى مؤلفاته الأخرى.

لقد لوحظ مؤخراً أن هناك انحرافاً عن منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الله عز وجل وبالتالي كان لزاماً علينا القيام ببيان خطوات منهج القرآن في الدعوة إلى الله.

ومن الذين نحسبهم أنهم فهموا الدعوة وفق منهج قرآني سليم هو الأستاذ سيد قطب رحمه الله. لقد تبين لي من خلال عيشي مع الظلال وصاحبه أن الأستاذ سيد قطب رسم خريطة واضحة المعالم للوصول إلى الله، حيث اعتمد على بيان أساليب الدعوة المختلفة الواردة في القرآن الكريم، ثم دعوة

المسلمين إلى إصلاح العقيدة على حقيقة الألوهية والعبودية، ثم دعوتهم إلى إصلاح حياتهم وفق منهج قرآني فريد، ثم بيان منهج القرآن في القضاء على التصورات والعادات الجاهلية ثم تصحيح مناهجهم الفكرية والنظرية ودعوتهم إلى منهج معرفي وتربوي.

هذا المنهج علاوة على ما ذُكر يتطلب أيضاً دعوة الكافرين إلى الإسلام بطرق مختلفة، منها طريق النظر والتأمل في آيات الكون والمجادلة بالتي هي أحسن، مع مراعاة أحوالهم وفقه واقعهم وانتمائهم الديني والثقافي والاجتماعي. هذا المنهج يفرض على الداعية أن يراعي سلم الأولويات وفقه المقاصد الدينية العليا في الإسلام، أن يشرع أولاً بالدعوة إلى الله تعالى دون الدعوة إلى المبادئ القومية أو الأسس الأخلاقية والاجتماعية أو غيرها. وكشف هذا المنهج جملة من الصفات والمؤهلات الفكرية والروحية والسلوكية والثقافية، التي يجب أن يتحلى بها الداعية قبل أن يشرع في الدعوة.

(٢٥) سُورَةُ الفُرقَانِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦

عزيزي الداعية.. طالب العلم الشرعي.. المربي الكريم.. حفظك الله.. تذكر هذا الكلام: «لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة وينشئ مجتمعاً ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثير والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل لمنهج جديد، إنما تتأثر بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً

وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً، فلا تجفل[١] كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح بالتالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية وأشد قابلية لها والتذاذاً بها..»[٢].

الأستاذ سيد قطب رحمه الله

العمل الدعوي بفكر ومنهج سيد قطب

مما لا شك فيه أن سلوك طريق الدعوة إلى الله تعالى من أشرف المسالك على الإطلاق بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، ويكون ذلك واجباً وفرض عين عند قلة الدعاة وكثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كحالنا اليوم، وكل حسب طاقته[٣].

هذا الدرب المبارك هو درب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

---

١ أَجْفَلَ البَعِيرُ وَرَفَضَ أن يَقْطَعَ النَّهْرَ : نَفَرَ http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

٢ قطب، سيد، في ظلال القرآن: ج٥-٢٥٦٢.

٣ انظر: من أقوال سماحة الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز في الدعوة، دار الوطن، ط١-١٤١٣هـ، ص١٦.

إن هذا الدرب الدعوي ليس مفروشاً بالزهور والرياحين وليس طريقاً سهلاً ومستوياً يسهل على الجميع السير فيه. هذا الطريق شاء الباري جل وعلا أن يكون ذا أشواك وعقبات بحيث يصعب السير فيه، يحتاج المار إلى بذل المجهود والصبر الطويل، واللجوء والتضرع المستمر إلى الله تعالى في كل وقت وحين، في السراء والضراء، في السر والعلن حتى يتمكن من تحقيق الهدف وتبليغ الدعوة إلى الناس. وفي هذا الشأن يقول الله تعالى مخاطباً رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، والخطاب عام للمؤمنين.

إن هذا الطريق يتطلب من الداعية الحكمة والمنطق السليم وحسن الخطاب والجدال بالتي هي أحسن مع المدعوين حتى يكون ناجحاً وموفقاً في دعوته. ولأهمية هذا الأمر يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

كما أن على الداعية إلى الله التحلي بأخلاق النبوة والقرآن في أقواله وأفعاله. ولإدراك هذه الأهمية يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف :٢-٣]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ويقول أيضاً: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

إن أسلوب القسوة والخشونة في القول والفعل ليس من شيم الدعاة الناجحين والموفقين. يؤكد هذه الحقيقة البيان الإلهي: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فلا مناص ولا انفكاك من اتباع منهج الرسول ﷺ في كافة شؤوننا الدينية والدنيوية، لأن الله عز وجل جعله أسوة لنا في كل شيء، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

هذا، ولما كان هناك انحراف عن منهج القرآن في الدعوة إلى الله وتسبب في تنفير الناس من الإسلام، وابتعاد عن توجيهاته الدعوية لكثير من الدعاة في الوقت الراهن، لم يكن هنالك من مخرج إلا برسم طريق واضح لخطوات المنهج القرآني في الدعوة، وذلك بوضع قواعد وأسس ينبغي على الدعاة اتباعها والسير في ضوئها. ويرجع سبب هذا الانحراف إلى عدة أسباب وعوامل منها:

١ تفاوت أفهام الناس للدعوة وأبعادها التربوية والاجتماعية والدينية.

٢ الابتعاد عن المنهجية القرآنية في معالجة الظواهر العقدية السلبية.

٣ عدم مراعاة أحوال المخاطبين فكرياً وسلوكياً وعقدياً.

٤ التطاول على الناس وإصدار الأحكام عليهم وكأن الدعاة قضاة.

٥ قلة العلم الشرعي والتأثر بالبيئة والمؤسسات التي درسوا فيها.

هذا، ومن الدعاة الذين برزوا في الساحة الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين، وأحسبه أنه أدرك وفهم ومن ثَم فسر حقيقة منهج القرآن في الدعوة إلى الله على وجهه الصحيح، هو سعادة الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى وأدخله في مستقر رحمته!

لقد انفرد هذا الأستاذ الكبير عن بقية الدعاة والمفسرين البارزين في الساحة الإسلامية بمنهجه الفريد والدقيق ذي الأبعاد التربوية والدينية والاجتماعية. يبدو ذلك واضحاً في مؤلفاته كلها وخاصة في تفسيره: «في ظلال القرآن». وشاء الباري تعالى أن يكون جزاء هذا الفهم الفريد والأصيل، المبني على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح هو الاستشهاد في سبيله ليكون قدوة حسنة للمسلمين عامة وللدعاة إلى الله خاصة في التمسك بالحق والدفاع عن سبيله إلى يوم القيامة.

وللحديث بقية في العدد القادم، إن شاء الله تعالى.

فرج كُندي

سفير الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ في ليبيا

أديان باطلة ١

عقائد الهند نموذجاً

وُلد الإنسان مفطوراً على التدين؛ فطهارة التدين هي فطرة جُبل عليها الإنسان، قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يُولَد على الفطرة». أي أن الإنسان يولد مزوداً بغريزة التدين، وهذا التدين قد يكون باتباع دين الله عز وجل، باتباع الأنبياء المرسلين من الله، أو قد ينحرف عن الجادة: «فأبَواه يُهودانِه أو يُنصرانِه أو يُمجسانِه».

ومن هنا جاءت فكرة دراسة الأديان غير المنزلة من عند الله تعالى، الذي جعل الدين هو الإسلام الذي جاء به الأنبياء من لدن نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ.

ولما كان لهذه الأديان الوضعية التي ما أنزل الله بها من سلطان من أثر في حياة كثير من الأمم وحياة الشعوب، خاصة أديان الهند الكبرى، ومن علاقة بالدين الإسلامي وأثر على المسلمين في الوقت الحاضر.. وجب أن تخضع هذه الأديان للدراسة والبحث لمعرفة خطرها وتأثيرها على الإسلام والمسلمين، خاصة في شبه القارة الهندية وما جاورها من دول إسلامية.

إن فكرة الدين لا تقوم على مذهب التطور الداروينى في نشأة الإنسان، ولا تقوم على مجرد العقل المحض؛ بل إن الدين أمر الله تعالى لأول خلقه من البشر آدم عليه السلام، حين خلقه وأمَر الملائكة بالسجود له وعلّمه الأسماء كلها.

علم آدم أنه مخلوق ومأمور بعبادة الله الذي أوجده، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال النبي ﷺ كما سبق: «كل مولود يولد على الفطرة..»، أي أنه مفطور ومجبول على التدين لله تعالى، وهذا يثبت أن الدين ليس كسبياً بقدر ما هو فطري من الله تعالى.

يخلق الإنسان وداخل وجدانه نزوع للتدين وعبادة الله تعالى، وقد يخطئ الطريق بسبب عامل خارجي مؤثر إلا أن الدين داخله، ولا ينكر الدين إلا شاذ في فكره ووجدانه معاً. «إن الدين وضع إلهي، وليس من إيحاء النفس أو تخيل العقل أو تنظيم الإنسان، فمرجع الدين إلى الله سبحانه وتعالى، هو أنزله وأوحى به، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»[١].

تاريخ الأديان في الهند

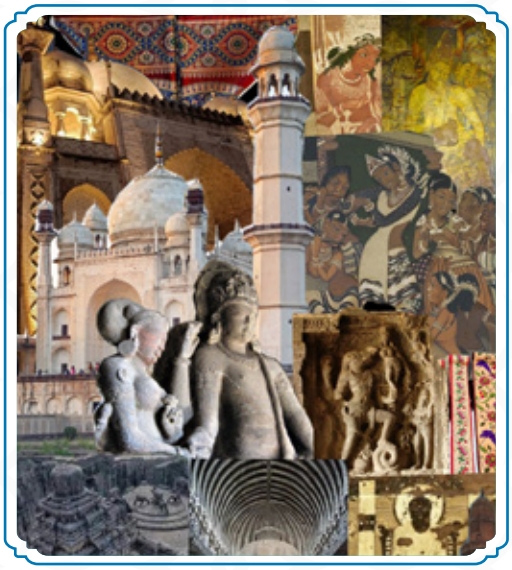

تُعد الحضارة التي قامت في بلاد الهند من أهم الحضارات في العالم القديم، مع حضارة مصر الفرعونية وحضارة بلاد الرافدين وحضارة الصين؛ لما تتميز به بلاد الهند من بُعد جغرافي وسكاني جعلها تتميز عن غيرها من الحضارات بتنوع أديانها وأعراقها، «إن بلاد الهند تُعد قارة مستقلة في حد ذاتها لكبر مساحتها، ولكثرة سكانها، وأنواع معادنها الطبيعية، فإذا قيل: بلاد الهند يتبادر إلى الذهن الهند التي تحيط بها سلسلة من جبال هملايا من الشمال ممتدة إلى بلاد كشمير وإلى بوتان، وفي الجنوب كانيا كماري، وفي الغرب بلاد السند وفي الشرق بورما، فالبلد الذي يقع في هذه الأراضي الواسعة تسمى الهند»[٢].

١ مقارنة الأديان.. دراسة في عقائد ومصادر الأديان السماوية والأديان الوضعية، طارق خليل السعدي، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص١٠.

٢ فصول في أديان الهند، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار البخاري للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ١٩٩٧، ص٥.

لقد عُرفت الهند بما سمي حضارة الأنهار والوديان، وترجع أقدم حضارة فيها إلى ٢٥٠٠ سنة ق.م؛ حيث سكنها الدرافيديون، ثم جاءها الآريون ما بين ٢٥٠٠-٢٠٠٠ ق. م حيث سكنوا على ضفاف نهر الغانج وأسسوا حضارة الفيدا، التي تعني المعرفة، وهي (لكسب رضى الخالق)، ومن هنا كانت عوامل تقوية الغريزة الدينية «ومن أهمها اختلاف قوى الطبيعة ومواجهة الإنسان لهذه القوى وإحساسه بالضعف تجاهها، فدفعت الهندي أن يصبح متديناً بطبيعته يشغف بالروحانيات، ويسعى دائباً إلى معرفة الخالق، ويتخذ الزهد وسيلة ليتخلص من دنيا المادة وينظم دنيا الروح»[٣].

وقد تعددت الأديان في الهند وتنوعت، منها إله النار «آغني Agni» الذي يعتقدون أنه يمثّل الشمس في السماء والنار المقدسة في الأرض، وظهرت ديانة البراهمة المكونة من الثالوث: «ابرهاما» الخالق و«شيفا» المهلك و«شنوا» الحافظ، وكذلك الهندوس الثانوية الذين يتبعون شيفا أو فيشنو. وقد اشتهرت الهند بكثرة الأديان هذه والتي تضارع لغات الهند أو تقترب منها. وكانت الديانة الهندوسية أشهر هذه الأديان وأكثرها انتشاراً.

وقد اشترك عدد كبير من المفكرين والفلاسفة في وضع دياناتها؛ فهي ديانات وضعية ليس بينها وبين السماء اتصال أو علاقة. لذلك جاءت متشاكلة ومختلفة ومتناقضة فيما بينها «من الصعوبة

---

٣ مقارنة الأديان.. دراسة في عقائد ومصادر الأديان السماوية والأديان الوضعية، مصدر سابق، ص٢٢٥.

في بحث أديان الهند أننا نجد أحياناً الدين بلا عقيدة واضحة، وقد يكون خالياً من فكرة الآلهة فيبقى ديناً بلا الله وعُرفاً وممارسة لبعض العبادات»[٤].

أهم الأديان في الهند

الديانة الهندوسية

الهندوسية: دين وثني يعتنقه غالب الشعب الهندي، وهو عبارة عن معتقدات وعادات وأخلاق وسلوكيات يلتزم بها الهندوس في حياتهم، «إن الهندوسية هي دين غالبية الهنود وقد قامت على أنقاض الفيدية، وتشربت أفكارها وتسلمت عن طريقها الملاح الهندية القديمة والأساطير الروحانية المختلفة التي نمت إلى شبه الجزيرة الهندية قبل دخول الآريين، ومن أجل هذا عدها الباحثون امتداداً للفيدية وتطوراً لها»[٥].

وكثير من علماء الهندوس يرون أنها خالية من العقيدة، يقول الزعيم الهندي غاندي: «ومن حظ الديانة الهندوسية أنها ليست لها عقيدة رئيسة، فإذا سألت عنها فأقول: إن عقيدتها هي عدم

---

٤ نفس المصدر، ص ٢٢٧

٥ مقارنة الأديان دراسة في عقائد ومصادر الأديان السماوية والأديان الوضعية، طارق خليل السعدي، ص٨٢١، مصدر سابق، عن Hinduism.p 6

التعصب والبحث عن الحق بطرق حسنة، وأما الاعتقاد بوجود الخالق وعدمه فكلاهما سواء، ولا يلزم لأي رجل من الرجال الهندوس أن يؤمن بخالق، فهو هندوسي سواء آمن أم لم يؤمن»[٦].

ليس هناك من مصدر معتمد يمكن من خلاله تحديد الزمن الفعلي لنشأة الهندوسية، كونها لم تنشأ من خلال دعوة شخص أو أشخاص، وإنما هي عبارة عن معتقدات وعادات قوم تراكمت ودُونت وحُفظت، فاتخذها مَن بعدهم من أجيالهم ديناً يتبعونه، ويُرجع الباحثون نشوء الهندوسية للاحتكاك الثقافي بين الأعراق المختلفة التي وفدت إلى الهند واستقرت فيها؛ فهي تعبّر عن أسلوب حياة أكثر منها تعبر عن عقائد أو معتقدات، ولم تتميز بصياغة محكمة محددة المعالم؛ بل هي مزيج متشابك من العقائد، التي تتنوع من عبادة الأحجار والأصنام والأشجار، إلى أن تصل إلى التجريدات الفلسفية المحضة. وينقسم الهندوس إلى عدة فرق أهمها فرقة فشنو وفرقة سيفا.

معتقدات الهندوس

تتعدد وتتنوع الآلهة التي يدين لها الهندوس ويؤلهونها، وقد وصف «ول ديورانت» في (قصة الحضارة) آلهة الهندوس فقال: «تزدحم بها -أي الآلهة- مقبرة العظماء في الهند، ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى

٦ فصول في أديان الهند، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار البخاري للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ١٩٩٧، ص ١٥-١٦

ذلك مائة مجلد، وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة، وبعضها هو ما قد نسميه نحن بالشياطين، وطائفة منهم أجرام سماوية مثل الشمس، وطائفة منهم تمائم... وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السَّماء».

وهذه الوفرة والكثرة في الآلهة يختزلها الهندوس في آلهة ثلاثة، أو واحد ذو ثلاثة أقانيم:

- **الإله براهما:** ويُطلق عليه اسم (سانج هيانج)، واسمه بالسنسكريتية -لغة الهندوس-: (Utpatti)، وهو الخالق، حسب معتقدهم.

- **الإله فيشنو:** ويسمونه الحافظ ومهمته الحفاظ على العالم ويسمونه بلغتهم (Sthiti). وكثيراً ما يصوّرونه على هيئة إنسان يجسّد الخير والعون للبشر، ويساعده في مهمته آلهة آخرون: راما ـ وكرشنا، ويحتل فيشنو موقعاً متميزاً في الشعائر الهندوسية.

- **الإله شيفا:** وهو إله الهلاك والفناء والدمار، وهو المهلك للعالم ومهمته نقيض مهمة فيشنو، يقول ديورانت عن شيفا: إله القسوة والتدمير قبل كلّ شيء آخر، هو تجسيد لتلك القوّة الكونية التي تعمل، واحدة بعد أخرى، على تخريب جميع الصور التي تتبدى فيها حقيقة الكون، جميع الخلايا الحيّة وجميع الكائنات العضوية، وكلّ الأنواع، وكلّ الأفكار وكلّ ما أبدعته يد الإنسان، وكلّ الكواكب، وكلّ شيء.

عقيدة الهندوس في الله

يذكر البيروني أن اعتقاد الهندوس في الله تعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله القادر الحكيم الحي المحيي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته، المنزه عن الأضداد والأنداد، ولا يشبهه شيء.

الكارما

وهو قانون الجزاء، ويقرر أن الشهوة أقوى عامل في حياة الإنسان، وهذه الشهوة تؤثر على الآخرين. وليس لأحد أن يتخلص منه ولا يمكن لأحد أن يفر من جزاء أعماله، سواء كانت حسنة أو سيئة، ولا بد أن يجازَى عليها بالثواب أو العقاب، طبقاً لناموس العدل الذي هو كوني قضى بالجزاء على كل عمل.

تناسخ الأرواح

ولهذا المصطلح عدة تعابير منها تجوال الأرواح، ومنها تكرار المولد، وهو يعني رجوع الأرواح بعد خروجها من الجسد إلى جسد جسم آخر، وهذا المفهوم تسرب إلى بعض منتسبي بعض الفرق الإسلامية بعد انتشار الإسلام في بلاد فارس وما وراء النهر.

عقيدة إنكار النبوة

يرى الهندوس أن الدين يأتيهم من الله تعالى بلا واسطة، وبذا ذهبوا إلى إنكار النبوات وعدم تصديق أي نبي أو رسول يأتي بدين ما. زاعمين أن العقل لا يسلم ولا يقر بإرسال الرسل واستحالته ذلك، معتمدين على دلالات عقلية واهية هي دليل على بطلان ما ذهبوا إليه أكثر من كونها دليلاً على صحة مذهبهم الواهي الباطل.

الطبقات عند الهندوس

يُعد الهندوس مجتمعاً شديد الطبقية، بالغ التعصب؛ فبينما يتمتع أناس فيه بمقام الآلهة، يخوض آخرون أوحال الذل والمهانة، وهذا التقسيم ليس نتيجة سلطة ظالمة توشك أن تزول، بل هو بمقتضى دينهم قدر إلهي وأمر رباني، فالإله عندهم قد خلق الخلق على هذا النحو الذي هم فيه، فجاء في كتابهم (منوسمرتي) -وهو سِفر من أسفارهم المقدسة-: لسعادة العالم خلق برهما. لهذا يجب أن تكون وظائفهم في الحياة وفق دلالة موضع خلقهم، فرأس الإله مركز الفكر والحكم خُلق منه البراهمة فهم العلماء والحكماء ويتمتعون بمزايا عظيمة، وقد نص شرع الهندوس (منوسمرتي) بشأن وظيفة هذه الطبقة على ما يلي: «وفرض الإله الأعظم على الشودار أمراً واحداً وهو أن يقوم بإخلاص تام بخدمة هذه الفرق الثلاثة».

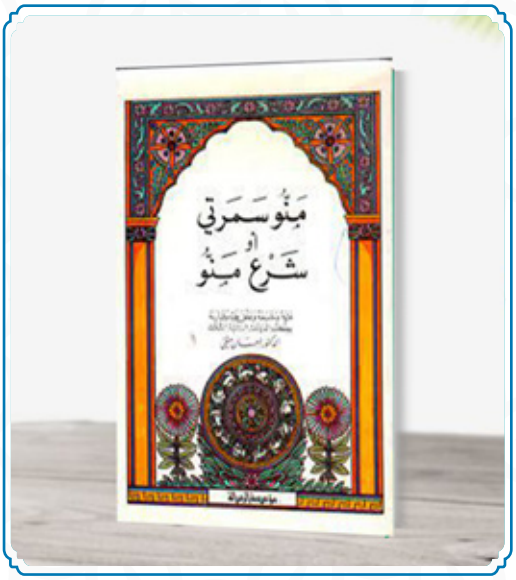

ويقصد بها طبقات: البراهمة، والكشاتريا، والويشا.

ولا يدخل المنبوذون في هذا التقسيم فهم درجة دنيا مدنسة لا تدخل أساساً في التركيبة الهندوسية.

شعائر وعبادات الهندوس

١ **الطهارة عند الهندوس نوعان:** طهارة حسية بالماء: فيوجبون الغسل على من مس حائضاً أو منبوذاً أو أمنَى. وطهارة معنوية: وهي طهارة القلب والروح بالعلوم والمعارف والتأمل.

٢ **الصلاة:** وهي من أهم الشعائر عندهم، وتؤدَّى في وقتين في اليوم: في الصباح عند طلوع الفجر إلى الإشراق، وفي المساء إلى ظهور النجوم، وتُصلى فرادى، وتختلف صلاة المرأة عن صلاة الرجل، وتؤدّى في المعابد وفي البيوت والغابات وعلى ضفاف الأنهار.

٣ **اليوجا:** وهي من الشعائر التعبدية المهمة لدى الهندوس، وهي طريقة رياضية روحية وجسدية يتبعونها لتسهيل اتحادهم بالإله -وفق زعمهم- وللأسف الشديد فقد انتشرت هذه العبادة الهندوسية -اليوجا- بين شباب المسلمين تحت غطاء الرياضة، جهلاً بجذورها الفلسفية الكفرية، والله المستعان!

٤ **الحج عند الهندوس:** بالذهاب إلى نهر «الغانج» سنوياً، والاغتسال فيه للتطهر من آثامهم، وكذلك يلقون فيها رماد موتاهم.

٥ **إحراق الموتى:** فالأجساد لا قيمة لها وفق معتقداتهم، فهي مركب الروح، فإذا فارقتها الأرواح كانت أولى بالإحراق، وبعد حرقها تُتلى عليها التعاويذ الهندوسية ثم تُوضع في أنبوب لتُرمى بعد ذلك في نهر الغانج.

٦ **سرادة:** ومعناها الوليمة، وتُطلق -كما يذكر البستاني في معارفه- على احتفال يجريه الهندوس لموتاهم لإيصال أرواحهم إلى السماء، وتسهيل قبولها بين الأرواح الخالصة، وعندهم أن عدم إجراء هذا الاحتفال يُبقي الروح تائهة على وجه الأرض مع الأرواح النجسة، وأن الذي يتأخر في أداء هذه الفروض نحو أقربائه تلعنه الآلهة والبشر، وتبقى أرواح أقربائه محرومة عدة سنوات معلومة من وليمة الأرواح الخالصة، والذي يموت دون أن يترك ابناً ليتمّم بعده الفروض المأتمية يكون سبباً لطرد أرواح سلفائه من الجنة إلى الجحيم!

وقد تطورت الهندوسية عبر الأزمنة ومن خلال مجموعة من العادات والتقاليد نظمت حياتهم لأجيال متعاقبة.

ونستكمل الحديث إن شاء الله في المقالات القادمة.

أ.د. جمال بن عمار الأحمر الأنصاري

سفير الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ في الجزائر

معجزاته ﷺ في تكثير الماء

الماء في المجتمع الصحراوي عصب الحياة، وسرُّ البقاء، وكنزٌ لا يُقدَّر بثمن! ففي تلك الأصقاع القاحلة، حيث تُلهب الشمسُ الرمال، ويُصبح الظمأ هاجساً يومياً، تتحول كل قطرة ماء إلى نعمةٍ تُذكِّر الإنسانَ بضعفه وحاجته إلى رحمة الله. وهنا تبرز معجزات النبوَّة العظيمة كالأنهار في الصحراء؛ فحين يشحّ الماء، وتُضيق الأرض بما رحُبت، ويبلغ العطشُ مبلغَه، يأتي الرسول المنقذ ببركة السماء! كان موسى ﷺ يضرب الحجر بعصاه فتنفجر منه العيون! وكان رسول الله ﷺ يكتفي بوضع يده الشريفة أو

يتمتم بكليمات في الإناء فيتدفق الماءُ عذباً زلالاً، فيُحيي القلوبَ قبل الأجساد! هذه المعجزات لم تكن مجرد إجابةٍ لحاجةٍ عابرة، بل كانت آياتٍ باهراتٍ تثبت النبوة، وتُذكِّر البشر بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، القادر على خرق العادات، وتفجير ينابيع الحمد بعد الرجاء حتى في أحلك لحظات اليأس.

١ معجزته ﷺ في تكثير ماء الوضوء لصلاة العصر

عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناسُ الوضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوَضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه. قال: فرأيت الماء نبع من تحت أصابعه، حتى توضؤوا من عند آخرهم[١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قد رأيتني مع النبيّ ﷺ، وقد حضرت العصر، وليس معنا ماءٌ غير فضلة، فجعل في إناء، فأتى النبي ﷺ به، فأدخل يده فيه، وفرّج أصابعه، ثم قال: «حيَّ على أهل الوضوء، البركةُ من الله»! فلقد رأيتُ الماء يتفجّر من بين أصابعه، فتوضّأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلتُ في بطني منه، فعلمتُ أنه بركة! قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألف وأربعمائة![٢].

---

١ أخرجه الشيخان، البخاري (١٦٩)، ومسلم (٢٢٧٩).

٢ البخاري: ٧٤-الأشربة (٥٦٣٩). ومسلم (١٨٥٦). وابن حبان (٦٥٣٨). والبيهقي في الدلائل (١١٧/٤).

٢ معجزته ﷺ في تكثير الماء للوضوء بالزوراء في المدينة

عن أنس بن مالك قال: «أُتي رسول الله ﷺ بإناء وهو بالزوراء[٣] فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟، قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة»[٤].

٣ معجزته ﷺ في تكثير ماء الميضأة في سفر

عن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء إن شاء الله غدا». فانطلق الناس لا يلوى أحد على أحد. وفيه: قال: فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار، وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله، هلكنا عطشنا. فقال: «لا هُلك عليكم» ثم قال: «أطلقوا لي غمري». قال: ودعا بالميضأة، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يَعْدُ أن رأى الناس ماء في المَيْضَأَة تكابُّوا عليها. فقال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الملأ، كلُّكم سيُروى» قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم، حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ. قال: ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي: «اشرب» فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله، قال: «إنَّ ساقيَ القوم آخرُهم شُربا» قال: فشربت، وشرب رسول الله ﷺ، قال: فأتى الناس الماء جامين رواء![٥]

---

٣ الزَّوراء: موضع بالمدينة عند سوقها في ذلك الوقت. [وفاء الوفاء (٤/ ١٢٢٩)].

٤ أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له، كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام. انظر: فتح الباري (٦/٥٨٠) (ح ٣٥٧٢). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل: باب في معجزات النبي ﷺ (٧/ ٤٩).

٥ أخرجه مسلم (٦٨١).

٤ معجزته ﷺ في تكثير ماء مزادتين في السفر

عن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ، وإنا أسرينا، حتى كنا في آخر الليل وقعنا وقعة، ولا وقعة أحلى عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حر الشمس. وكان أول من استيقظ فلان ثم فلان ثم فلان، ثم عمر بن الخطاب الرابع. وكان النبي ﷺ إذا نام لم يوقَظ حتى يكون هو يستيقظ، لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه، فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، وكان رجلاً جليداً، فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير، حتى استيقظ بصوته النبي ﷺ، فلما استيقظ شكوا إليه الذي أصابهم، قال: «لا ضير، أو لا يضير، ارتحلوا». فارتحل فسار غير بعيد، ثم نزل فدعا بالوَضوء فتوضأ، ونودي بالصلاة، فصلى بالناس، فلما انفتل من صلاته، إذا هو برجل معتزل لم يصلِّ مع القوم، قال: «ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم؟»

قال: أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد فإنه يكفيك!»، ثم سار النبي ﷺ، فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً ودعا علياً فقال: «اذهبا فابتغيا الماء». فانطلقا، فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمسِ هذه الساعة، ونفرنا خُلُوف، قالا لها: انطلقي إذاً، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، فقالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي. فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث. قال: فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء، ففرَّغ فيه من أفواه المزادتين، أو سطيحتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالي، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا. فسقى من شاء، واستقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، قال:

«اذهب فأفرغه عليك». وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وأيم الله، لقد أقلع عنها، وإنه ليخيل إلينا أنه أشد مِلأَة منها حين ابتدأ فيها. فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة، حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوها في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها.

قال لها: «تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً، ولكن الله هو الذي أسقانا». فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر من بين هذه وهذه -وقالت بإصبعيها الوسطى والسبابة، فرفعتهما إلى السماء، تعني: السماء والأرض- أو إنه لرسول الله حقاً. فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين، ولا يصيبون الصرم الذي هي منه، فقالت يوماً لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدَعونكم عمداً، فهل لكم في الإسلام، فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام[٦].

٥ معجزته ﷺ في تكثير الماء في صُلح الحديبية

عن البراء بن عازب الأنصاري قال: تَعُدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً. ونحن نَعُد الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة. فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها. فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا[٧].

٦ أخرجه الشيخان؛ البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).

٧ أخرجه البخاري (٤١٥٠).

وعن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها. قال: فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية، فإما دعا وإما بسق فيها. قال: فجاشت فسقينا واستقينا[٨].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك! فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة![٩]

وعن معمر قصة صلح الحديبية وفيها: قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ قليل الماء، يتربضه الناس تربضاً، فلم يلبثه الناس حتى نَزَحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فو الله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه[١٠].

٦ معجزته ﷺ في تكثير ماءِ عَين تَبوك

عن معاذ بن جبل قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً. حتى إذا كان يوماً أخر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر

---

٨ أخرجه مسلم (١٨٠٧).
٩ أخرجه البخاري (٣٥٧٦).
١٠ أخرجه البخاري (٢٧٣١).

والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك، فصلى المغرب والعشاء جميعاً. ثم قال: «إنكم ستأتون غداً، إن شاء الله، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم، فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتى آتي». فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك، تبض بشيء من ماء. قال: فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم! فسبَّهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء مُنهَمِر- أو قال: غزير- حتى استقى الناس، ثم قال: «يُوشِك يا معاذ، إن طالت بك حياةٌ، أن ترى ما ها هُنا قد مُلِئَ جِنانا»[١١].

٧ معجزته ﷺ في تكثير الماء من قطرة

عن جابر قال: (...) فأتينا العسكر، فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر، نادِ بِوَضُوء» فقلت: ألا وَضوءٌ؟! ألا وَضوءٌ؟! ألا وَضوءٌ؟! قال: قلت: يا رسول الله، ما وجدت في الركب من قطرة. وكان رجل من الأنصار يبرِّد لرسول الله ﷺ الماء في أشجابٍ له على حَمّارة من جَريد. قال: فقال لي: «انطلق إلى فلان بن فلان الأنصاري، فانظر هل في أشجابِه من شيء؟». قال: فانطلقت إليه، فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها، لو أني أُفرِغُه لَشَرِبه يابِسُه. فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني لم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها، لو أني أُفرِغُه

---

١١ أخرجه مسلم (٦٠٧ مكرر).

لَشَرِبه يابِسُه! قال: «اذهب فائْتِني به» فأتيته به، فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو، ويغمزه بيده، ثم أعطانيه، فقال: «يا جابر، ناد بجفنة». فقلت: يا جفنة الركب، فأتيت بها تُحمل، فوضعتُها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجفنة هكذا، فبسطها وفرق بين أصابعه، ثم وضعها في قعر الجفنة. وقال: «خذ يا جابر، فصُبَّ عليَّ، وقل: باسم الله». فصببتُ عليه، وقلتُ: باسم الله، فرأيتُ الماء يَفور من بين أصابع رسول الله ﷺ، ثم فارت الجفنة ودارت، حتى امتلأت. فقال: «يا جابر، ناد من كان له حاجة بماء». قال: فأتى الناسُ فاستقَوْا حتى رَوَوْا. قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مَلْأَى![12]

هكذا، في مناسبات مختلفة المكان، متغايرة الزمان، متبدلة الظروف، يجد الصحابة أنفسهم في مسيس الحاجة إلى الماء، فتأتي معجزات الماء رحمة، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم. وشتان ما بين أتباع محمد ﷺ وأتباع موسى ﷺ في الإيمان والمحبة والاتباع!

---

١٢ أخرجه مسلم (٣٠١٣).

الشيخ جلال الدين حمصي

سفير الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ بلبنان

سوريا الجديدة والنهضة الدعوية

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه القويم إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن من أعظم النعم التي امتنّ الله بها على عباده في الشام بعد زوال القبضة الطاغوتية الأسدية البعثية المجرمة الحاقدة على الدين وأهله..

هي عودة الروح إلى الجسد، وهي الدعوة إلى توحيد الله وحده والسير على خطى النبي الأمين ﷺ، وكذلك بث الحياة في أوصال العمل الإسلامي الذي كان مقموعاً لعقود.

فقد عاشت سوريا -في ظل النظام البائد- مرحلة من التضييق الشديد على شعائر الإسلام، حيث مُنعت مظاهر العبادة الجماعية كصلاة العيد في الساحات، وتهمّشت المساجد، وأُفرغت من رسالتها التربوية والإيمانية، فباتت كثير من بيوت الله أشبه بالمرافق المهجورة، لا تُقام فيها شعائر الإيمان إلا بما يُرضي السلطة ويخدم أهدافها.

أما اليوم، وبعد أن أذن الله بزوال كثير من مظاهر الظلم والطغيان، فقد انطلقت نهضة دعوية مباركة تُبشّر بعودة المجد الإسلامي إلى أرض الشام، مهد الرسالات ومهبط البركات.

لقد رأى الناس كيف أعاد الله للمساجد حياتها، فأُعيد إعمار ما هُدم منها، وتزيّنت بيوت الله بالنور والذكر، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

ومن صور إحياء السنن المهجورة:

- عودة صلاة العيد في الساحات، كما كان يفعل النبي ﷺ وأصحابه الكرام، في مشهد يملأ القلوب بهجةً، ويعيد للأمة شعائرها العظيمة، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

- كما يجري العمل على استرداد الكثير من أملاك الأوقاف المنهوبة، لتعود وزارة الأوقاف من أغنى الوزارات، مما سيمكنها من تمويل مشاريع دعوية وعمرانية ضخمة لخدمة بيوت الله عز وجل.

- كما يجري الاعتناء بالمساجد المركزية، لا سيما ذات الطابع الأثري، وإعادة تأهيلها بما يليق بمكانتها، حمايةً لهوية الأمة وتاريخها الديني.

وفي الجانب العلمي، انطلقت الندوات الشرعية والدورات الدعوية، وانتشرت المحاضرات المنهجية في فقه العبادات والسلوك، وكانت حملة (خير الأيام) نموذجًا رائدًا في تفعيل أيام العشر من ذي الحجة، تذكيرًا بفضلها ومكانتها، تخللتها محاضرات ومسابقات إيمانية، ومواكب دعوية.

كذلك، انتشرت المسابقات القرآنية والإيمانية مثل:

- **فرسان الفجر:** التي أحيت سنة المحافظة على صلاة الفجر جماعة.
- **مسابقة النصر القرآنية:** التي غرست في القلوب معاني الجهاد والتضحية.
- **ورمضان النصر:** التي أحيت ليالي الشهر المبارك بالذكر والتنافس على الطاعات.

ولأن العلم الشرعي هو قوام الدعوة، فقد افتُتحت المراكز العلمية لتخريج طلاب العلم والدعاة، وإقامة الحِلَق والدروس، إحياءً لقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن صور الجمال القرآني، ما شهدته البلاد من (قوافل النور)، وهي فعاليات يُتلى فيها القرآن على مسامع الناس في مشاهد مهيبة تفيض خشوعًا ووقارًا، تبث في القلوب سكينة، وفي الأرواح نورًا، استجابة لقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

كما لم يُغفل الجانب المؤسساتي، فتم افتتاح المصليات في الجامعات والثكنات الأمنية والفروع، في خطوة مباركة تعيد الدين إلى سائر مفاصل الحياة، وتؤسس لجيل متوازن يجمع بين الإيمان والعمل.

واعترافًا بفضل أهل العلم والقرآن، أقيمت احتفالات لتكريم العلماء وطلبة العلم وحفظة كتاب الله، وفاءً لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

إن هذه النهضة الدعوية المباركة ليست طارئة ولا مؤقتة، بل هي امتداد لوعد الله وتمكينه لعباده الصالحين، حيث قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وهذا الوعد يتجلى في عودة الإسلام ليكون منهج حياة، ودستور أمة، وشعلة هداية في زمن الظلمات.

نسأل الله أن يُتمّ هذه النعمة، وأن يبارك في هذه النهضة، وأن يجعل سوريا منارة للعلم والدعوة، ومهوى قلوب المؤمنين.

أكاديمية أنصار النبي ﷺ
SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY

فقه الحج

هذه دورة عن فقه الحج قام بإلقائها فضيلة الدكتور ياسر النجار، تناول فيها أهمية الحج وإنه ركن من أركان الإسلام، وذكر الأدلة الشرعية، وأقوال العلماء بالتفصيل والتأصيل، ثم تكلم الشيخ عن تعريف الحج وأركانه وشروطه وعلى من يجب، وأنواع الحج وذكر ذلك في سبعة عشر محاضرة.

يمكنك الاشتراك في الدورة من هنا

من أهداف الدورة:

- تغطية جزء من فقه العبادات مما لا يسع المسلم جهله.
- معرفة حكم الحج وهل يجب على الفور.
- معرفة خصال الاستطاعة المعتبرة شرعًا.
- معرفة الشروط الخاصة بالنساء في الحج.
- معرفة شروط صحة الحج.

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

17 محاضرة 10 ساعات

قصة الهجرة

دورة علمية تتناول حدث الهجرة كاملاً من بداية إرهاصات الهجرة إلى وصول النبي ﷺ المدينة، وأسبابها وأحداثها ونتائجها، وتبين ما ثبت وما لم يثبت من الوقائع التاريخية حول هذا الحدث العظيم، وتتناول حدث الهجرة النبوية بالتفصيل، وما الذي حدث مع النبي وأصحابه، والهجرة الأولى إلى الحبشة، ذكر الوفد الذين قدموا من الأنصار لبيعة رسول الله، وسرد حدث الهجرة على طريقة القراءة وإسقاطها على واقع المسلمين، حتى يستفيد من سردها كل مسلم ومسلمة.

9 محاضرات 3 ساعات

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

أكاديمية أنصار النبي ﷺ
SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY

فِقهُ الصِّيَامِ

مع فضيلة الشيخ الدكتور
جعفر الطلحاوي
أستاذ الشريعة الإسلامية بالأزهر الشريف

هي دورة علمية يقدمها فضيلة الشيخ الدكتور/ جعفر الطلحاوي في فقه الصيام وما يلحق به في عدة حلقات، تُقدم شرحاً تفصيلياً لفقه الصيام، وذكر القول الراجح من أقوال العلماء، كما تجيب على أكثر الأسئلة شيوعا وتكراراً في باب فقه الصيام، وذكر الراجح من أقوال العلماء في المسألة، دون الدخول في تفاصيل أقوال المذاهب، والمسائل الخلافية بينهم، وما يلحق به كـ (الاعتكاف - وزكاة - الفطر)، وهي دورة علمية بين يدي رمضان نصل بها إلى عموم المسلمين تعليماً وتفقها.

20 محاضرة | 8 ساعات

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

شرح الأرجوزة الميئية

دورة شرح الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية ﷺ، التي ألفها العلامة ابن أبي العز الحنفي الدمشقي في مئة بيت، ذكر فيها سيرة وحال النبي ﷺ من مولده إلى وفاته، في أبيات على بحر الرجز ولذا سميت الأرجوزة، وقام بشرحها فضيلة الدكتور محمد سعيد بكر في كتاب تحت عنوان (القيم النبوية في الأرجوزة الميئية) في أربعة عشر لقاء في أكاديمية أنصار النبي ﷺ.

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

15 محاضرة | 5 ساعات

قواعد الإدارة النبوية

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

دورة قواعد الإدارة النبوية يقدمها فضيلة الدكتور محمد سعيد بكر، يتناول فيها كيف كانت إدارة النبي ﷺ في التخطيط والتنظيم، والمتابعة، والمراقبة، والتوجيه، وكيف تعامل مع إدارة الأزمات، وإسقاط ذلك على واقع الإدارة الحديثة وآلية تفعيل هذه القواعد في وقتنا الحاضر، وذلك في عشر محاضرات.

10 محاضرات

3 ساعات

أكاديمية أنصار النبي ﷺ
SUPPORTERS OF THE PROPHET ACADEMY

فقه الجهاد

30 محاضرة
10 ساعات

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

دورة علمية تأصيلية في فقه الجهاد وأحكامه في الشريعة الإسلامية، قدمها فضيلة الدكتور عبد الحي يوسف، تناول فيها تعريف الجهاد وأنواعه ومراتبه ومراحل تشريعه، ثم استفاض الشيخ في التفصيل في مسائل الباب وبيان أحكامها وأدلتها وإنزال ذلك على واقع الجهاد في فلسطين.

شرح العقيدة المقدسية

دورة شرح العقيدة المقدسية لفضيلة الشيخ الدكتور الحسن الكتاني، شرح فيها كتاب العقيدة المقدسية لفضيلة الشيخ محمد يسري إبراهيم، وتوضح الدورة عقيدة المسلمين في بيت المقدس والمسجد الأقصى، ومكانة هذه المقدسات في الإسلام، وما يجب على المسلمين تجاهها، مع الرد على كافة الشبهات المثارة حول هذه المسألة.

19 محاضرة
8 ساعات

اضغط هنا للاشتراك في الدورة

سلسلة

السيرة النبوية

استعراض لوقائع السيرة النبوية
التي نحتاجها في واقعنا المعاصر

الشيخ د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

- من نبعته إلى بعثته ﷺ
- من هجرته إلى وفاته ﷺ
- من بعثته إلى هجرته ﷺ
- الغزوات النبوية

سلسلة السيرة الفرنسية

السيرة النبوية

استعراض لسيرة النبي ﷺ
من خلال دراسات ومؤلفات
المستشرقين والمؤرخين
الفرنسيين، تحقيقا لقوله تعالى:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾

السيرة النبوية الفرنسية

محمد إلهامي

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

سلسلة شرح

كتاب الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

وقفات مع الكتاب الأفخر الأشهر للقاضي عياض، للتعريف بحقوق النبي ﷺ والواجب على أمته نحوه.

سلسلة شرح كتاب الشفا

الشيخ د. عبد الحي يوسف

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

كتاب

السيرة النبوية

بعدة لغات

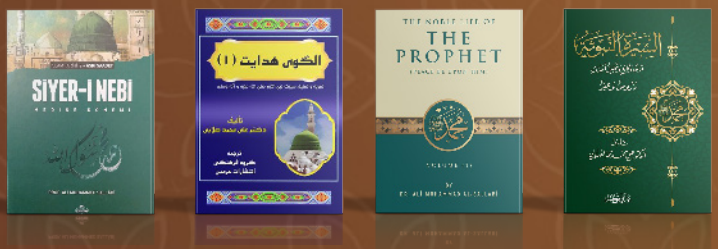

الشيخ د. علي محمد الصلابي

المؤرخ الإسلامي

الأرجوزة المئية
في ذكر حال أشرف البرية

التعليق على الأرجوزة المئية
في ذكر حال أشرف البرية
لابن أبي العز الحنفي

الأرجوزة المئية
في ذكر حال أشرف البرية

تعليق الشيخ: مختار بن العربي

عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

كتاب
رياض الصالحين
للإمام النووي

زبدة أحاديث السنة النبوية كما
جمعها الإمام الكبير محيي الدين
شرف النووي

رابط الكتاب المسموع
يمكنك تحميله كتطبيق
على الهاتف من هنا

بصوت الدكتور: بسام صهيوني

عضو مجلس الأمناء للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

كتاب الأربعين في نصرة النبي الأمين

الشيخ أحمد الحسني الشنقيطي

خلاصة
قصة فلسطين

رابط الكتاب

محمد إلهامي

عضو الأمانة العامة للهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

﴿قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾

من تراث العلماء والدعاة والشهداء الراحلين

أئمة الهدى

خصصنا هذا القسم من هذا العدد لمقالات من تراث الشهيد سيد قطب في ذكرى استشهاده: أغسطس ١٩٦٦م

١٦٨ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ — سيد قطب

١٧٥ اليهود هم اليهود — سيد قطب

١٨٣ قصة اليهود مع نبينا محمد ﷺ — سيد قطب

١٩١ ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ — سيد قطب

سيد قطب[1]
رحمه الله

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ * وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦-١٢٢].

---

١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ٤/٢٤٠٠ وما بعدها.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.. إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة، ومن مصائر الناس في الدنيا والآخرة، ومن قواعد العمل والجزاء.. إن في هذا لبلاغاً وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله. ويسميهم ﴿عابدين﴾ لأن العابد خاشع القلب طائع متهيئ للتلقي والتدبر والانتفاع.

لقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون. وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين..

إن المنهج الذي جاء مع محمد ﷺ منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي: جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة. وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.

وكفلَ للعقل البشري حرية العمل، بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير. ثم ترك له الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر، كيما تنمو وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض.

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال سابقاً لخطوات البشرية في عمومه. قابلاً لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نمواً مطرداً. وهو يقودها دائماً، ولا يتخلف عنها، ولا يقعد بها، ولا يشدها إلى الخلف، لأنه سابق دائماً على خطواتها متسع دائماً لكامل خطواتها.

وهو في تلبيته لرغبة البشرية في النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها في صورة من صور الكبت الفردي أو الجماعي، ولا يحرمها الاستمتاع بثمرات جهدها وطيبات الحياة التي تحققها.

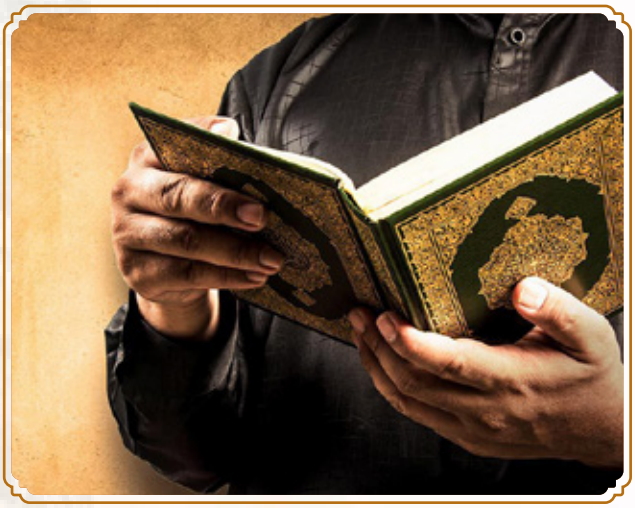

وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق. لا يعذب الجسد ليسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد. ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة. ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذي حياة الجماعة، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد.

وكافة التكاليف التي يضعها ذلك المنهج على كاهل الإنسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته، ولمصلحته، وقد زود بالاستعدادات والمقدرات التي تعينه على أداء تلك التكاليف، وتجعلها محببة لديه مهما لقي من أجلها الآلام أحياناً لأنها تلبي رغيبة من رغائبه، أو تصرف طاقة من طاقاته.

ولقد كانت رسالة محمد ﷺ رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية، لبُعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة. ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئاً فشيئاً من آفاق هذه المبادئ. فتزول غرابتها في حسها، وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى.

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية الجغرافية. لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد.. وكان هذا غريباً على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك. والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد.. ولكن ها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرناً تحاول أن تقفو خطى الإسلام، فتتعثر في الطريق، لأنها لا تهتدي بنور الإسلام الكامل. ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج ولو في الدعاوى والأقوال وإن كانت ما تزال أمم في أوروبا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نيف وثلاثمائة وألف عام.

ولقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون. في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات، وتجعل لكل طبقة قانوناً. بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع.. فكان غريباً على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء.

ولكن ها هي ذي شيئاً فشيئاً تحاول أن تصل ولو نظرياً إلى شيء مما طبقة الإسلام عملياً منذ نيف وثلاثمائة وألف عام.

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمداً ﷺ إنما أرسل رحمة للعالمين. من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء. فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة؛ وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة وندائها. وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب..

وبعد إبراز معنى الرحمة وتقريره يؤمر الرسول ﷺ بأن يواجه المكذبين المستهزئين، بخلاصة رسالته التي تنبع منها الرحمة للعالمين: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء ١٠٨].

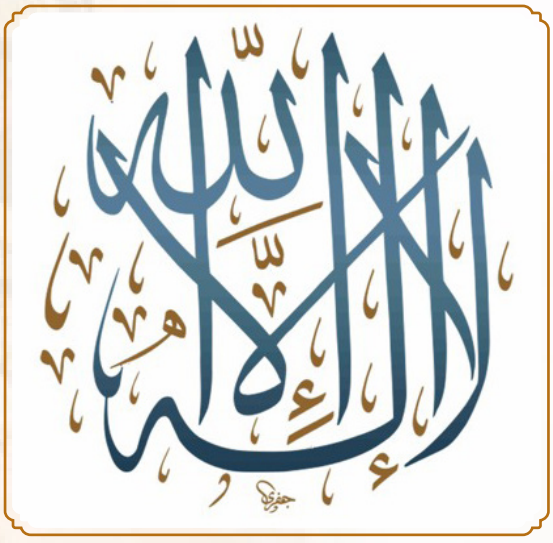

فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة. عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية، ومن أثقال الوثنية، ومن ضغط الوهم والخرافة. والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركينة، فيربطها بالوجود كله، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات. والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار.

هذا هو طريق الرحمة.. ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؟ وهذا هو السؤال الواحد الذي يكلف رسول الله ﷺ أن يلقيه على المكذبين المستهزئين.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ أي: كشفت لكم ما عندي فأنا وأنتم على علم سواء. والإيذان يكون في الحرب لإنهاء فترة السلم، وإعلام الفريق الآخر أنها حرب لا سلام.. أما هنا والسورة مكية ولم يكن القتال قد فرض بعد فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نفض يده منهم، وتركهم عالمين بمصيرهم، وأنذرهم عاقبة أمرهم. فلم يعُد لهم بعد ذلك عذر، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون.. ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

آذنتكم على سواء، ولست أدري متى يحل بكم ما توعدون فهو غيب من غيب الله لا يعلمه إلا الله، وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه في الدنيا أو في الآخرة سواء. وهو يعلم سركم وجهركم، فما يخفى عليه منكم خافية: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾..

فأمركم كله مكشوف له، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه، وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾..

وما أدري ما يريد الله بهذا التأخير، فلعله يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء، فيمتعكم إلى أجل، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر. وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية، ويدعهم يتوقعون كل احتمال، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة، وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء. وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة، والأعصاب متوفزة، ترتقب في كل لحظة أن يُرفع الستار المسدل، عن الغيب المخبوء. وإن القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله، وإن المتاع ليخدع، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما وراءه مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله في موعده المغيب المجهول.

فهذا الإنذار يردّ القلوب إلى اليقظة، ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان.

وهنا يتوجه الرسول ﷺ إلى ربه وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وآذنهم على سواء، وحذرهم بغتة البلاء.. يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم. وهو وحده المستعان: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول. فهو الذي أرسله ﷺ رحمة للعالمين، فكذّب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون. وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون.

وبهذا المقطع القوي تُختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوي، فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوي مثير عميق.

سيد قطب[1]
رحمه الله

اليهود هم اليهود..

من موسى إلى عيسى إلى محمد ﷺ!

يندد القرآن الكريم في هذه الآيات بموقف اليهود من النبي ﷺ ورسالته، وتعنتهم في طلب الآيات والأمارات منه، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى -عليه السلام- ثم مع رسول الله من بعده عيسى -عليه السلام- وأمه مريم، فإذا هم جبلة واحدة في أجيالهم المتتابعة.. والسياق يوحد بين الجيل الذي يواجه الرسول ﷺ، والجيل الذي واجه عيسى عليه السلام، والجيل الذي واجه موسى كذلك من قبل، ليؤكد هذا المعنى، ويكشف عن هذه الجبلة:

١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ١/٧٧٩ وما بعدها.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا * وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا * فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا * وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا * وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا * وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا * فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا * وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٣- ١٦١].

لقد وقف اليهود في الجزيرة من الإسلام ونبي الإسلام ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف، وكادوا له ذلك الكيد المبيت المستمر العنيد، الذي وصفه القرآن تفصيلاً، واستعرضنا ألواناً منه في سورتي البقرة وآل عمران، وفي هذه السورة كذلك من قبل -في الجزء الخامس- وهذا الذي تقصه الآيات هنا لون آخر.

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء.. كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسماً يلمسونه بأيديهم: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ويتولى الله -سبحانه- الإجابة عن نبيه. ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة -في مواجهة اليهود- صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى -عليه السلام- الذي يزعمون أنهم يؤمنون به؛ ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد! إن هذه الجبلة ليست جديدة عليهم؛ وليست طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي جبلتهم من قديم.

إنهم هم هم من عهد موسى -نبيهم وقائدهم ومنقذهم- إنهم هم هم غلظ حس فلا يدركون إلا المحسوسات.. وهم هم تعنتاً وإعناتاً فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط.. وهم هم كفراً وغدراً فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم -لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك- وهم هم فجة واقتراء؛ فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالنكر.. وهم هم طمعاً في عرض الدنيا؛ وأكلاً لأموال الناس بالباطل؛ وإعراضاً عن أمر الله وعما عنده من ثواب..

إنها حملة تفضحهم وتكشفهم؛ وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودي للإسلام ونبي الإسلام في ذلك الأوان.. وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.. فلا عليك من هذا التعنت؛ ولا غرابة فيه ولا عجب منه: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾. ولم تبلغ الآيات البينات

التي أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن تلمس حسهم؛ وتوقظ وجدانهم وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام؛ فإذا هم يطلبون رؤية الله -سبحانه- عياناً! وهو مطلب طابعه التبجح الذي لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان؛ أو فيه استعداد للإيمان؛ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

ولكن الله -سبحانه- عفا عنهم؛ وتقبل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته إلى ربه؛ كما ورد في السورة الأخرى ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ عجل الذهب، الذي صاغه لهم السامري، مما كانوا قد أخذوه -حيلة- من نساء المصريين وهم خارجون من مصر- فإذا هم يعكفون عليه؛ ويتخذونه إلهاً في غيبة موسى عنهم في مناجاة ربه، في الموعد الذي حدده له، لينزل عليه الألواح فيها هدى ونور. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾..

ولكن اليهود هم اليهود. لا يفلح معهم إلا القهر والخوف: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، والسلطان الذي آتاه الله موسى هو -في الغالب- الشريعة التي تضمنتها الألواح، فشريعة الله سلطان من الله، وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان، وما جعل فيها من سطوة على القلوب.

لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد. فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع؛ ولها في النفس مهابة وخشية..

❁ ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما في الألواح.. وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعتهم الغليظة. إذ نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم؛ تهددهم بالوقوع عليهم؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد؛ وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح.. عندئذ فقط استسلموا؛ وأخذوا العهد؛ وأعطوا الميثاق.. ميثاقاً غليظاً.. مؤكداً وثيقاً.. يذكره -بهذه الصفة- ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذي في صدورهم، ثم يعطي - إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وبالتخييل الحسي والتجسيم.

وكان في هذا الميثاق: أن يدخلوا بيت المقدس سجداً. وأن يعظموا السبت الذي طلبوا أن يكون لهم عيداً. ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم؛ وغياب القهر لهم، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق. وتبجحوا فقالوا: إن قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، لأنها مغلفة دون كل قول! وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين -في مواجهة اليهود- في سياق هذه الآيات..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وعند قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.. وهي القولة التي كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول ﷺ إما تيئيساً له من

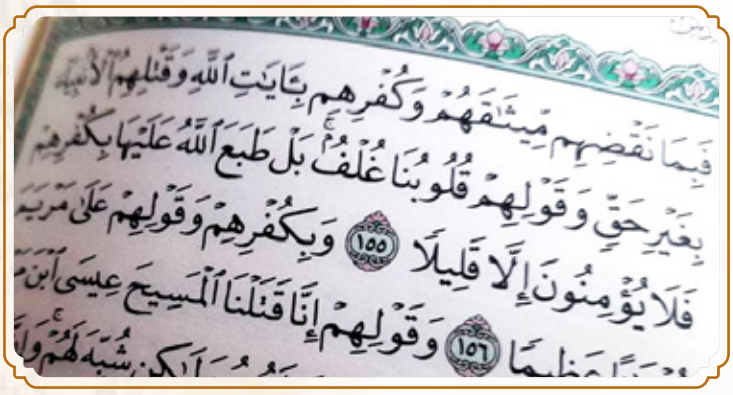

إيمانهم واستجابتهم، وإما استهزاء بتوجيه الدعوة إليهم، وتبجحاً بالتكذيب وعدم الإصغاء، وإما هذا وذلك معاً.. عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

فهي ليست مغلفة بطبعها. إنما هم كفرهم جر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منه الإيمان، إلا قليلاً، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه. أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه. وهم قلة قليلة من اليهود. كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيدالله..

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب، يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم، لتكون في انتظارهم في الآخرة!

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا * وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ويكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق -وما يقتل نبي بحق أبداً فهي حال لتقرير الواقع- وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا مع يوسف النجار -لعنة الله عليهم!- ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله!

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليها، وتقرير الحق فيها: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه، قضية يخبط فيها اليهود - كما يخبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية! والنصارى يقولون: إنه صلب ودفن، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. و«التاريخ» يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب!

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين.. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً، وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين.. إلا ما يقصه رب العالمين.. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾

أما القرآن فيقرر قراره الفصل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾..

فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم هذه المنكرات الجديدة: الظلم، والصد الكثير عن سبيل الله؛ فهم ممعنون فيه ودائبون عليه، وأخذهم الربا -لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه- فقد نُهوا عنه فأصروا عليه! وأكلهم أموال الناس بالباطل، بالربا وبغيره من الوسائل.

بسبب من هذه المنكرات، ومما أسلفه السياق منها.. حُرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم. وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً.

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم؛ وفضح تعلاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم؛ ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم؛ ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء في حق الأنبياء والصالحين. بل قتلهم والتبجح بقتلهم! وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم. وتعرف الجماعة المسلمة -ما ينبغي أن تعرفه الأمة المسلمة في كل حين- عن طبيعة اليهود وجبلتهم، ووسائلهم وطرائقهم؛ ومدى وقوفهم للحق في ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم. فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحملته. في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم. مع أصدقائهم ومع أعدائهم.. لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته؛ جاسية قلوبهم، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم..

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق، ليقصر على الجماعة المسلمة الأولى في المدينة. فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها؛ وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم.. ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها.. القرآن.. شاردة عن هدية، ملقية به وراءها ظهرياً! متبعة قول فلان وفلان!! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن.

سيد قطب[1]
رحمه الله

قصة اليهود مع نبينا محمد ﷺ

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

فأما قصة هذا فتحتاج إلى شيء من إيضاح قصة اليهود مع المسلمين..

---

١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ٥/ ٢٨٤٥ وما بعدها.

إن اليهود في المدينة لم يهادنوا الإسلام بعد وفوده عليهم إلا فترة قصيرة. وكان الرسول ﷺ قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إليها أوجب لهم فيها النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً، ولا يمدوا يداً بأذى.

ولكن اليهود ما لبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول. وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة. كذلك أحسوا بخطر التنظيم الجديد الذي جاء به الإسلام للمجتمع بقيادة رسول الله ﷺ فقد كانوا قبل ذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا في المدينة. فلما وحد الإسلام الأوس والخزرج تحت قيادة نبيهم الكريم لم يجد اليهود الماء العكر الذي كانوا يصطادون بين الفريقين فيه!

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير إسلام حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام. ذلك أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه. ولكنه إن هو أعلن إسلامه خاف أن تتقول عليه يهود. فطلب إلى رسول الله ﷺ أن يسألهم عنه قبل أن يخبرهم بإسلامه! فقالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا. فخرج عندئذ عبد الله بن سلام إليهم، وطلب منهم أن يؤمنوا بما آمن به. فوقعوا فيه، وقالوا قالة السوء، وحذروا منه أحياء اليهود. وأحسوا بالخطر الحقيقي على كيانهم الديني والسياسي. فاعتزموا الكيد لمحمد ﷺ كيداً لا هوادة فيه.

ومنذ هذا اليوم بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام ويهود!

لقد بدأت في أول الأمر حرباً باردة، بتعبير أيامنا هذه. بدأت حرب دعاية ضد محمد ﷺ وضد الإسلام. واتخذوا في الحرب أساليب شتى مما عرف به اليهود في تاريخهم كله. اتخذوا خطة التشكيك في رسالة محمد ﷺ وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة. واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض. بين الأوس والخزرج مرة، وبين الأنصار والمهاجرين مرة. واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين. واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يوقعون بواسطتهم الفتنة في صفوف المسلمين.. وأخيراً أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التأليب على المسلمين، كالذي حدث في غزوة الأحزاب..

وكانت أهم طوائفهم بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. وكان لكل منها شأن مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين.

فأما بنو قينقاع وكانوا أشجع يهود، فقد حقدوا على المسلمين انتصارهم ببدر، وأخذوا يتحرشون بهم ويتنكرون للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته، بعدما انتصر على قريش في أول اشتباك بينه وبينهم.

وقد ذكر ابن هشام في السيرة عن طريق ابن إسحاق ما كان من أمرهم قال: وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال: "يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل

بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم". قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

وذكر ابن هشام عن طريق عبد الله بن جعفر قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت يهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وأكمل ابن إسحاق سياق الحادث قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام عبد الله بن أبيّ بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ -وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أحسن في مواليّ. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني». وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً. ثم قال: «ويحك! أرسلني». قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: «هم لك».

وكان عبد الله بن أبي لا يزال صاحب شأن في قومه. فقبل رسول الله ﷺ شفاعته في بني قينقاع على أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح. وبذلك تخلصت المدينة من قطاع يهودي ذي قوة عظيمة.

وأما بنو النضير، فإن رسول الله ﷺ خرج إليهم في سنة أربع بعد غزوة أحد يطلب مشاركتهم في دية قتيلين حسب المعاهدة التي كانت بينه وبينهم. فلما أتاهم قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟

ثم أخذوا في تنفيذ هذه المؤامرة الدنيئة، فأطلع رسول الله ﷺ ما كان من أمرهم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم. فتحصنوا منه في الحصون. وأرسل إليهم عبد الله ابن أبي ابن سلول (رأس النفاق) أن: اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم.. إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم. ولكن المنافقين لم يفوا بعهدهم. وقذف الله الرعب في قلوب بني النضير فاستسلموا بلا حرب ولا قتال. وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح. ففعل. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام. ومن أشرافهم ممن سار إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب.. هؤلاء الذين كان لهم ذكر في تأليب مشركي قريش وغطفان في غزوة الأحزاب.

والآن نجيء إلى غزوة بني قريظة. وقد مر من شأنهم في غزوة الأحزاب أنهم كانوا إلباً على المسلمين مع المشركين، بتحريض من زعماء بني النضير، وحيي بن أخطب على رأسهم. وكان نقض بني قريظة لعهدهم مع رسول الله ﷺ في هذا الظرف أشق على المسلمين من هجوم الأحزاب من خارج المدينة.

ومما يصور جسامة الخطر الذي كان يتهدد المسلمين، والفزع الذي أحدثه نقض قريظة للعهد ما روي من «أن رسول الله ﷺ حين انتهى إليه الخبر، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير رضي الله عنهم فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس. وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس». (مما يصور ما كان يتوقعه ﷺ من وقع الخبر في النفوس).

«فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم. نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد! ثم رجع الوفد فأبلغوا رسول الله ﷺ بالتلميح لا بالتصريح. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين» (تثبيتاً للمسلمين من وقع الخبر السيئ أن يشيع في الصفوف).

ويقول ابن إسحاق: وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم. حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين.. إلخ.

فهكذا كان الأمر إبان معركة الأحزاب.

فلما أيّد الله تعالى نبيه بنصره، ورد أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال.. رجع النبي ﷺ إلى المدينة منصوراً، ووضع الناس السلاح، «فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء المرابطة، في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدى له جبريل عليه السلام فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم. قال: ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها! وهذا أوان رجوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. وكانت على أميال من المدينة. وذلك بعد صلاة الظهر. وقال ﷺ: لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة، فسار الناس في الطريق، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق، وقالوا: لم يرد رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير. وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يعنف واحداً من الفريقين.

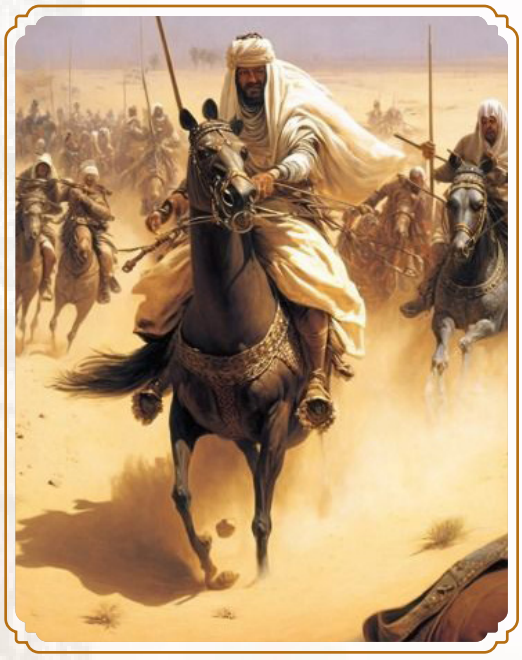

وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم (صاحب: عبس وتولى أن جاءه الأعمى..) رضي الله عنه وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة. فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية. واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع حتى استطلقهم من رسول الله ﷺ فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك. ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله (وهو عرق رئيسي في الذراع لا يرقأ إذا قطع) أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنا لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

فاستجاب الله تعالى دعاءه. وقدر عليهم أن ينزلوا على حكمه باختيارهم، طلباً من تلقاء أنفسهم. فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم. فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطأوا له عليه جعل الأوس يلوذون به، يقولون: يا سعد إنهم مواليك، فأحسن عليهم. ويرققونه عليهم ويعطفونه. وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم!

فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ، قال رسول الله: قوموا إلى سيدكم. فقام إليه المسلمون فأنزلوه، إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم.

فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: إن هؤلاء وأشار إليهم قد نزلوا على حكمك. فاحكم فيهم بما شئت.

فقال رضي الله عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: نعم.

قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: نعم.

قال: وعلى من ها هنا (وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً). فقال رسول الله ﷺ: نعم.

فقال رضي الله عنه: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة (أي: سماوات).

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخدت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم. وكانوا ما بين السبع مائة، والثماني مائة. وسبي من لم ينبت (كناية عن البلوغ) مع النساء والأموال. وفيهم حيي بن أخطب. وكان قد دخل معهم في حصنهم كما عاهدهم. ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود، وضعفت حركة النفاق في المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون. وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم.

سيد قطب[1]
رحمه الله

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٣].

١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ٩٠٩/٢ وما بعدها.

ويحسن أن نبين أولاً معنى الولاية التي ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى..

إنها تعني التناصر والتحالف معهم. ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم. فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر، الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله.

بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة..

وهذا المعنى معروف محدد في التعبيرات القرآنية. وقد جاء في صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين في المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام. فقال الله سبحانه: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢]. وطبيعي أن المقصود هنا ليس الولاية في الدين. فالمسلم ولي المسلم في الدين على كل حال. إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون. فهي التي لا تقوم بين المسلمين في دار الإسلام والمسلمين الذين لم يهاجروا إليهم.. وهذا اللون من الولاية هو الذي تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال، بعد ما كان قائماً بينهم أول العهد في المدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية؛ وتصطدم -من ثم- بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له..

وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد -بوصفنا جميعاً أهل دين!- ناسين تعليم القرآن كله، وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً. وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذي شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا

مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان.. في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن -في بُعْدٍ كاملٍ عن تقريرات القرآن الجازمة- أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية الإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرأون القرآن. وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام؛ فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذي لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعي الوحيد!

وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾..

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة.. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾..

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب -وبخاصة اليهود- فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبه.. وكان هذا كله طبيعياً مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله؛ بكل صنوف الكيد التي عددتها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة.

ونزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة. ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة. المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم دائماً. ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا.. الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾..

بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ.. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة.. لقد ولي بعضهم بعضاً في حرب محمد ﷺ والجماعة المسلمة في المدينة. وولي بعضهم بعضاً في كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ.. ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة؛ ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو.. بعضهم أولياء بعض.. ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!

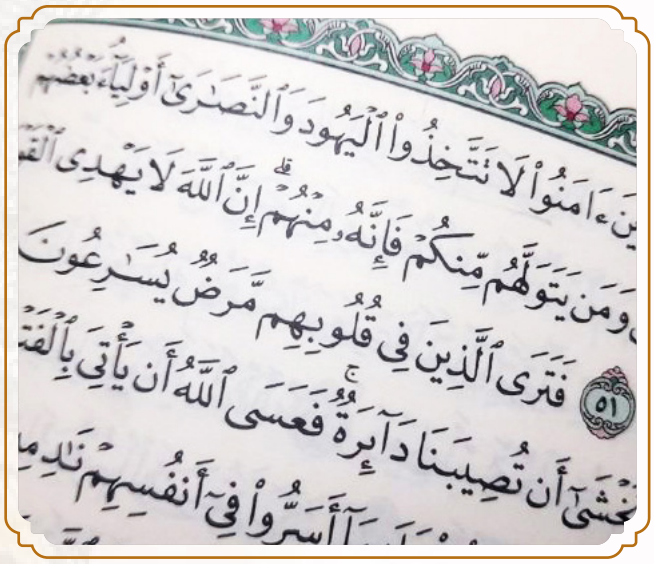

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها.. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم. والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخر. لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾..

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة.. وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه. ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾..

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة في المدينة. ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه. فهو عنيف. نعم؛ ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة. فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذين يتولى الله ورسوله والذين آمنوا.. فهذا مفرق الطريق..

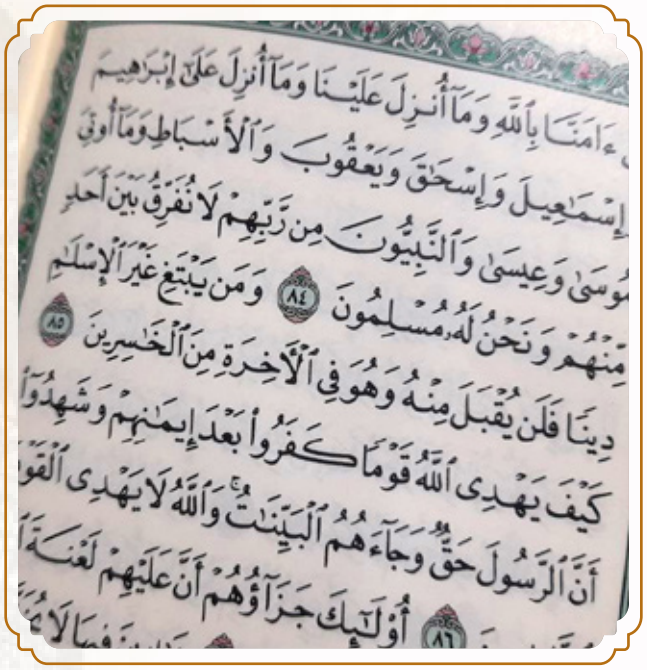

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام؛ وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام؛ ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى، ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى.

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم الذي لا أَرْجَحَة فيه ولا تردد بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس بعد رسالة محمد ﷺ وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه منهج متفرد، لا نظير له بين سائر المناهج، ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر، ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر، ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه، ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه الاعتقادية والاجتماعية، لم يأل في ذلك جهدا ولم يقبل من منهجه بديلا ولا في جزء منه صغير ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي ولا في نظام اجتماعي ولا في أحكام تشريعية إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب.

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو وحده الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس، في وجه العقبات الشاقة والتكاليف المضنية والمقاومة العنيدة والكيد الناصب والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان. وإلا فما العناء في أمر يغني عنه

غيره مما هو قائم في الأرض من جاهلية سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية الشرك أو في انحراف أهل الكتاب أو في الإلحاد السافر؟!

بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة، يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟!

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله والتسامح يكون في المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي، إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلا، ولا يقبل فيه تعديلا ولو طفيفا.

هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ وفي القرآن كلمة الفصل، ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين.

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾

الصادعون بالحق

سيرة العلماء والدعاة الأسرى

سيد قطب في الميزان
د. سلمان العودة
٢٠١

أحسن القصص
أبو البراء محمود عيسى
٢٠٧

بين لثامٍ ولثام (٢/٢)
قسام البرغوثي
٢١٧

د. سلمان العودة

فك الله أسره*

سيد قطب في الميزان

لقد قرأتُ معظم كُتب سيد قطب، وإن شئت فقل: كل كتبه، كما قرأت كثيراً مما كُتب عنه، ولعل أوفى كتاب في هذا الباب، هو كتاب: (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد) للدكتور صلاح الخالدي، وللدكتور عناية خاصة بالأستاذ سيد، وآخر مؤلفاته حوله رسالة كبيرة نشرت ضمن (سلسلة أعلام المسلمين).

---

* سلمان العودة، مقال: سيد قطب في الميزان، موقع إلكتروني: منتديات (الإسلام اليوم)، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٠م.

والملحوظ أن الناس في سيد، وفي غيره، يكون فيهم المتوسط المعتدل، الذي ينظر بعين الإنصاف والتجرد والتحري. ويكون فيهم المتطرف الذي يقع في التعصب والهوى، وسيان أن يكون التعصب ضد الشخص، مما يحمل على رد الحق الذي معه، وتصيد الأخطاء عليه، وتفسير كلامه على أسوأ الوجوه وعدم الاعتبار بالمتقدم والمتأخر من كلامه، أو أن يكون التعصب له مما يحمل على أخذ أقواله دون تحفظ، والغفلة عن أخطائه وعثراته، والدفاع عنه بغير بصيرة، بل وربما اعتقاد العصمة في المتبوع بلسان الحال، أو بلسان المقال.

وقد قال النبي ﷺ: «الكِبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس»[1].

والذي يخاف الله.. يتورع عن أعراض عامة المسلمين، فضلاً عن خاصتهم، من أهل العلم والدعوة والجهاد والدين.

والذي أدين الله به:

أن الأستاذ سيد قطب من أئمة الهدى والدين، ومن دعاة الإصلاح، ومن روّاد الفكر الإسلامي.

سخّر فكره وقلمه في الدفاع عن الإسلام، وشرح معانيه، وردّ شبهات أعدائه، وتقرير عقائده وأحكامه، على وجه قلّ من يباريه أو يجاريه في هذا الزمان. وكان حديثه حديث المعايش الذي لابس همّ الإسلام قلبه، وملك عليه نفسه، قد شغله الحزن على الإسلام، والغضب له، حتى عن ذاته وهمومه الخاصة.

---

١ صحيح مسلم (٩١)، من حديث ابن مسعود، رضي الله عنه.

وكتابه (الظلال) يُعد إضافة كبيرة لدراسة التفسير، واستطاع فيه أن يستوعب كثيراً مما كتبه المتقدمون، وأن يبني عليه رؤيته الخاصة المتميزة، وفهمه الثاقب، ودراسته الغزيرة، وأن يقرن آي الكتاب بحياة الناس المعاصرة، حتى يشعر قارئه أن القرآن ليس كتاباً نزل لبيئة خاصة في المكان والزمان، ولكنه هداية للناس أجمعين، أيًا كان زمانهم أو مكانهم.

ولقد استفاد الأستاذ سيد من (تفسير ابن كثير) فائدة غنية، ونقل عنه، وربما اعتمد عليه خصوصاً في باب المرويات والأقاويل، بل وفي أوجه الاختيار والترجيح. كما انتفع بما كتبه الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره (المنار) فيما يتعلق بربط هداية القرآن بنتائج العلم والبحث الإنساني والاجتماعي والعمراني، وفيما يتعلق بالتجرد عن التعصب والتقليد. ولكن يبقى (الظِّلال) شيئاً آخر غير هذا وذاك.

نعم، ليس الكتاب تفسيراً لآيات الأحكام، ولهذا فهو لا يُغني عن مثل كتاب القرطبي، أو ابن العربي، أو الجصاص، أو غيرهم، خصوصاً للمهتمين بمعرفة المذاهب الفقهية، والترجيح بينها.

وليس تقريراً مفصلاً أو تعليمياً، لكليات العقيدة وجزئياتها، فهو لا يُغني عن قراءة ما كتبه الإمام الفذ ابن تيمية، أو تلميذه العلَم ابن القيم، في تقرير العقيدة والذب عنها، ومناظرة خصومها.

بل ووقع في (الظِّلال) عثرات في هذا الباب وفي غيره، ولكنها يسيرة إلى جنب ما فيه من الخير والعلم والإيمان.

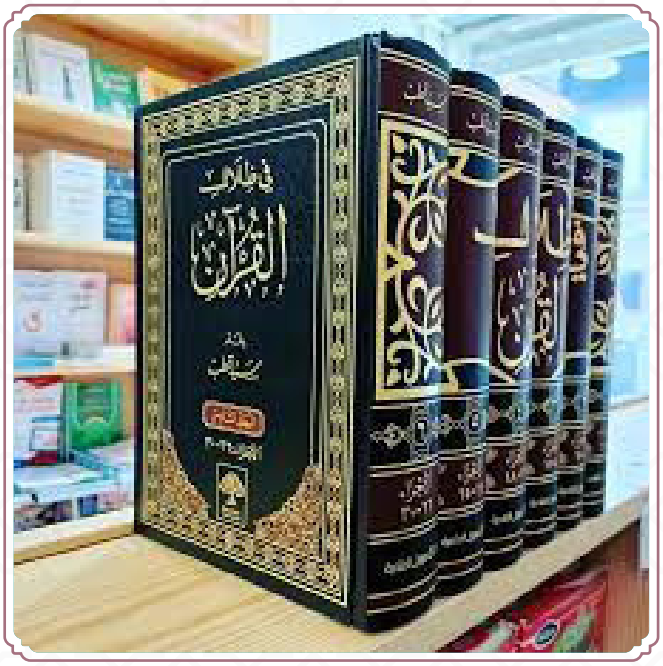

ومن ذلك -تمثيلاً- اضطرابه في باب الاستواء، كما يعرفه مَن راجع تفسير هذه الآية في مواضعها السبعة المعروفة، ووقع منه في بعضها أن الاستواء كناية عن السيطرة والاستعلاء، وهذا خطأ، والصواب: أن الاستواء كما قال مالك: «معلوم من حيث المعنى، مجهول أو غير معقول من حيث الكيفية». وقد ذكر الأئمة في معناه: العلو، والاستقرار، والارتفاع والصعود، والله أعلم.

ومن ذلك أنه يسمي توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة باسم: توحيد الربوبية. ويسمي توحيد الربوبية باسم: توحيد الألوهية، وهذا خطأ في اللفظ، لكنه -رحمه الله- كان شديد الوضوح في إدراك هذه المعاني والحقائق وتقريرها.

ومن ذلك أنه كتب فصولاً موسعة في موضوع الدعوة ومنهجها، والموقف من المجتمعات المعاصِرة، وكتب ذلك بعاطفة مشبوبة، ولغة قوية، وغَيرة على الدين وعلى المسلمين. حمّلها بعض قارئيه ما لا تحتمل من المعاني واللوازم، وتعاملوا معها على أنها نصوص تقرأ بحروفها وألفاظها وتُحفظ وتُتلى، ويُستشهد بها في مواطن النزاع، ومضايق الجدل والمناظرة والخصام.

وبنى بعض هؤلاء على هذه القراءة الحرفية الضيقة تكفير الناس كافة، أو التوقف بشأنهم أو الهجرة من ديارهم، إلى أين؟! لا أدري!

وبنى آخرون عليها فكرة الانفصال عن المجتمعات، وترك العمل فيها، واعتزالها، وفُهمت كلمة سيد -رحمه الله- عن (العزلة الشعورية) بتكثيف قوي، وترميز شديد، جعلَها بؤرة العمل والانطلاق.

والحق أن القراءة الحرفية الظاهرية لتراث كاتب ما، ليست أمراً خاصاً وقع مع سيد قطب -رحمه الله- وحده ، لكنها مُشْكلة تراثية، يعاد إنتاجها الآن مع عدد كبير من رموز العلم والفقه والدعوة والاجتهاد، من المتقدمين والمعاصرين.

وقد يكتب العالم بحثاً، أو يقدم اجتهاداً، أو ينتحل رأياً في مسألة، وينتصر له بحسب ما توفر لديه آنذاك، فيأتي الخالفون فيقرؤون نصه بقدسية تأسر عقولهم، وتجعل همهم مقصوراً على إدراك النص وفهمه، ثم تقريره وتوسيع دائرته، ثم الاستشهاد له ومدافعة خصومه.

ولذلك لا يدري كل أحد، أن الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية وغير الفقهية، لم يكونوا يشعرون أنهم يؤسسون مذهباً، ويقيمون بناءً خاصاً، راسخ القواعد، مكتمل الأركان، حتى جاء مَن بعدهم فأصّل وفصّل، وجمع النظير إلى النظير وتعامل مع كلام الأئمة بحَرْفية بالغة، بل عدّ بعضهم كلام الإمام ككلام الشارع، من جهة المنطوق والمفهوم، واللازم، والقياس عليه، والناسخ والمنسوخ، والظاهر والنص... إلخ.

هذا مع شدة نهي العلماء عن التقليد، حتى إن منهم مَن كان ينهَى عن تدوين آرائه الفقهية، ويحذّر من تناقلها. وكلما كان العالم أوسع انتشاراً، وأكثر أتْباعاً، وأوغل في الرمزية -لأي سبب- كان الأمر بالنسبة له أشد، وكانت المشكلة أظهر، لكنها تخفّ تدريجياً بتقدم الزمن، ولو من بعض الوجوه.

هذه ليست مشكلة العالِم أو المفكر، بقدر ما هي مشكلة القارئ أو المتلقي. وأياً ما كانت فهي مما يحتاج إلى بحث ودراسة.

وقديماً كان علي رضي الله عنه يقول قولته المشهورة: «يهلك فيّ رجلان: غالٍ وجافٍ».

والخلاصة:

أن سيد قطب وغيره من أهل العلم يُؤخَذ من قولهم ويُترك، ويصيبون ويخطئون، ويُردون ويُردَ عليهم، وهم -إن شاء الله- بين أجر وأجرَين، ولئن حُرموا أجر المصيب في عشر مسائل، أو مائة مسألة فلعلهم -بإذن الله- ألّا يُحرموا أجر المجتهد.

أبو البراء محمود عيسى

فك الله أسره*

أحسن القصص

مع أن قصص الكيد والمؤامرة وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. إلا أن سورة يوسف اختصت بعرض نماذج متميزة متنوعة من هذا النوع من القصص مجموعة كلها في قصة واحدة هي قصة يوسف عليه السلام. وقدمت لنا في ذلك عرضاً خاصاً شيّقاً ممتعاً. ويجدر بنا ونحن ندرس المؤامرة في القرآن الكريم أن نفرد لها مساحة مناسبة للبحث والدراسة، فنستقي العبرة والموعظة الحسنة.

---

* أبو البراء محمود موسى عيسى، أسير فلسطيني وقائد ميداني، أسس أول فرقة خاصة في كتائب القسام لتحرير الأسرى، حكم عليه الاحتلال الصهيوني بالسجن ٣ مؤبدات و٤٩ سنة، وهو باحث ومؤلف وداعية.

مصدر المقال: كتابه: نظرية المؤامرة في القرآن الكريم، ط١ (مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠١٥م)، ص١٩١وما بعدها.

لكنا سنستبق ذلك كتوطئة بالحديث أولاً عن سمات القصص القرآني وطبيعته الخاصة، فالقصص القرآني له سمته الخاصة وأسلوبه المتميز الذي لا يمكن لأي قاص أو روائي مهما بلغ من قدرة وخبرة وتجربة ومهما أوتي من بلاغة وفصاحة وحصافة، أن يجاريه أو يدانيه أو يأتي بشيء من مثله.

وقد أطلق الله عز وجل على القصص القرآني صفة أحسن القصص واختار مطلع سورة يوسف لإعلان هذه الصفة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وأن يأتي بعد هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] يشير بوضوح إلى وجود رابط بين قصة يوسف وأحسن القصص، وبأنها تحتل مرتبة الصدارة في القصص القرآني؛ فما الذي يميز القصص القرآني عن سائر القصص والحكايا؟ وما الذي يميز قصة يوسف عن غيرها من قصص القرآن؟

جاء في تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، أن العلماء اختلفوا لمَ سُميت سورة يوسف أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل لأنه ليس هناك قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمنه هذه القصة. وبيانه قوله عز وجل في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١].

وقيل: سماها «أحسن القصص» لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم -بعد الالتقاء بهم- عن ذكر ما تعاطوه وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢][1].

وهنا سنقدّم عرضاً لعناصر القصة التي حدّدها أرباب هذه الصناعة الأدبية. ونقابلها بما يميز القصص القرآني ويفرده عن غيره.

أولاً: الفكرة

تُعرف القصة بأنها عرض لفكرة مرّت بخاطر الكاتب، أو تسجيل صورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره. أو كل أولئك مجتمعين؛ فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه. وإذا كانت القصة صورة للحياة الإنسانية فإن قيمتها تُقاس بكمية ودرجة الحياة التي تعرضها، ومردّ ذلك كله إلى الإمتاع؛ فمتى كانت القصة ممتعة كانت مقبولة، وإلا ضاعت قيمتها وإن عالجت تجارب خطيرة وحوادث هامة[2].

لكن القصص القرآني: قول حق وصدق لا باطل فيه ولا أساطير ولا أوهام: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. ومع ذلك فإنه يحتفظ

---

١ الجامع لأحكام القرآن، ٩/٨٠.

٢ كيف تكتب القصة، د. عبد العزيز شرف، ص٢٠.

بعنصر التشويق قوياً.. من خلال ترك مساحات واسعة للتفكير والتحليل ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وتبقى هذه المساحة مفتوحة تتداولها الأجيال عبر الأزمان مع التفكر والتبحر فيها دون أن تنقطع عجائبها أو ينضب معينها.

«والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد، يملؤها تخيل القارئ وتصوّره، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال، مع ما في هذا من تشويق وإمتاع»[٣].

فيا سبحان الله! بلاغة وإعجاز القصص القرآني بقوله الحق والصدق. وقوة وجمال القصص الذي يكتبه بشر تكون بقدر ما يحتويه من خيال وأسطورة ومبالغة، بمعنى: بقدر ما يحتويه من باطل! فهل يستويان مثلاً؟!

ثانياً: الشخصيات

ويعرّفونها بقولهم: «إنها الفرد المعيّن الذي يشتمل على مميزات خاصة به تميّزه عن غيره، سواء كانت داخلية أو خارجية. أو هي بعبارة أخرى: مجموعة المكوّنات الداخلية والسلوك الخارجي الواضح الذي يميز كل فرد عن الآخر»[٤].

---

٣ سيد قطب، في ظلال القرآن، ص١٩٦٢، ط ١٥، ١٩٨٨، دار الشروق/ القاهرة.

٤ كيف تكتب القصة، د. عبد العزيز شرف، ص٣٦.

يقول الشهيد سيد قطب في هذا السياق في معرض تفسيره لسورة يوسف عليه السلام: «ومع استيفاء القصة لكل ملامح الواقعية السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية، وفي كل موقف، وفي كل خلجة، فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة»[٥].

ويصف صاحب الظلال عرض القرآن الكريم لشخصية يوسف عليه السلام قائلاً: «ويوسف العبد الصالح -الإنسان- لم يزوّر الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة. وهو يواجه الفتنة بكل بشريته مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه- تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها.. إنها شخصية موحدة متكاملة بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها»[٦].

إن الشخصيات في القصص القرآني تعرض أيضاً بطريقة متميزة.. فهي تقدم للقارئ -للتعرف عليها- بأفعالها ومواقفها لا بأسمائها وصفاتها.. والمتتبع للقصص القرآني والمتبحر فيه يجد معظم الشخصيات قد أسقط عن قصد ذكر اسمها. وقدمت بنسبة أبرز فعل أو موقف لها. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ١٥].

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣].

---

٥ في ظلال القرآن، سيد قطب، ص١٩٥٢.

٦ في ظلال القرآن، سيد قطب، ص١٩٥٤-١٩٥٧.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣].

والحكمة من وراء ذلك أن هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يعرض علينا قصص السابقين للعبرة والموعظة الحسنة: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِى قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١]. فيخلد ويمجد الأفعال والمواقف لا الأسماء والأشخاص، الأمر الذي ييسر على القارئ أن يستقي الحكمة والعبرة من القصة؛ فيُعمل العقل ليحكم على الأقوال والأفعال والأحداث، ولا ينجرف وينحرف بعاطفته ومشاعره وراء أسماء وصفات.

إن أي روائي أو قاص يمتلك قدراً معقولاً من الخبرة والمعرفة والتجربة، يمكنه بكل بساطة أن يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، ويجعل القراء يتعاطفون مع الشخص السيئ المسيء، وينفرون وينقمون من الشخص الصالح المستقيم! فتعالى الله عن ذلك.

ثالثاً: العُقدة

ويعرفونها بأنها سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج فيعمد الكاتب إلى سوق الأحداث بطريقة ذكية، كي يفاجئ -في لحظة الحسم عندما تقترب النهاية- القارئ بحدث درامي بارز غير متوقع، وبالقدر الذي تحتفظ فيه الحبكة أو العقدة للقصة بعنصر التشويق والإثارة، وتدفع

القارئ -متسلحة بحب الاستطلاع- لمواصلة القراءة، رغبةً في معرفة ما ستنتهي إليه الحكاية.. فإن عنصر التشويق هذا سرعان ما يفقد فاعليته وتأثيره مباشرة بعد كشفه، فتقل رغبة القارئ في معاودة قراءة القصة مرة أخرى، وإن فعل ذلك فلا يكون بالحماسة السابقة نفسها، ثم ما يلبث أن يسيطر عليه الملل والسآمة حتى وإن كانت تلك القصة مشوقة مؤثرة محبوكة على أفضل نحو.

أما العُقدة في القصص القرآني فإن السياق يأتي بها بشكل طبيعي تلقائي دون أدنى تكلّف أو تصنع، يقول سيد رحمه الله في هذا السياق: «وما يُسمَّى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف؛ فهي تبدأ بالرؤيا لما سبق ويظل تأويلها مجهولاً، ينكشف قليلاً قليلاً حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلاً طبيعياً لا تعمّل فيه واصطناع».

رابعاً: الحوار والسرد

عنصر من عناصر القصة الحيوية، يقوم بدور كبير في تقديم الشخصيات ورسم صورة توضح طبائعها وأبعادها النفسية والاجتماعية والأخلاقية. إن قمة البلاغة وما يمثل الإعجاز في القصص القرآني هو بلاغة الإيجاز، أقل كلمات توصل للقارئ أو السامع أوسع المعاني وأجمل الصور وأبلغ الحكم.

انظر إلى الإعجاز والإبداع وبلاغة الإيجاز في قوله ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ و﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ و﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ و﴿هَيْتَ لَكَ﴾ و﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ و﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ و﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ و﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ و﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ و﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ و﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ وغير ذلك الكثير الكثير.

وانظر إلى جمال الإيجاز وعذوبته وبلاغته في السرد والحوار في قصة يوسف، عندما يعرض السياق حادثة مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ * وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٨].

إن هذه الأسطر المعدودة حملت من الأحداث والمعاني والصور الجمالية والوصف الدقيق، ما يعجز أبلغ الأدباء وأفصحهم عن عرض بعض من مثله في عشرات الصفحات!

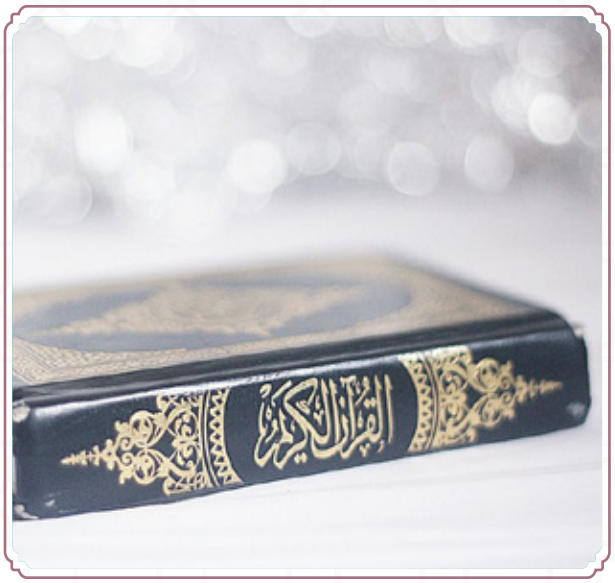

ونقتبس بعضاً مما كتبه الشهيد سيد قطب في معرض حديثه عن «السرد» في قصة يوسف عليه السلام حيث يقول: «والواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع على هذا المستوى الرائع. ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد

والعرض، وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها، وفي بيئتها وملابساتها.. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها، وتجيء في الصورة المتوقعة لها، وتجيء في مكانها من مسرح العرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها، وطبيعة جريان الحياة بها[٧].

خامساً: الشكل والمضمون

اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته[٨].

إن من كمال القصص القرآني وجمال بلاغته تَميزه بمحافظته على التوازن بين الشكل والمضمون، وتقديم كل منها بأجمل وأبهى صورة، فيما لا يزال أرباب (صناعة القصة) يختلفون فيما بينهم أيهما أولى بالاهتمام والعناية، وأيهما يقدَّم على الآخر اللفظ أم المعنى؟ وهذا يؤكد أن كمال جمال الشكل وتمام المعنى لا يمكن أن يجتمع لأحد منهم.. فالقارئ لأي قصة لابد أن يلحظ غلبة أحد الطرفين على الآخر؛ فإما أن تكون ذات شكل جميل ومضمون ضعيف أو تكون عكس ذلك. وهذا لا ينفي وجود قصص تحمل شيئاً من الاتزان بين الشكل والمضمون. لكن هذا الاتزان أبداً لا يكون كاملاً، ولا يتأتى للكاتب المحافظة عليه -بذات المستوى- في سائر مواضع القصة ومقاطعها، ولا بد لعين الناقد الأديب أن تلحظ هذا التفاوت وتُظهره، وتحدد مواطنه.

---

٧ في ظلال القرآن، ١٩٥٩.

٨ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١/١٢٤، تحقيق: محمد محي الدين طه ١٩٨١م، دار الجيل.

كتب ابن القيم كلاماً من أجمل ما كُتب في وصف بلاغة القرآن وإعجازه، نقتطف منه هذه الشذرات: «قرآناً لا يسأم منه تاليه مع تكراره وتواليه، ولا يمله واعيه بل تتوفر على توقيره دواعيه في كل حين، تظهر فيه من قضايا التنزيل وخفايا التأويل من نتائج أفكار الخلق غير ما جاءت به فِطَن السلف، كل حرف منه تتفجر به ينابيع من الحكمة، وكل كلمة تمطر منها سحائب الرضوان والرحمة، وكل آية تحتوي على بحار من الإعجار زواجر، وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الأوائل والأواخر»[٩].

والأجمل من هذا والأبلغ ما ورد في وصف القرآن بأنه لا يَخلَق من كثرة الردّ، ولا تنقضي عِبره ولا تفنى عجائبه، وهو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، وهو الذي لم تلبث الجن حين سمعتْه أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١].

سورة يوسف

لسورة يوسف عليه السلام مكانة خاصة في قلوبنا نحن الأسرى، فإنَّنا نجدها دائماً مؤنسة وحدتنا ومسريّة همنا، وشاحذة همتنا، ومقوية عزيمتنا، وباعثة الأمل في نفوسنا..

كلما اشتدت علينا محنة السجن وعظمت في نفوسنا همومنا، وضاقت بنا زنازيننا فوق ضيقها، وأظلمت في عيوننا فوق ظلامها، لتصبح ظلمات بعضها فوق بعض! لجأنا إليها، نرتلها..

فتطيب نفوسنا، وتنشرح صدورنا، وتنتشي أرواحنا، ونتفكر في معانيها، فتهيم عقولنا، وتتحرر من قيود السجن والسجان، وتحلّق في سماء الحرية.

---

٩ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الفوائد المشوقة في علوم القرآن وعلم البيان، ص١٤، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن.

قسّام البرغوثي

فك الله أسره*

قصّة الأسير
قسّام البرغوثي

كُنتُ جالِساً تَحتَ الشّجرةِ، وجدت أمامي فَجأةً سعيد!

مِن المُؤكّد أنّ وُجودَهُ لَيسَ صُدفة.. لم أكُن فِعلاً عَرفتُ بِتحرّره، تَعانَقنا، كَم كُنتُ أفتَقِدُ مِثلَ هذا العِناق، حاولتُ أن أُبرّر لَه عَدَم تَهنِئتي لهُ بالإفراجِ بمُبرّراتٍ كتلكَ الّتي يُقدّمها مَن لا يُريدونَ اللقاء بي.. لكنّهُ ضَحِكَ وسألني ساخراً: ألهذه الدّرجة تَخافُ مِن عَمّتي؟

---

* بين لثامٍ ولثام.. قصّة الأسير قسّام البرغوثي، موقع إلكتروني: صامدون، سبتمبر ٢٠٢٢م.

علِمتُ أنّه عَرِفَ تفاصيلَ القِصّة كلها.. رُحتُ أَحكي لَه عَن مُعاناتي وعمّا حلّ بي.. اعتَذَرَ لي ووعَدَني بأن تُحلّ وأنّنا سَنتدبّرُ أُمورنا.. آه كَم افتقدت تِلكَ الثّقةَ وكَم افتقدت شَخصاً أستَطيعُ أَن أبوحَ لَه دونَ تَحفّظ ودونَ أن يَفهَمَ الأُمورَ خطأً مَهما تحايَلتُ بالكَلِمات.. شَعرتُ أنّه فَهِمَ كُلّ حرفٍ مِن حُروفِ مُعاناتي ووعَدَني أن يَجمعني بِعمّه حُسام ليفَهّمني الصورةَ كاملة.

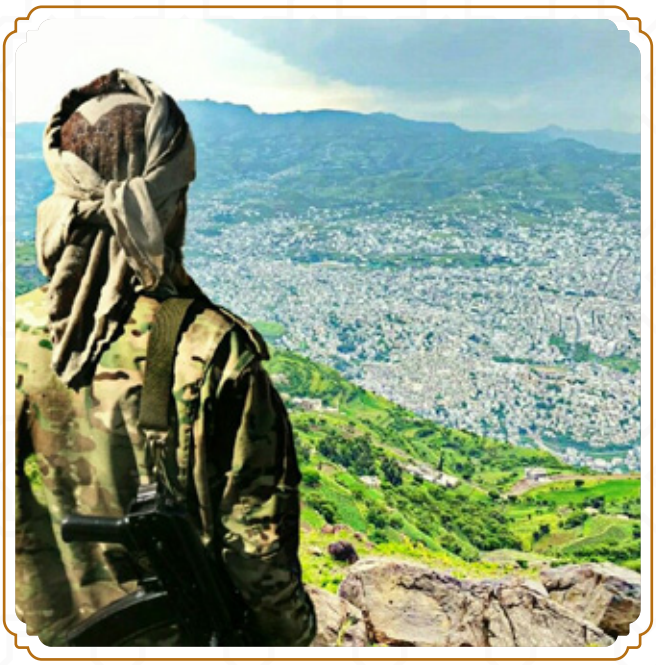

مرّ عامٌ عَلى ذلِكَ اليوم، هَمام قَد امتَزجَ كُليّاً بالطّبيعة.. عامٌ كامِلٌ يَجولُ في شعابِ الجِبالِ والوِديان.. فبُندقيّتُهُ الّتي طالما حَلِمَ بِها مُعلّقةٌ عَلى كَتِفِه.. عَرَفَ قساوةَ العَيش، عَرفَ طَعمَ الشّوق لأمّهِ وشَقيقَتِه.. محاولاتُ رُؤيتِهما كادَت أن تُؤدّي لِقَتلِه واصطيادِه مِثل غزالٍ برّي.. بِمنظارِ بُندُقيّتِهِ رآهما مَرّةً واحدة، وكُلّ مُحاولاتِهِ بَعدَها باءت بالفَشَل، فابتَعَدَ عَن قَريَتِهِ كُلّها والجِبالَ الّتي عَطّرتهُ بالزّعتَر البرّي وغَسلَتهُ بِماءِ عُيونِها، فهُوَ قَد بَدَأَ بِطريقِ العَودَة، يسيرُ أيّاماً قَد اعتادَ عَلى مِثلِها خِلالَ العام، لكنّهُ لَم يَسِر تَحتَ شَمسِ آب الحارِقة، كانَ يَتجنّبُ ساعاتِ الظّهيرة ويَسيرُ مُعظَمَ الوَقت..

بَعدَ مَسيرِ يومَين تبقّى للمكانِ الّذي يَقصِدُهُ نِصفُ ساعةٍ تَقريباً.. صوّبَ بُندُقيّتَهُ وحَدّقَ مِن مِنظارِها قَليلاً، ثُمّ قَرّرَ الانتِظار.. سارَ نَحوَ شَجرةِ صَبر، شمسُ الصّباحِ لَم تَكُن قَد اجتازَت الجَبَلَ الّذي يَقِفُ عَلَيهِ بَعد.. بَحَثَ عَن شيءٍ يَقطِفُ بِهِ الصّبر.. قَطَفَ عِدّةَ أكوازٍ كَنَسَها بِمِكنَسةٍ[1] صَنَعَها مِن القَشّ

اليابِس.. شَرَبَ جُرعةً مِن الماء، أخرَجَ سِكّينَهُ، غَرَزَها فِي لوحِ صَبرٍ عِدّةَ مَرّات لِيُنَظّفها مِن الدّم.. حَدّقَ مِن المِنظارِ مَرّةً أُخرى، وَضَعَ بُندِقيّتَهُ جانِباً ثُمّ بَدَأَ بِتَقشيرِ الصّبر، مَع طَعمِ الحَبّةِ الأولى تَذَكّرَ المَوقفَ كُلّه، راحَ يَمضَغُ حَبّاتِ الصّبر ويَغوصُ في تِلكَ الذّاكِرةِ الّتي لا تَنسى حَتّى أدقَ التَفاصيل.

جلستُ أنتَظِرُ حُسام، اغتَنَمتُ الوَقتَ لأن أملأ مَعِدَتي بالصّبر، وجلستُ أتَذَكّرُ لقاءاتي بِه، لكن اللقاء الأخير لَم يُبارِح ذاكِرَتي وقد كانَ فاصِلاً في حَياتي، يا لِصَراحَتِكَ يا حُسام، تِلكَ الصّراحةُ الممزوجةُ بالألَم، أيَجعَلُ الألَمُ الإنسانَ صَريحاً إلى هذا الحد؟ رُحتُ أتَذَكّرُ ذلك اللقاء.

يمشي حُسام بِصمتٍ أمامي، يَقتَرِبُ مِن سِلسِلةٍ حَجَريّةٍ ويُزيلُ حَجَراً مِنها وتَبدو فجوةٌ وراءَ ذلكَ الحَجَر الّذي يُشَكّلُ باباً لِمَخبإٍ لا يخطُرُ عَلى بَالِ أحد، تناولَ علبةً وسكّيناً، تَبَقّى أشياء أخرى، قُلتُ في نَفسي عِندما رأيتُ ذلك المَخبأ أنّه يُبدي ذلك الحِرصَ على أصغَرِ أشيائِهِ وأبسطَها، فكيفَ يكونُ حِرصُهُ عَلى أعزّ شيءٍ على قَلبِه، على سِلاحِه؟ وكيفَ لي أن أجِدَه؟ كُنتُ في اللقاءاتِ السّابقةِ قَد كسرتُ عِدّةَ حواجِزٍ في عَلاقَتِنا، وشَعَرتُ أنّ الوقتَ طالَ وعَلَيّ أن أتجَرّأ، فبادرته:

---

١ لأنه يتم بمكنسة مصنوعة من القش تنظيف أكواز الصبار من الشوك في القرية يسمى تكنيس.

عمّ، أريدُ سِلاحاً.

تجاهَلَني، أو ربّما لَم يَسمَع، فكرّرتُ ما قُلتُه ...

عمّ، عمّ ... أُريدُ سِلاحاً.

التَفتَ إليّ بسُرعَةٍ ووَضَعَ سَبّابَتَهُ على فَمي ليُسكِتَني، وسألَني بالإشارَةِ عَن هاتِفي،

فقلتُ إنّني لَم أُحضِره.. فَقَد كانَ دائِماً قَبلَ أن يبدَأَ بأيّ حَديثٍ يُبعِدُ الهواتِفَ عَن المَكان الّذي نَجلِسُ فيه.. حينَها ابتَسَمَ وسَألَني:

من أينَ لي بالسّلاح؟ إنّ لديكَ سِلاحاً! ضحِكَ هذهِ المَرّة بطَريقَةٍ غَريبة، شَعرتُ أنّه يَستَصغِرُني على حَملِ السّلاح...صِدقاً، ليسَ لَدَيّ سِلاح، خُذ مِن عَمّكَ سِلاحاً. أعرِفُ أنّ لَدى عَمّي سِلاحاً، لكنّهُ قَطعاً لَن يُعطِيني، فهُوَ يُوبّخُني على ضَربِ الحِجارة، فكيفَ لي أن أطلُبَ سِلاحاً؟ اكتسى وجهُهُ بِملامِحَ غَريبة وقال: كانَ لديّ ... كان ... لكن ...

تَنهّدَ وحَدّقَ بِي وبَدا الحُزنُ على وَجهِهِ واضِحاً، ثُمّ أردَف: راح... سُرِقَ مِنّي مُنذُ سَنوات، أتعْلَمُ حينَ تحرِصُ كُلّ الحِرصِ على أعَزّ شيءٍ لَديك كَي لا يَضيعَ مِنكَ ثُم يَضيع؟ ثُمّ يُسرَق؟ آخ. كَيف؟ دَعكَ مِن ذلك وتَعال... أي كَوز صَبر تُريد؟

أشرتُ على مجموعةٍ من الأكوازِ الحمراءِ الّتي تبدو ناضجةً جدّاً، وضعَ عُلبتَهُ الزّرقاءَ على واحد، قبَضَ عليهِ ولَفّ يدَهُ كأنّهُ يفتحُ باباً بمُفتاح، ثُمّ أخذَ يقطِفُ أكوازاً لا تبدو لي ناضجةً كفاية، جمَعَها في مكانٍ فوقَ التّراب، سألَني وهُو ينظّفُها من الشّوك:

ما أخبارُ عمّك؟ وهَل يُقصّرُ معكَ ومع أُسرتِك؟

حكيتُ لَهُ عن عمّي وعن تعامُلِهِ معَنا وأنّهُ بمثابةِ أبي... إلى آخره.. بدأ بتقشيرِ الصّبر وأعطاني الحبّةَ الأولى، وكانت من الحبّاتِ الّتي قطفَها هُو، طعمُها لذيذٌ جدّاً.. سألني عن طعمِها وقشّرَ واحدةً لَه، بعدَ ذلك قشّرَ الحبّةَ الحمراء الّتي اخترتُها وتناولتُها، فسألَني بعدَ ذلك عن مذاقِها، أجبتُهُ أنّ الأولى كانت ألذّ، فقال: هناكَ أشياءُ تبدو شهيّةً لكنّ طعمَها يكونُ مُرّاً، كالحقيقةِ مثلاً، نبحثُ عنها وتبدو لنا مثلَ هدفٍ شهيّ، لكنّها أحياناً لا تكونُ كذلك.

بانَ لي في صوتِه رجفةٌ كرجفةِ من يشعرُ بالبرد، وشريانٌ ما تضخّم في جبينِهِ لم أرَهُ يوماً بهذا الحجم، وضعَ حبّةً في فمِهِ، وانتظرتُهُ لينقُلَ الفكرةَ الّتي يُريد، فعادَ واسترسَل: يا لضعفِ المثال.. تشبيهٌ هزيل، إنّ الصّبرَ مهما كان فإنّه لن يكونَ مُرّاً.

وكُنتُ كَمن يَستَمعُ لدرسٍ بِلُغَةٍ لا يَفهَمُها أو هكذا بَدوتُ لَه.. صَمَتَ قَليلاً وانفَجَرَ بَعدَ صَمتِه ثُمّ قال: إنّ عَمّكَ قَذِر، إنّهُ لا يُشبِهُ الصّبرَ إلّا في أشواكِه، إنّ أشواكَ عَمّك طَعنَتني وسَرَقَت مِنّي أعزّ ما أملِك.. شَوّهَتني وخَسِرتُ سِلاحي وخَسِرتُ خَطيبَتي وسنواتٍ مِن عُمري وكَرامَتي!

كُنتُ مُتفاجِئاً مِمّا يَقول، فتحتُ عَينَيّ على اتّساعِهِما، بدا انفِعالي واضِحاً.. قال: لا تَنفَعِل.. سأروي لَك.

كُنتُ أعرِفُ أنّ ما سأسمَعُهُ صَعبٌ ومُرّ كالحَقيقة، ومَع ذلكَ ضَبطتُ أعصابي قَدرَ المُستَطاع ليبدَأ بسرَدِ حِكايته.. أدرَكَ أنّني ضَبطتُ أعصابي فَبَدأ بالكَلام:

كُنتُ مِثلَكَ الآن، أبحَثُ عَن بُندُقيّةٍ لَن أحكي لَكَ كَيفَ حَصلتُ عَليها لكنّني كُنتُ سَأموتُ مِن أجلِها.. سَنَواتٌ طَويلَةٌ وهِيَ طِفلَتي المُدلّلة والشّريكة.. كُنتُ أعمَلُ بِمُفرَدي في بِدايَةِ سنواتِ الانتِفاضة، دونَ أن يعلَمَ بِعَمَلي أَحد.. حَتّى لَم يَعُد بِحَوزَتي غَير بِضع رَصاصاتٍ فَقَط.. أصبحتُ بحاجةٍ لِمَن يَمُدّني بالرّصاص.. تَوجّهتُ لسامح، صديقٍ لي، طَلبتُ مِنهُ الرّصاص، أمّن لي عِدّةَ عُلب.. ثُم عَرَضَ عَليّ العَملَ في مَجموعة، وافَقت.

اعتَدَلَ في جَلسَتِهِ ثُمّ استرسَل: كنتُ مُدرّساً، في كُلّ صَفّ تَختَطِفُ رَصاصَةٌ صُهيونيّةٌ تِلميذاً مِن تَلامِذَتي فيَدفَعُني مَنظَرُ المِقعَدِ الفارِغ للقيامِ بِعَمَلٍ ما، مَع رِفاقي أحياناً وأحياناً وحدي. في بدايةِ شَهر آب، قَبلَ الآن بِسَبعِ سَنَوات، أُصِبتُ بِرصاصَةٍ

فِي كَتِفِي الأيْمَن فَمَنَعتني مِن المُشاركَةِ في عَمَلٍ مَع رِفاقي.. كُنتُ أبحَثُ في حَديثِهِ عَن عَمّي، لكنّني لَم أَكُن مُتَشَوّقاً لِتلكَ الحَقيقةِ الواضِحةِ المُرّة الّتي بَدَت لي جَلِيّة، فَقُلت لنفسي سأنتَظِرُ حَتّى يَنتَهي.

قدّمتُ لَهُ سيجارة، تَناوَلَها ثُمّ رَشَفَ رَشفة ماءٍ وأكمَل: نَفّذَ سامِح مَع رفيقٍ آخر عَملاً فِدائيّاً رُبّما سَمِعتَ عَنهُ عِندَ مَدخَلِ المَدينة، وقَعَ خَللٌ ما عِند الانسِحاب، اعتَقَدَ سامِح أنّه قَد انكَشَف، لكنّهُ لَم يَكُن مُتأكّداً، جَاءَ إليّ وخَبّأَ السّلاحَ الّذي نَفّذا بِهِ العَمَليّة عِندي وغادَرَني..

آه.. أينَ أنتَ يا عمّي؟ أينَ أنتَ في كُلّ هذه التّفاصيل؟ أينَ أنتَ في قِصَصِ البُطولَةِ الّتي أسمَعُها؟ وعن أيّ بُطولَةٍ تَروي في ظِلّ هذه البُطولة؟ وكيف سُرِقَت البُندُقيّة؟

خَبّأتُ السّلاحَ بِسُرعَةٍ في مخبَإٍ كُنتُ قَد أعدَدتّه للبُندُقيّةِ قَبلَ أن أحصُلَ عَلَيها.. في تِلكَ اللّيلَةِ حاصَرَت أجهزة أمنِ السّلطة مَنزِلَ سامِح، فبَدَأ عَناصِرُ الأمنِ يَطلُبُونَ عَبرَ مُكبّراتِ الصّوتِ مِن سامِح أن يُسلّمَ نفسَه، وإلّا سيبدأونَ بإطلاقِ النّار.. كان بحوزَةِ سامِح مسدّسٌ لكنّه كانَ يُدرِكُ ويَعي جَيّداً حُرمَةَ الدّم الفَلَسطينيّ ذاتَهُ الّذي تستَبيحُهُ أجهزَةُ أمنِ السّلطة، فسَلّم نفسَه.

أتساءل: أكانَ منزل سامِح أحَدَ أوكارِ تُجّار المُخدّراتِ الّتي اقتَحَمَها عَمّي؟ أكانَ سامِح أحَدَ أولئكَ التّجار؟ وأكمَل: وبعدَ يومَين تَمّ اعتقالي من المَنزِل، وتَمّ اقتيادي للتّحقيقِ في أريحا.. لَن أروي لَكَ الكثير

عَن جولاتِ التّحقيق وعذاباتِها، سأُخبِرُكَ عَن يومٍ واحِد.. في ساعاتِ الظّهيرَةِ الحارِقَة، وقد مَضى على وُجودي في خَزّانٍ حَديديّ مُكعّب ما يُقارِبُ ثلاثَ ساعات، مجرّداً من كُلّ مَلابِسي، أصطَلي بلسعاتِ الحَديدِ الحارِقةَ في كُلّ مَكانٍ مِن جَسَدي.. العَرَقُ الغَزيرُ يَدخُلُ مِلحاً في عَينيّ وجُروحي وحُروقُ السّجائر الّتي طَالَت كُلّ جَسَدي.. لا أقولُ لكَ أنّني لم أدُقّ جُدرانَ الخزّان.. دَقَقتُها وكُلّما دَقَقتُها أُدَقّ على رأسي بِعصاً يُدخِلُها أَحَدُ المُلثّمينَ مِن فَتحةٍ عُلويّة.. تُلقي العُصِيّ بِقدرٍ أكبَرَ مِنَ الهَواء.. فَتَحَ ضابِطٌ مُلثّمٌ بابَ الخزّان، فَكّ قَيدي وأمَرَني بارتداءِ مَلابِسي.. حاوَلَ الهَواءُ عَبثاً تبريدَ جَسَدي من نارِ ذلك الفُرن.. مُحقّقونَ ثلاثةٌ يُغطّي اللثامُ وجوهَهُم وتُغَطّي النّظّاراتُ عُيونَهُم، صَوتُ أحدِهِم يَبدو مألوفاً لي، قال: إنّ القِصّة انتهت وسامح باحَ بكُلّ شَيء.. لَم أُصدّق.. بَعدَ دَقائق أحضَروه..

لَم يكُن سامح الّذي أعرِفُه.. كُلُ شيءٍ فيه أزرَق، وجهُهُ مُتَورّمٌ، أظافِرُهُ مُخلّعةٌ، يَحفُرُ القيدُ رسغَيْهِ المُتَضَخّمَيْن، يجلِسُ على كرسِيّ للمُقعَدين أو على كرسيّ مُتَحَرّك.. اختَلَفَ حالي عن حال سامِح قليلاً.. على الأقل كانَ لي أظافِر، رُبّما لأنّ أصابِعي لَم تُطلِقِ النّار على الاحتِلالِ ذلك اليوم.. طَلَبَ مِنّي سامِح أن أدُلّهُم على مكانِ السّلاح.. قلتُ له: أيّ سلاح؟ فقال أنّني لَم أعرِف شَيئاً عَن العَمَليّة.. فَقَط يُريدونَ السّلاح وليسَ لي علاقةٌ بشَيء، وإن سلّمتُ السّلاحَ سُيفرَجُ عَنّي.. رفضت ذلك وأنكَرتُ وجودَ سلاحٍ لديّ.. أخرَجوا سامِح وبَدأت جولةٌ أُخرى من العَذاب.. استُفِزّ الضابِطُ المُلثّم، وبدأ بِصَفعي بِكُلّ ما أوتيَ مِن قُوّة.. كنتُ أتحاشى الحَديثَ كَي لا أُضرَبُ فَجأةً ولِساني بينَ أسناني.. آه ... ليتَ لِساني قُطِعَ حينها.

أخَذَ حُسام يَرسُمُ خُطوطاً بِعودٍ مِن خَشَبِ اللوزِ على الأرض وأكمَل: بَدَأَ المُحقّقُ بِهزّ جَسَدي بهستيريّةٍ شَعرتُ مَعَها أنّ رأسي مثل عُلبةٍ فيها حجرٌ سيكسِرُها في لَحظَةٍ ما.. كانَ الألمُ لا يُطاق.. ويَصرُخُ في وَجهي ثُمّ يَقول: سَتسقُطُ الثّمارُ مِثلَ شجرةِ التّوت، ويُكمِلُ هَزّ جَسَدي بِقُوّةٍ تُشعِلُ كُلّ آلامِه.. شعرتُ بإصبَعِهِ مَع الهزّ يقتَرِبُ مِن الجُرحِ الّذي خلّفتهُ الإصابةُ ثُمّ يصلُ بإبهامِهِ إلَيه.. ويأخُذُ جَولَةَ هزّ جَديدة.. يضغَطُ بإبهامِهِ على الجُرحِ المُعتَمِلِ الّذي لَم يُعالِجوه.. أشعرُ بألَمٍ حاد ثُمّ بسائلٍ حار يَسيلُ على جَسَدي.. انفقَأَ الجُرح، شَعَرَ المُحقّقُ بحرارةِ السّائِلِ على إصبَعِهِ الّذي تَغلغَلَ في الجُرح.. أبعَدَ القَميصَ فوجَدَ الجُرح.. فجأةً تقيّأ مرةً واحدةً تحتَ لسانِه، رفَعَ لسانَهُ ليندَلِقَ القيءُ عَلَيّ برائحَتِهِ النّتِنة.

صَمتَ حُسام قليلاً ثمّ مَنَعَ نَفسَهُ مِن مُحاوَلَةِ التّقيّؤ.. شَرِبَ حُسام جُرعةً ثُمّ أكمل: اندَلَقَ القَيءُ على وَجهي وجَسَدي وجُرحي، لَم يَكُن كَلامُ المُحَقّقِ أَقَلّ قذارةً مِن القَيء.. عرَفتُ ذلك الوَجه، وجهُ عَمّك.. زادَ انفعالي وسالَت الدّموعُ مِن عَينيّ وعادَ لِرسمِ الخُطوطِ ثُم أكمَلَ حديثَه: اغتَسَلَ وعادَ للتّحقيق.. كَشَفَ وجهَهُ واستَدعى أَحَدَ السّجانينَ وأحضَرَ سامح، قالَ عَمّك: القرارُ بيَدِك، ارحمهُ وسَلّم السّلاح.. أشعَلَ سيجارةً، سَحَبَ مِنها نَفَسَين، ثُم راحَ يَغرِسُها فِي رَقبةِ سامح، راحَ سامح يَصرُخُ بأعلى صَوتِه، يَرجوني أن أُسَلّمَ السّلاح، وقَبلَ أن تَنتَهي السّيجارة الّتي راحَت تَغرِسُ في كُلّ مكانٍ مِن جَسدِ سامح كُنتُ قَد اعترَفت، سَلّمتُ سِلاحَ العَمَليّةِ وبُندقيّتي.. كُنتُ أُحدّقُ في وجوهِ المُلثّمينَ وأقول: آه كيف انتَهت الانتفاضةُ الأولى بمُلثّمينَ لِتُحضِرَ مُلثّمينَ كهؤلاء؟ اللعنةُ على مَن كان السّبب..

وبعدَ أن سَلّمتُ السّلاحَ وتحوّلتُ إلى المحكمةِ لَم تَكُن بندقيّتي ضِمنَ المُستمسَكاتِ فَعرفتُ أنّ عمّكَ قَد سَرَقها.. أُفرِجَ عَنّي واعتَقَلني الاحتلالُ بعدَها، وحُكِمَ عليّ عِدة أعوامٍ وها أنا الآنَ دونَ بُندقيّةٍ ودونَ خطيبةٍ ودونَ وظيفة.

عُدتُ في ذلكَ اليومِ إلى البيت، وَجدتُ عَمي يضحكُ على شيءٍ ما، كيفَ لِمثلِه أنْ يَضحكَ، امتلأتُ حقدًا عليه، كرهتُهُ وكرهت البيتَ كلّه.. كلُّ شيءٍ من حولي استخدمتُه لتعزيزِ كراهيّتي لعمي.. وحينَ يدخلُ إلى المرحاضِ ليقضيَّ حاجتَهُ أقول: إنه الآن يتخلصُ من جزءٍ أصيلٍ من مكوناتِه..

أجدُ ابن عميَّ الصّغيرَ يكسرُ حبةَ لوزٍ ويأكل لُبَّها، يشعرُ بمرارتِها فتتغيرُ ملامحَ وجهه.. يبصقُ عدّةَ مراتٍ فأقول: حينَ يموتُ عمي يجبُ أنْ ندفنَه على مدخلِ القريةِ ونحيطَ قبرَه بأشجارِ اللوزِ المُرِ، وكلُّ شخصٍ يأكلُ يبصِقُ على قبرِه، وحينَ يلعبُ ابنُ عمي الآخرَ على الرملِ يجدُ شيئًا يمسكُهُ بيدِه ويظنُّه كنزًا، يقرّبُهُ ويشمُّ رائحتَهُ يجدهُ برازَ قطة، فأقولُ، إن دُفِنَ عمي وشمَّ رائحتَه أحدُ المارة فإنَّهُ سيشعرُ بشعورِ هذا الطفل..

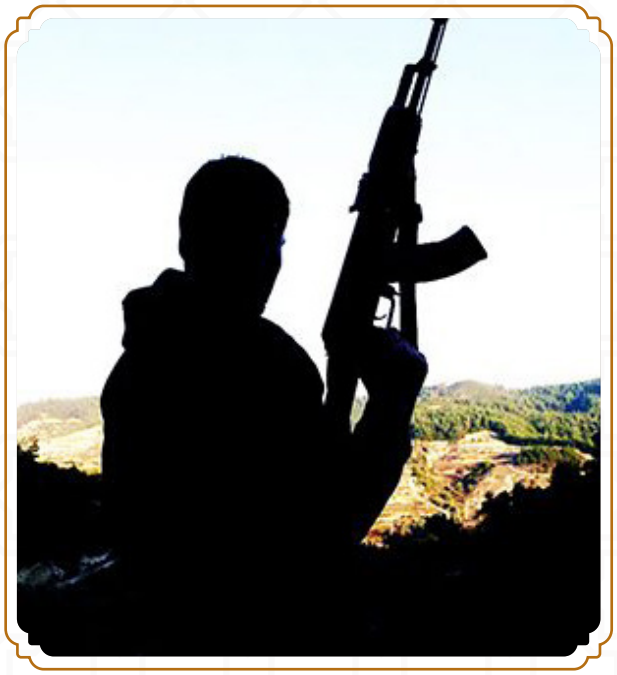

وهكذا مضت الأيام لحين عرفت مكان البندقية، سرقتها وسرقت مسدساً وحقيبة مليئة بالرصاص، وجدني خارجاً، أوقفني أمام الجميع لم أجد مجالاً للحديث، صارحته بقذارته، كان حسام واحداً من العديدين الذين عانوا من قذارته، وقف أمامي ليمنعني من الخروج، التف حولنا جميع من في البيت، أفزعهم صراخه وهو يحكي عن فضله عليّ، صوبت البندقية إلى صدره، نظرت إلى كل العيون

التي توسلت إليّ، أمي وزينة وأبناء عمي وزوجته، تدفقت عيناي بالدموع، لكن أعصابي ظلت مشدودة كأوتار العود، غافلني عمي وأمسك بالبندقية لكنه لم يستطع سحبها، وضعت إصبعي على أمانها، لكنه شدها بسرعة بطريقة جعلت إصبعي يضغط على الزناد، دوت رصاصة نخر عمي صريعاً مثل ثور مذبوح.. لم أجرؤ على النظر بعيون عائلتي فهربت.

نظرتُ من مِنظارِ البُندقيّة، وصَلَ حُسام وبَدَأ بإشعالِ المَوقِد، سِرتُ إلَيهِ حين تأكّدتُ أنّه وَحيد، سمِعتُهُ يُغنّي، اقتربتُ مِنه، تَسلّلت مثل لِصّ هذه المَرّة، وقَفت، عَزمت أن أسمَعَه.. انتَهى من إعدادِ قَهوتِه، تسلّلتُ مِن بَينِ شجرة صَبِر وصَخرة، أصبحتُ خَلفه مباشَرَة، وقفتُ دونَ أن يَنتَبِه، كان يُغَنّي بِصوتٍ مُنخَفِض، يَمرّ سِرب حَمامٍ فَوقه، يَعلو صَوته مُغنّياً:

يا طير يالي في السّما طير علّي

عن مطرح ال في القلب اسأل لي

همّي كبر يا طير صار بحجم تلّة

يصمُتُ قليلاً، يتَناولُ دَلّة القهوة، يَسكُبُ في فنجانه، تَفوحُ رائحتُها اللذيذة فيُكمل غِناءه:

بَشربها مِن كاس الحُزن بَشرَب من الدلّة

ثم يرشُفُ رَشفةً مِن فنجانِه ويُردّد:

آسف يا وَطَن سامِح لِساني

يا ريتو انقَطَع قَبل هالزّلة

ثابِت عالعَهد يا طير باقي

مِثل صخرة على أرضي ومحلي

الخيل الأصيلة كنت

الخيل الأصيلة تظل

الخيل الأصيلة وحدها بتكمّل الرّحلة

شرَب هُمام فِنجانَ قهوةٍ لَم يذُقها مُنذُ عام، أخَذَ حاجَتَهُ من السّجائر والطّعام وذَهَبَ ليندَمِجَ في جبالٍ شَرِبَت روحه وعطّرتهُ بأزهارِها وزعتَرِها البَرّي، حينَ رأيتُهُ يَبتعِدُ، يتقافَزُ فوقَ الصّخور، تذكّرتُ عَمّه، تذكّرتُ جُرحي وبندُقيّتي الّتي حَصَد بها هُمام عَدداً مِن الصّهاينة.

فقلت: إنّ عَمّهُ مِثل قَيحٍ على يدٍ تَحملُ السّلاحَ وهو تِلكَ اليد، فكانَ لا بُدّ لهذا الدّملِ أن يفقأ كَي تُطلقَ البُندُقيّة نارها.

انتهت ٢٠٢٢\٨\١١

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾

المنصفون

من تراث غير المسلمين الذين أنصفوا النبي ﷺ

أثر سيد قطب في الصحوة
يوجين روجان
٢٣٠

قطب في ضمير عزام
توماس هيجهامر
٢٤٢

يوجين روجان*

مؤرخ أمريكي

أثر سيد قطب

في الصحوة الإسلامية الحديثة

من السهل أن ننسى كم كان توجه الشرق الأوسط علمانيًا عام ١٩٨١ في ضوء بروز الإسلام حاليًا في الحياة العربية في بقع كثيرة من العالم العربي، ففي جميع دول الخليج العربي -باستثناء الأكثر تحفظًا منها- كانت الأزياء الغربية هي المفضلة على الملابس التقليدية، وكان كثير من الناس يشربون الخمر جهارًا متجاهلين تحريم الإسلام

* يوجين روجان مؤرخ أمريكي بارز، تخصص في تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر، ومن أبرز إنتاجه كتاب: العرب من الفتوحات العثمانية حتى الزمن الحاضر، وكتاب: سقوط العثمانيين: الحرب العظمى في الشرق الأوسط. يوجين روجان، العرب، ترجمة: محمد إبراهيم الجندي، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١١م)، ص٥١٢ وما بعدها.

لها، واختلاط الرجال والنساء بحرية في الأماكن العامة وأماكن العمل، مع حصول المزيد والمزيد من النساء على تعليم عالٍ وانخراطهنّ في الحياة المهنية. ومن وجهة نظر البعض كانت حريات العصر الحديث بمنزلة درجة راقية في التقدم العربي؛ في حين راقب آخرون هذه التطورات بقلق وانزعاج وخوف من أن يؤدي إيقاع التغيير السريع بالعالم العربي إلى هجر ثقافته وقيمه الخاصة.

وللمناقشات الدائرة الآن حول الإسلام والحداثة جذور عميقة في العالم العربي؛ فقد أسس حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ لمكافحة الآثار الغربية وتآكل القيم الإسلامية. وعلى مرّ العقود واجهت الجماعة قمعًا متزايدًا، وحظرها النظام الملكي المصري في ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٨، ثم حظرها نظام جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤. وأثناء الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين دُفعت السياسة الإسلامية للاختباء وانتهاج السرية في جميع أنحاء العالم العربي، وضعفت القيم الإسلامية على يد الدول العلمانية التي استمدت قدوتها إما من الاشتراكية السوفييتية وإما من ديمقراطية السوق الحرة الغربية. غير أن القمع لم يزِد الإخوان المسلمين إلا عزمًا على محاربة العلمانية وتعزيز رؤيتهم الخاصة للقيم الإسلامية.

برز اتجاه راديكالي جديد من جماعة الإخوان المسلمين في الستينيات، بقيادة مفكر مصري بارز ومؤثر يُدعى سيد قطب، واتضح مع الوقت أن قطب هو أحد أكثر الإصلاحيين الإسلاميين تأثيرًا في القرن العشرين.

وُلد سيد قطب في قرية في صعيد مصر عام ١٩٠٦. ثم انتقل إلى القاهرة في العشرينات للدراسة في كلية دار العلوم. وبعد التخرج عمل في وزارة التعليم مدرسًا ومفتشًا، كما كان نشطًا في الأوساط الأدبية في الثلاثينيات والأربعينيات كاتبًا وناقدًا.

تلقى قطب عام ١٩٤٨ منحة دراسية حكومية للدراسة في الولايات المتحدة مدة عامين، وحصل على درجة الماجستير في التربية من كلية المعلمين جامعة نورثن كولورادو، وقضى فترات من دراسته في واشنطن العاصمة وستانفورد بولاية كاليفورنيا، ومع أنه قطع الولايات المتحدة من شرقها إلى غربها فقد خرج من أمريكا دون شعور العشق المألوف لهذا البلد من الطلاب الأجانب. وفي عام ١٩٥١ نشر قطب تأملاته بعنوان «أمريكا من الداخل» في مجلة إسلامية. شجب قطب المادية وغياب القيم الروحية في الولايات المتحدة، وفزع لرؤية ما اعتبره انحلالًا أخلاقيًا وتنافساً هائجاً بلا جماح.

وقد صُدم بشدة عندما وجد تلك الرذائل داخل الكنائس الأمريكية ذاتها. كتب يقول: «لمعظم الكنائس نادٍ يتألف من الجنسين، ويجتهد راعي كل كنيسة أن يلتحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن، وبخاصة أن هناك تنافساً كبيراً بين الكنائس المختلفة المذاهب». ورأى قطب أن هذا السلوك -محاولة جمع الحشود- أكثر ملاءمة لمدير مسرح منه لزعيم روحي.

روى قطب في مقاله كيف أنه حضر في إحدى الليالي قداسًا تبعته رقصة، وفزع عندما رأى المدى الذي وصل إليه القس لجعل قاعة الكنيسة تبدو -على حد قوله- «أكثر رومانتيكية وغرامًا». بل إن القس اختار أغنية شهوانية لتهيئ الجو. ويعبر وصف قطب للأغنية -الذي قال فيه إنها أغنية أمريكية مشهورة اسمها «ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج» - عن الهوة السحيقة التي فصلته عن الثقافة الشعبية الأمريكية. يقول قطب: «الأغنية تتضمن حوارًا بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما، وقد احتجزها الفتى في داره، وهي تدعوه أن يطلق سراحها لتعود إلى دارها فقد أمسى الوقت وأمها تنتظر... وكلما تذرعت

إليه بحجة أجابها بتلك اللازمة: ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج!». ومن الواضح بالطبع أن قطب رأى الأغنية مقيتة، ولكن أكثر ما صدمه هو أن رجل الدين هو من اختار هذا اللحن غير المناسب ليرقص عليه رعايا كنيسته. وليس هناك ما هو أبعد من ذلك عن الدور الاجتماعي للمساجد الإسلامية: التي يُفصل فيها بين الجنسين وتسود فيها قواعد الاحتشام واللياقة في الملبس والسلوك.

عاد سيد قطب إلى مصر مصممًا على تحرير أبناء وطنه من إعجابهم المؤيد للقيم الحديثة التي تجسدها أمريكا. ويحتج قطب بقوله: «أخشى ألا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية في أمريكا وعظمة «الإنسان» الذي يُنشئ هذه الحضارة، وأخشى أن تمضي عجلة الحياة، ويُطوَى سجل الزمن وأمريكا لم تضِف شيئًا -أو لم تضف إلا اليسير الزهيد- إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم التي تميز بين الإنسان والشيء، ثم بين الإنسان والحيوان». لم يكن قطب بذلك راغبًا في تغيير أمريكا، وإنما أراد حماية مصر -والعالم الإسلامي عمومًا- من الانحلال الأخلاقي الذي رآه في أمريكا.

وبعد وقت قصير من عودته من الولايات المتحدة انضم سيد قطب للإخوان المسلمين عام ١٩٥٢. وبسبب خبرته في مجال النشر عُين رئيسًا لمكتب النشر الخاص بالجماعة. واكتسب المفكر الإسلامي المتحمس قاعدة عريضة من القراء من خلال مقالاته التحريضية المثيرة. وبعد قيام ثورة عام ١٩٥٢ في مصر تمتع قطب بعلاقات طيبة مع الضباط الأحرار. ويقال إن عبد الناصر دعا

قطب لصياغة دستور الحزب الجديد؛ (هيئة التحرير). والمرجح أن عبد الناصر لم يفعل ذلك بدافع إعجابه بالمصلح الإسلامي بقدر ما كان محاولة محسوبة للاستفادة من دعم قطب للحزب الرسمي الجديد الذي كان من المفترض أن تذوب فيه جميع الأحزاب السياسية الأخرى.. بما فيها جماعة الإخوان المسلمين.

غير أن مودة النظام الجديد تجاه الإخوان المسلمين لم تدُم طويلًا؛ إذ اعتُقل سيد قطب أثناء الحملة الشاملة التي شنّها النظام على الجماعة بعد أن حاول أحد أفرادها اغتيال عبد الناصر في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٤. وقال قطب -ككثيرين غيره من أعضاء جماعة الإخوان- إنه تعرض لتعذيب واستجواب رهيبَين أثناء فترة اعتقاله، وحُكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا مع الأشغال الشاقة بتهمة ممارسة نشاط هدام. استمر قطب في إلهام إخوانه من أصحاب التوجهات الإسلامية من داخل السجن؛ إذ اقتصر حبسه معظم الوقت -بسبب صحته المعتلة- على جناح مستشفى السجن. وهناك كتب بعض أكثر الأعمال تأثيرًا في القرن العشرين عن الإسلام والسياسة، ومن بينها تفسير ضخم للقرآن الكريم، ودعوة واضحة لإقامة مجتمع إسلامي حقيقي في كتاب بعنوان (معالم في الطريق).

يمثل كتاب (معالم في الطريق) ذروة آراء سيد قطب حول إفلاس المادية الغربية واستبداد القومية العربية العلمانية. واحتج قطب بأن النظم الاجتماعية والسياسية التي تُعرّف العصر الحديث هي من صنع الإنسان، وأنها فشلت لهذا السبب بالتحديد. وبدلاً من

أن تبدأ هذه النظم عصرًا جديدًا من العلم والمعرفة أدت إلى الجهل بالهدى الرباني أو «الجاهلية». وتتمتع تلك الكلمة -«الجاهلية»- بصدى خاص في الإسلام؛ لأنها تشير إلى عصور الظلام التي سبقت ظهور الإسلام.

وقال قطب إن جاهلية القرن العشرين تأخذ صورة «ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة». ويعني هذا ضمنيًا أن التطورات الهائلة في العلوم والتكنولوجيا في القرن العشرين لم تؤد بالإنسانية إلى عصر حديث؛ وإنما أدى هجر البشرية لرسالة الله الخالدة إلى تراجع المجتمع الإنساني إلى القرن السابع الميلادي.

وآمن قطب أن هذا ينطبق على الغرب غير المسلم تمامًا كما ينطبق على العالم العربي الإسلامي. وزعم أن نتيجة ذلك هي الطغيان؛ فالأنظمة العربية لم تجلب لمواطنيها الحرية وحقوق الإنسان، وإنما جلبت لهم القمع والتعذيب؛ وهو ما أدركه قطب من واقع تجربة شخصية مؤلمة.

آمن قطب بأن الإسلام -باعتباره المنهج الأمثل للنظام الذي وضعه الله للبشرية- هو السبيل الوحيد لحرية الإنسان، وهو نظرية تحرير حقيقية؛ وبناء عليه فإن القوانين الوحيدة الصالحة والمشروعة هي التي وضعها الله على النحو المنصوص عليه في الشريعة الإسلامية. وآمن كذلك بالحاجة إلى طليعة إسلامية «لكي يؤدي الإسلام دوره في قيادة البشرية». على أن تستخدم تلك الطليعة «الدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات» وتستخدم «القوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك

التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبّدهم لغير ربهم الجليل». على حد قوله. كتب قطب كتابه هذا إرشادًا للطليعة التي ستقود عملية إحياء القيم الإسلامية، والتي من خلالها سيحقق المسلمون مرة أخرى الحرية الشخصية وريادة العالم.

تكمن قوة رسالة قطب في بساطتها ووضوحها وصراحتها. لقد حدّد المشكلة -الجاهلية- وقدم حلًا إسلاميًا واضحًا راسخًا في القيم التي يعتنقها بشدة كثير من المسلمين العرب. رأى قطب أن انتقاداته تنطبق على القوى الإمبريالية وعلى الحكومات العربية الاستبدادية بنفس القدر. وكانت استجابته هي رسالة أمل قائمة على افتراض علو وتفوق المسلمين. إذ قال: «وتبتدل الأحوال ويقف المسلم الموقوف المغلوب المجرد من القوة المادية؛ فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى. وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً. ويستيقن أنها فترة وتمضي. وأن للإيمان كرّة لا مفر منها. وهيْها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأسًا. إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد. وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار».

وبالرغم من مقت قطب الشديد للقوى الإمبريالية الغربية فقد كان هدفه الأول دائمًا هو الأنظمة المستبدة في العالم العربي، خاصة حكومة عبد الناصر. ففي تفسيره لآيات القرآن التي تتحدث عن أصحاب الأخدود.. رسَم قطب صورة رمزية مستترة للصراع بين الإخوان المسلمين والضباط الأحرار. في القصة القرآنية حُكم على طائفة من المؤمنين بالموت بسبب إيمانهم، وأُحرقوا أحياء على يد طغاة اجتمعوا

يشهدون موت ضحاياهم المؤمنين الصالحين. يقول الله في القرآن الكريم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ...﴾ (البروج: ٦:١). ويقول قطب في تعليقه على الآيات إن المستبدين -وهم «جبلات جاحدة شريرة لئيمة» على حد تعبيره- قعدوا يشهدون عذاب وآلام الشهداء بتلذذ سادي مقيت.

لحظة إعدام محمد فرغلي

يقول قطب: «وكلما ألقي فتى أو فتاة، صبية أو عجوز، طفل أو شيخ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء». وتلك مشاهد تصويرية غائبة في القصة القرآنية، ولكنها ربما كانت مستوحاة من تجارب قطب الشخصية وتجارب أصحابه من جماعة الإخوان المسلمين على أيدي جلاديهم في السجن. وختم قطب تعليقه قائلاً إن المعركة «في صميمها معركة عقيدة، إما كفر وإما إيمان، إما جاهلية وإما إسلام». وكانت رسالة قطب واضحة: الحكومة المصرية لا تتفق مع رؤيته للدولة الإسلامية، ولا سبيل لوجود الاثنتين معاً.

أُطلق سراح سيد قطب من السجن عام ١٩٦٤؛ وهو نفس العام الذي نَشر فيه كتاب **(معالم في الطريق)**، وسارع قطب إلى إعادة الاتصال برفاقه من جماعة الإخوان المسلمين المحظورة وقد تعزز موقفه بفضل كتاباته في السجن. غير أن قطب كان لا بد أن يعرف أن الشرطة السرية لنظام عبد الناصر تتابع كل حركاته؛ فقد اكتسب الكاتب الإسلامي صيتًا ذائعًا وشهرة عريضة في أنحاء العالم الإسلامي بفضل أفكاره الراديكالية مما جعله يشكل خطراً على الدولة المصرية في الداخل والخارج.

ورواجه أتباع قطب نفس المراقبة والمخاطر التي واجهها هو نفسه. كانت زينب الغزالي (١٩١٧-٢٠٠٥) إحدى تلميذات قطب الأكثر تأثيراً، وهي رائدة الحركة النسائية الإسلامية. أسست زينب الغزالي - وهي بعدُ في العشرينات من عمرها- جمعية السيدات المسلمات. وجذبت أنشطتها اهتمام حسن البنا - مؤسس جماعة الإخوان المسلمين- الذي حاول إقناعها بالانضمام والتعاون مع فروع الأخوات المسلمات التي أسسها مؤخراً. وبرغم أن الحركتين النسائيتين اتخذتا مسارين منفصلين فقد أصبحت زينب الغزالي إحدى التابعات المخلصات لحسن البنا.

في الخمسينيات التقت زينب الغزالي شقيقات المفكر السجين سيد قطب، وأعطينها مسودات فصول من كتاب (معالم في الطريق) قبل نشر الكتاب. وكرست زينب نفسها لتكون إحدى أفراد الطليعة التي تَصورها سيد قطب في بيانه -مسترشدة بما قرأته- لإعداد المجتمع المصري لاعتناق الشريعة الإسلامية. وتماماً كما قضى النبي محمد ثلاث عشرة سنة في مكة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة لتأسيس أول مجتمع إسلامي، حدد أتباع سيد قطب ثلاث عشرة سنة لتحويل المجتمع المصري ككل إلى مجتمع إسلامي مثالي.

كتبت زينب الغزالي تقول: «كان فيما قررناه.. أنه بعد مضي ثلاثة عشر عاماً من التربية الإسلامية للشباب والشيوخ والنساء والفتيات، نقوم بمسح شامل في الدولة، فإذا وجدنا أن الحصاد من أتباع الدعوة الإسلامية المعتقدين بأن الإسلام دين ودولة، والمقتنعين بقيام الحكم الإسلامي قد بلغ ٧٥% من أفراد الأمة.. نادينا بقيام الدولة الإسلامية».

وإذا أظهرت نتائج المسح مستوى أقل من التأييد، فإن زينب وزملاءها سيعملون مدة ثلاثة عشر عامًا أخرى في محاولة لتحويل المجتمع المصري. كان الهدف على المدى البعيد طموحًا، ويصل إلى حد الإطاحة بنظام الضباط الأحرار واستبدال دولة إسلامية حقيقية به. وعزم عبد الناصر وحكومته على إزالة التهديد الإسلامي قبل أن يحظى بأي قبول أو يحقق أي تقدم.

أطلقت السلطات المصرية سراح سيد قطب من السجن نهاية عام ١٩٦٤ بعد أن أمضى فيه عقدًا من الزمن، واحتفلت زينب الغزالي وأنصار قطب الآخرون بإطلاق سراحه، والتقوا به كثيرًا تحت رقابة الشرطة المصرية اليقظة. واعتقد كثيرون أن إطلاق سراح قطب لم يحدث إلا ليقود السلطات إلى الإسلاميين الذين يشاركونه نفس الآراء والأفكار. وفي أغسطس/آب ١٩٦٥ -أي بعد ثمانية أشهر فحسب من الحرية- أعيد اعتقال قطب. ومعه زينب الغزالي وجميع شركائهما. ووُجهت لهم تهمة التآمر لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر والإطاحة بالحكومة المصرية. ومع أن هدفهم بعيد الأجل كان بالفعل استبدال نظام إسلامي بالحكومة المصرية، فقد أصر المتهمون على أنهم أبرياء من أي مؤامرة على حياة الرئيس.

قضت زينب الغزالي السنوات الست التالية في السجن، وكتبت في وقت لاحقاً قصة محنتها وعذابها، واصفة فظاعات التعذيب التي تعرض لها الإسلاميون -رجالاً ونساءً على حد سواء- على يد

الدولة الناصرية. عوملت زينب بالعنف منذ أول أيامها في السجن، وتقول: «شاهدت في صمت -وأنا لا أكاد أصدق ما تراه عيني ولا أتقبل هذه الوحشية- أفراداً من الإخوان المسلمين معلقين على الأعواد والسياط تلهب أجسادهم العارية، وبعضهم سلطت عليه الكلاب الضالة لتمزق جسده بعد التعذيب. وبعضهم يقف ووجهه إلى الحائط في انتظار دوره من التعذيب والتنكيل».

ولم تنجُ زينب الغزالي من هذه الفظائع، فقد تعرضت للجلد والضرب وهجمات الكلاب والحرمان من النوم وتهديدات متكررة بالقتل. كل ذلك في محاولة عابثة للحصول على اعتراف يدين سيد قطب وغيره من قادة الإخوان المسلمين بالتورط في المؤامرة المزعومة. وعندما انضمت سيدتان اعتقلتا حديثًا لمشاركة زينب الغزالي زنزانتها -بعد أن عانت التعذيب ثمانية عشر يوماً- لم تستطع أن تعبر لهما عن الفظائع التي تعرضت لها، واكتفت بأن قرأت عليهما آيات أصحاب الأخدود. وعند سماع الآيات بدأت إحداهما تبكي في صمت، وسألت الأخرى غير مصدقة: «أيمكن أن يحدث هذا مع النساء؟».

بدأت محاكمة سيد قطب وأتباعه في أبريل/نيسان ١٩٦٦. وإجمالًا اتُّهم ثلاثة وأربعون من الإسلاميين -من بينهم سيد قطب وزينب الغزالي- رسميًا بالتآمر ضد الدولة المصرية. واستخدم ممثلو الادعاء كتابات قطب كدليل إدانة، واتهموهم بالتشجيع على الإطاحة بالحكومة المصرية باستخدام

أثناء محاكمة زينب الغزالي وحميدة قطب

العنف. وفي أغسطس/آب ١٩٦٦ أدين سيد قطب واثنان من المتهمين الآخرين، وحكم عليهما بالإعدام، وحُكم على زينب الغزالي بالسجن خمساً وعشرين سنة مع الأشغال الشاقة.

بإعدام سيد قطب لم تحوله السلطات المصرية إلى شهيد للقضية الإسلامية فحسب، وإنما أكدت للكثيرين أيضًا صدق كتاباته وآرائه، التي أصبح تأثيرها بعد موته أكبر وأوسع مما كان عليه أثناء حياته. أُعيد طبع وتوزيع تفسير سيد قطب للقرآن وكتاب (معالم في الطريق) - الذي يعد دستوره الخاص للعمل السياسي- في جميع أنحاء العالم الإسلامي، واشتعل حماس جيل جديد - نضج وشب عن الطوق في الستينيات والسبعينيات- بفضل رسالة سيد قطب حول الصحوة الإسلامية والعدالة. وكرّس أفراد هذا الجيل أنفسهم لتحقيق رؤية قطب بكل الوسائل الممكنة، سلمية كانت أو عنيفة.

توماس هيجهامر[1]
باحث أمني في الحركات الجهادية

سيد قطب
في ضمير عبد الله عزام

بعد تخرجه في دمشق عام ١٩٦٦، عاد عبد الله عزام إلى عمله مدرساً في برقين، وواصل أداء دور فعال بين الإخوان في جنين. لقد كان هذا في وقت تصاعدت فيه التوترات بين اليساريين والإسلاميين في فلسطين وغيرها. كان لحادثة محددة، في آذار/مارس عام ١٩٦٧، تأثير كبير في عزام؛ في أثناء مظاهرة مؤيدة لجمال عبد الناصر في جنين، دخل رجل إلى مركز «الإخوان المسلمين»

١ توماس هيجهامر واحد من أهم الباحثين الغربيين في مجال الحركات الإسلامية، ولذا فهو مستشار أمني لعدد من الدول، وله العديد من الكتب عن الحركات الجهادية، من أبرزها كتابه عن الشيخ عبد الله عزام، والذي نقلنا منه هذا الفصل.
توماس هيجهامر، القافلة: عبد الله عزام وصعود الجهاد العالمي، ترجمة: عبيدة عامر، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٢١م)، ص٨٩ وما بعدها.

ومزّق الكتب الدينية وألقاها في الشارع، كان عزام هناك ليرى الكتب الممزقة تطير في شوارع جنين، ولقد كانت هذه الحادثة هي الأولى من بين تجارب سيئة عديدة مر بها مع اليساريين على مدى أعوام.

تسارع تنسيق عزام في عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ بشكل أكبر إثر الأحداث السياسية في مصر، عندما واجه فرع الإخوان الأم حملة قمع كبيرة ووحشية على يد الرئيس عبد الناصر، بعد ادعاء كشف محاولة انقلاب إسلامي في عام ١٩٦٥، توجهت الحكومة المصرية إلى اعتقال الآلاف من أعضاء الإخوان المشتبه بهم والتحقيق معهم بشكل وحشي. بلغت الحملة أوجها في نهاية آب/أغسطس من عام ١٩٦٦ بمحاكمة ثلاث شخصيات إخوانية بارزة وإعدامها، من بينها المنظر البارز سيد قطب.

هزت إعدام قطب عزاماً، وربما حفزت لديه أول نشاط في المعارضة السياسية وكان برقية احتجاج للحكومة المصرية. كتب عزام لاحقاً: «أذكر أني كتبت برقية لعبد الناصر أقول فيها: الدعوة لن تموت والشهداء خالدون والتاريخ لا يرحم»، ووصف الحادثة بمزيد من التفصيل لاحقاً:

«كتبت برقية عاجلة ووجهتها إلى جمال عبد الناصر حيث أرسلتْها عبر بريد القرية، خلاصتها التهديد والوعيد لعبد الناصر وأن التاريخ لا يرحم، إلا أن مسؤول بريد القرية أرجعها لي حرصاً عليّ، فكتبتها مرة أخرى تحت اسم مستعار وأرسلتها، ولا أدري هل وصلت أم لا».

بحسب عزام، لم تمر هذه الحادثة من دون أن تلحظها السلطات الأردنية: «المخابرات أرسلوا إلى مدير البريد، مدير البريد صاحبي. قالوا له: من هذا؟ قال لهم: هذا شخص أرسلها، قالوا: نحن رجعنا إلى سجل القرية لا يوجد اسمه في السيلة (التي أنا منها)، لا يوجد هذا الاسم فيها. لا بد أن أذكر الاسم: محمد سالم عدنان ... وما وُضع اسمي في المطابع [على قائمة منع السفر]».

لم ترد واقعة البرقية في مصادر أخرى، لكن لا يوجد مجال كبير للشك في أن عزاماً كان غاضباً عند بلوغه خبر إعدام قطب.

ومما فاقم الأمر سوءاً أن الكثير من اليساريين، كما يقال، احتفلوا بإعدام سيد قطب الذي اعتبروه رجعياً خطيراً، بحسب كاتب إسلامي فلسطيني، فبعض الناس في نابلس، كما قيل، وزعوا الحلوى المحلية الكنافة احتفالاً بالواقعة. في برقين، في الثانوية التي كان عزام يدرس فيها، أعطى أحد الأساتذة حلويات للأطفال احتفالاً بالإعدام. لقد أغضب هذا عزاماً، وكان على زملائه الآخرين التدخل لشجب المشاجرة.

قطبي

كان عزام غاضباً لأن سيد قطب كان إلهامه الرئيس، في وقت ما في الثمانينات، قال عزام: «والحق أني ما تأثرت بكاتب كاتب الفكر الإسلامي أكثر مما تأثرت بسيد قطب، وإني لأشعر بفضل الله العظيم عليّ إذ شرح صدري وفتح قلبي لدراسة كتب سيد قطب، فقد وجهني سيد قطب فكرياً، وابن تيمية عقدياً، وابن القيم روحياً، والنووي فقهياً، فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثراً عميقاً».

وللتأكيد، فقد أشاد عزام بكُتاب من «الإخوان المسلمين»، كذلك، فكأي «أخ مسلم» صالح، قرأ حسن البنا بحماسة واحتفى به في كتابات لاحقة، قالت زوجته إنه في منتصف الستينيات كان من أهم مطالعاته كتب الشهيد حسن البنا، لقد تأثر في الستينيات بمحمد قطب، شقيق سيد، إضافة إلى السوري مصطفى السباعي والمصري يوسف القرضاوي، لكن سيد قطب احتل مكاناً خاصاً في عالم عزام الفكري.

بدأ عزام بقراءة قطب في وقت متأخر نسبياً، عام ١٩٦٥، نتيجة التغطية الإعلامية لإعدامه في ذلك العام، إلا أنه أصبح معجباً به بقية حياته، وتأثير قطب الأيديولوجي ظاهر في عدد كبير من كتابات عزام الذي قال لاحقاً إنه عندما قرأ كتاب سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، للمرة الأولى في عام ١٩٦٥، اعتقد أن قطباً كان «يعيش في الأحلام». وبعد خمسين عاماً تقريباً، وبعد أن بدأت الحركة الإسلامية تجتاح المنطقة، غيّر عزام رأيه وكتب كتاباً عنوانه: الإسلام ومستقبل البشرية (١٩٨٠)، في إشارة واضحة إلى قطب.

لم يكن عزام بالطبع وحده معجباً بسيد قطب، هذا المعلم ضعيف البنية من الريف المصري كتب سلسلة من الكتب في الخمسينيات والستينيات ستجعله أحد أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيراً في العصر الحديث، إذ أثرت أفكاره، حول المجتمعات المسلمة التي تعيش في الجاهلية والحاجة إلى تأسيس دولة إسلامية قائمة على الحاكمية، في أجيال من الإسلاميين داخل مصر وخارجها، وجعله سجنه الذي استمر عقداً كاملاً، وتعذيبه وأخيراً إعدامه على يد نظام عبد الناصر، شهيداً ورمزاً قوياً لمقاومة الاستبداد.

وكذلك كان لدى قطب حياة مثيرة بل ومأساوية؛ لقد ولد عام ١٩٠٦ في قرية في محافظة أسيوط لعائلة من ملاك الأراضي المتدينين والمثقفين سياسياً، كان والده نشيطاً في حزب مصطفى كامل: «الحزب الوطني»، وعقد اجتماعات في منزل العائلة (ربما وكنتيجة لذلك، ثلاثة من أشقاء سيد الأربعة - محمد وأمينة وحميدة - أصبحوا ناشطين بارزين في الإخوان). تم تشجيع سيد على أن يحفظ القرآن في وقت مبكر، لكنه وصل إلى قناعة أن التعليم الديني متخلف. في عامه الثالث عشر، انتقل مع عائلته إلى القاهرة، حيث تطور شغفه بالأدب والشعر، ودرس لاحقاً في «مدرسة المعلمين»، عمل أولاً كمعلم (منذ عام ١٩٣٣ حتى ١٩٤٠)، ثم كموظف في وزارة التعليم. في تلك الفترة كتب الكثير من الأعمال الروائية والشعرية والنقد الأدبي. بعد عام ١٩٤٥ أصبحت كتاباته أكثر سياسية، لكنه كان ما زال قومياً أكثر منه إسلامياً.

عام ١٩٤٨، أرسلته الوزارة إلى الولايات المتحدة ليدرس التعليم، وقضى عامين في «كلية ولاية كولورادو للتعليم» في غريلي، تجول قطب في الولايات المتحدة وزار أوروبا في أثناء عودته إلى البلاد؛ فعمقت مواجهته مع ما اعتبره ثقافة غربية ميتة اقتناعه بأن الإسلام قدم نموذجاً مجتمعياً متفوقاً.

في كتابه: أمريكا التي رأيت (١٩٥١)، قدم قائمة طويلة من الاعتراضات حول المجتمع الأمريكي، من ماديته وممارساته الجنسية غير الشرعية وعنصريته، إلى السينما الضحلة والممارسات غير المحترمة في الجنائز وحلاقات الشعر السيئة.

عند عودته إلى القاهرة في عام ١٩٥٠، أخذ وظيفته القديمة في وزارة التعليم، لكنه بدأ يحضر بانتظام حلقات «الإخوان المسلمين»، وبدأ يكتب بشكل واسع عن الإسلام والسياسة. لقد بدأ تحديداً العمل على أعظم إنتاجاته، تفسيره للقرآن ذي الستة مجلدات، والمعنون بـ: في ظلال القرآن، والذي استغرقه عقداً كاملاً لإتمامه. في غضون عام ١٩٥٣، ترك قطب الوزارة وانضم رسمياً إلى "الإخوان المسلمين"، ما خوّله ليصبح مدير تحرير المجلة الأسبوعية للحركة: الإخوان المسلمون.

في منتصف الخمسينات، كان قطب قد أصدر عدة كتب عن الإسلام والسياسة، منها: العدالة الاجتماعية في الإسلام (١٩٤٩)، معركة الإسلام والرأسمالية (١٩٥١)، السلام العالمي والإسلام (١٩٥١)، دراسات إسلامية (١٩٥٣)، والدفعة الأولى من في ظلال القرآن (١٩٥٤). بدءاً من عام ١٩٥١، كان قطب يكتب لمجلات إسلامية، مثل الرسالة، والدعوة، واللواء الجديد.

في بداية الخمسينات، كان الإخوان حركة واسعة الشعبية بمعارضة نشيطة للوجود البريطاني في مصر. تمتع الإخوان بقضية مشتركة مع ما سمي «الضباط الأحرار» الذين سيسقطون الملك المصري عام ١٩٥٢، وكان قطب على تواصل شخصي مع جمال عبد الناصر و«الضباط الأحرار» الآخرين، قبل الثورة وبعدها، إلا أن العلاقات ساءت خلال وقت قليل لأن الحركتين كان لديهما وجهات نظر مختلفة حول دور الإسلام في السياسة.

خلال العقود القليلة التالية، سيعاني الإخوان قمعاً شديداً تحت حكم نظام جمال عبد الناصر. كان هذا بشكل رئيس لأن عبد الناصر قاد نظاماً سلطوياً قمع كل أشكال المعارضة السياسية، ولأنه أيضاً واجه تهديداً أمنياً حقيقياً من عناصر راديكالية داخل الإخوان، وخاصة من الأعضاء السابقين لجناح «النظام الخاص»، التابع للإخوان، والمعروف أكثر باسم «الجهاز السري». كان «الجهاز السري» هو الجناح شبه المسلح للإخوان المسلمين، وتأسس في أواخر الثلاثينات (هناك خلاف حول التاريخ)، وكان نشيطاً تحديداً في نهاية الأربعينات، عندما نفذ عشرات التفجيرات والاغتيالات ضد الشرطة وأهداف بريطانية، كما كان مسؤولاً عن تجنيد المتطوعين من الإخوان وإرسالهم إلى فلسطين في عام ١٩٤٨.

بعد أن تولى حسن الهضيبي منصب المرشد العام عام ١٩٥٠ سعى لحل الوحدة التي اعتبرها عائقاً أمام الحركة، نجح بذلك جزئياً فقط، واستطاعت نسخة سرية منها الاستمرار حتى حلها النهائي في نهاية الستينيات.

لم يكن سيد قطب عضواً في «الجهاز السري»، لكنه كان مصدر إلهام أيديولوجياً مهماً. سيصبح عبد الله عزام لاحقاً صديقاً لبعض الأعضاء السابقين في «الجهاز السري»، وأهمهم كمال السنانيري، وعبد العزيز علي، وصلاح حسن. لم تكن هذه صدفة، لأن عزاماً شارك الأفكار المتشددة والعقلية العسكرية لهؤلاء الرجال.

وكما يفعل الكثير من الأوتوقراطيين، تعامل ناصر مع التهديد من الفرع الهامشي الراديكالي بقمع الحركة كلها. وبدأ قمع الإخوان الجدي في بداية عام ١٩٥٤، عندما حظرت الحكومة المنظمة واعتقلت لوقت قصير الكثير من كوادرها، ومن بينهم قطب. في خريف ذلك العام، بعد محاولة اغتيال لعبد الناصر اتهم بها الإخوان، شهدت الحركة قمعاً شديداً على يد الحكومة التي سجنت قطباً والكثير من الأعضاء. سيقضي قطب الأعوام العشرة التالية في السجن، وسيقاسي تعذيباً وحشياً وفترات طويلة من السجن الانفرادي، كما حدث كذلك التعامل السيء مع الكثير من السجناء، وكان هذا تحديداً في حادثة عام ١٩٥٧، قام بها السجانون، الذين ادعوا أنهم يقمعون أعمال الشغب في السجن، بقتل أكثر من عشرين سجيناً إخوانياً في زنازينهم.

أُطلق سراح قطب في نهاية عام ١٩٤٦، لكن اعتقل مجدداً بعد ثمانية شهور فقط في إطار محاولة الانقلاب المذكورة سابقاً ضد عبد الناصر. بعد محاكمة شكلية حُكم عليه بالإعدام، وتم شنقه في آب/ أغسطس عام ١٩٦٦.

جعلت تجربة السجن قطباً راديكالياً -كما فعلت مع الكثير من الإسلاميين- وجعلته يخلص إلى أن النظام المصري فاسد لدرجة يتعذر معها إصلاحه. في تلك الفترة، كتب أشد نصوصه الثورية وضوحاً؛ ففي عام ١٩٦٤، أصدر كتابه: معالم في الطريق، كتاب وجيز سيصبح من أعظم كلاسيكيات الأدبيات الإسلامية الراديكالية.

لقد كان (المعالم) جوهرياً دعوة إلى التحرك، قال إن المسلمين يجب أن يزيلوا الحكومات التي تسيء استخدام السلطة و«لا تحكم بما أنزل الله». بهذه الطريقة فقط، يمكن أن يخرج المجتمع المسلم من الجاهلية إلى نظام اجتماعي عادل ومزدهر.

لا يوجد وضوح كبير في الكتاب حول المنهج الذي يجب أن يُستخدم في إزالة هذه الحكومات لكنه يقول إنه «لا بد من طليعة تعزم هذه العزيمة»، وأنه حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المعادية فلا بد من إزالتها بالقوة. يحاجج قطب كذلك في أن «[أولئك المهزومون روحياً وعقلياً الذين] يحاولون حصر الجهاد في الإسلام بما يسمونه الحرب الدفاعية» مخطئون، وأن الجهاد ممكن كذلك لتحرير المسلمين من القمع المحلي. ليس من الصعب رؤية كيف يمكن تأويل ذلك كدعوة إلى العنف الثوري.

كانت الدعوة الثورية واحدة من الكثير من سمات إنتاج قطب الأيديولوجي الواسع. لقد كتب كثيراً كذلك عن العقيدة، وعن رؤيته للمجتمع الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية ومكانها في العالم. ولداعمين مثل عبد الله عزام، كانت جاذبية كتابات قطب لا تكمن تحديداً وبشكل كبير في الدعوة إلى السلاح، بل في الرؤية الشمولية التي قدمها، وفي الطريقة المتقنة التي جمع بها الدليل من النصوص الإسلامية والتحليل السياسي المستمر الداعم لحاجته. وفي الوقت نفسه، كانت الروح الثورية للمعالم هي التي ميزت قطباً عن بقية كُتاب «الإخوان المسلمين» الآخرين.

راديكالية قطب وموته لأجل القضية منحته سمعة من «الحدة» افتقدتها شخصيات إسلامية أخرى أكثر براغماتية. هناك الكثير من الكتاب غزيري الإنتاج، والكثير من الناشطين المخاطرين، لكن هناك القلة من الذين يجمعون الأمرين معاً. كان هذا الجمع بين السمات شيئاً سيشارك به عبد الله عزام مع سيد قطب.

كان سيد قطب أحد الشخصيات الإخوانية القيادية القليلة في النصف الثاني من القرن العشرين، والتي لم يحظَ عزام بلقائها. لو لم يكن قطب قد سُجن، لكانت طُرقهم ستتقاطع على الأرجح، لأن قطباً كان على تواصل مع الإخوان الأردنيين. في عام ١٩٥٤، حضر مؤتمراً للإخوان المسلمين، في القدس حيث التقى محمد خليفة، زعيم الإخوان في الأردن؛ وهو نفسه الذي جاء ليزور عزاماً الشاب في السيلة بعد ذلك بفترة قليلة.

ندم عزام بالتأكيد على أنه لم يحظ بفرصة لقاء قطب. عندما انتقل عزام إلى القاهرة عام ١٩٧١، كان من أول الأشياء التي قام بها التواصل مع عائلة قطب، ممثلة بشقيقة سيد: أمينة. عندما خرج محمد، شقيق سيد، من السجن في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧١، التقاه عزام أول ما أتيحت له الفرصة.

في تلك الأثناء، وجد عزام عدة طرائق للاحتفاء بقطب؛ في عام ١٩٦٩، على سبيل المثال، عندما كان يقاتل مع «الفدائيين» في شمال الأردن، كتب مع رفاقة اسم قطب على الصواريخ التي أطلقوها على الأهداف الإسرائيلية. في آب/أغسطس من عام ١٩٧٠، احتفلوا بالذكرى الثالثة لإعدام قطب بإطلاق ما سموه «عملية سيد قطب» ضد دورية دبابات إسرائيلية متجولة.

كتب عزام كذلك مقالات تحتفي بقطب وأفكاره بعد موته بكثير. في عام ١٩٨١، على سبيل المثال، كتب عزام مقالة في مجلة المجتمع يدافع فيها بشدة عن قطب بوجه الاتهام -الذي وجهه ناصر الدين الألباني- في مقالة سابقة بأن قطباً كان متأثراً بالصوفية. في خريف عام ١٩٨٦، كتب عزام رثاء متوقداً لقطب في مجلة الجهاد في الذكرى العشرين لإعدامه. ثم كتب عزام بعدها سيرة قصيرة لقطب. بعد ذلك، جمع أتباع عزام هذه النصوص الثلاثة في مخطوطة واحدة ونشروها بعد وفاته في كتاب عنوانه: عملاق الفكر الإسلامي (الشهيد سيد قطب).

التأثير القطبي حاضر في عدد من كتابات عزام ومحاضراته. إنه يظهر تحديداً وبشكل بارز في كتابات عزام قبل أفغانستان، مثل: الإسلام ومستقبل البشرية، والسرطان الأحمر. وفي الثمانينيات، سجل عزام سلسلة محاضرات مدتها ٤٠ ساعة بعنوان: في ظلال سورة التوبة؛ لتفسير سورة التوبة. لم يكن العنوان والمعنى يمثلان صدى لكتاب قطب: في ظلال القرآن فحسب، بل اعتمد قطب بشدة على تحليل قطب للسورة نفسها. الأمر الذي لا يقل أهمية عن الاقتباسات والإشارات هو التأثير القطبي الجوهري الذي يمكن أن نراه في تفكير عزام: وجهة نظر عزام عن الإسلام كنموذج اجتماعي كامل وحضارة متفوقة، وانهماكه بالتشريع الإسلامي، وتوجهه تجاه الأنظمة العربية.. كلها تمثل صدى لقطب.

لقد استخدم كذلك المصطلحات القطبية، مثل الجاهلية والحاكمية بشكل واسع، وفي الحقيقة، وبعد موت عزام، كتب مؤلف إسلامي كتاباً كاملاً اسمه: مفهوم الحاكمية في فكر عبد الله عزام. كذلك استشهد عزام بقطب كثيراً في محاضراته، وشجع الطلاب على قراءته. في مخيمات التدريب في أفغانستان، كان يحث المتدربين على أن يقرؤوا في ظلال القرآن لمدة نصف ساعة بعد صلاة الفجر.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

مساحة خاصة لمقالات قراء المجلة الكرام

قراءة نبوية لمسيرة المقاومة ٢٥٤
علي جاد المولى

طوفان الأقصى تدبير رباني ٢٦٦
رضوان كسابي

من أراد المشاركة بمقال فليراسلنا على هذا البريد ansarunaby@gmail.com

علي جاد المولى

كاتب مصري

من حصار مكة إلى فتح خيبر

قراءة نبوية لمسيرة المقاومة الفلسطينية

السيرة لا تُروى... بل تُستعاد

ما يحدث في فلسطين ليس مجرد مقاومة.. وما يجري في غزة ليس مجرد معركة. إنها لحظة من لحظات الاصطفاء التاريخي، يُختبر فيها صدق الثوابت، وتُكشَف فيها زيف التحالفات، ويُعاد فيها رسمُ خرائط المنطقة لا بالحبر ولا بالخطابات، بل بالدماء والصبر والمعرفة.

ورغم أنّ سُحب الإعلام تمطر علينا سيلًا من الإحصاءات والأشلاء، إلا أنَّ قلوبَ المؤمنين لا تنظر إلى الصور بعيون المتفرجين، بل تقرأ المشهد كمن يتذكّر، لا كمن يكتشف.

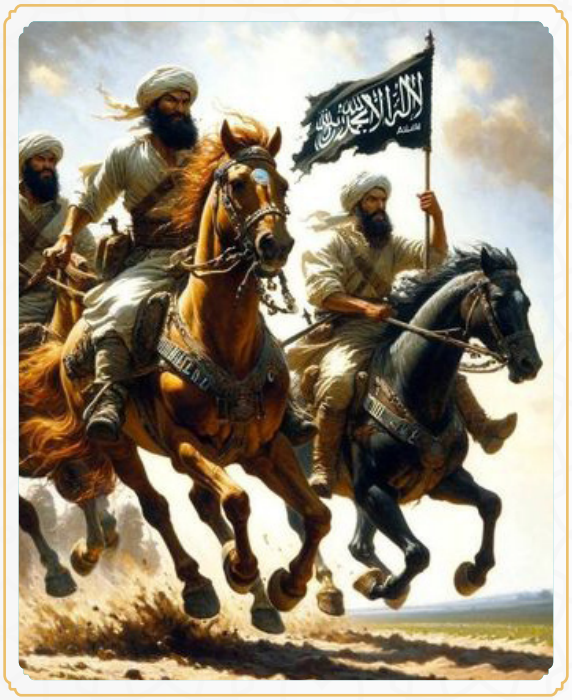

ليس هذا أول حصار... وليست هذه أول خيانة.. وليست هذه الدماء الطاهرة النقيّة أول دماء تُسال على بوابة مدينة ننتظر فتحها.

لقد مررنا بهذا الطريق من قبل. خطاه رجل كان يحمل الوحي، وسار فيه رجال تركوا خلفهم كل شيء لتكون كلمة الله هي العليا. وفي ظلال ذلك المسار النبوي، كتب الله سننًا لا تتبدل، وربط الأسباب بمسبباتها، وأخفى النصر في طيّات الحكمة لا في ضجيج اللحظة.

دعنا نقرأ معًا السيرة، لا لنُسلّي أنفسنا في زمن الألم، بل لنستخرج منها ما يمكن أن يغيّر مجرى الأحداث، إن نحن أحسنا الفهم وأخلصنا النية.

سنرى كيف أنّ كل منعطف مرّ به النبي ﷺ، قد ترك وراءه ضوءًا يدلّنا على طريق النصر. وسنكتشف كيف أنّ المقاومة في فلسطين -بكل فصائلها وجراحها وتضحياتها- لم تكن في فراغ، بل كانت تسير على طريقٍ يُشبه طريق النبوة... وإن اختلفت التضاريس.

هذا المقال ليس للتاريخ... بل للمستقبل.

الحصار... ليس دائمًا البداية

من السهل أن يُسقِط البعض حصار غزة الحالي على حصار الشِعب في مكة، لكنّ مثل هذا الإسقاط يُبسّط التاريخ ويُشوّه الواقع.

حصار مكة كان في بدايات الدعوة، قبل قيام الدولة، حين لم يكن للمسلمين جيش ولا موطئ قدم ثابت، بينما غزة اليوم تُمثّل كيانًا صلبًا، له مشروع واضح، وسلاح نوعي، وامتداد إقليمي لا يُستهان به.

ثم إنّ حصار اليوم، رغم فظاعته، ليس الأول من نوعه ولا حتى حصار ٢٠٠٦، بل تعرّضت غزّة لسلسلة من الحصارات منذ نكبة ١٩٤٨، واجتياح ١٩٥٦، واحتلال ١٩٦٧، واستمر الحصار بأشكال متعددة طوال عقود. لذلك، فإن المرحلة التي تشبه حصار الشعب، هي تلك التي سبقت نشوء المقاومة المنظمة، قبل أن تتبلور الفصائل، وتتشكل بنية المشروع المقاوم كما نعرفه اليوم.

أمّا ما نراه في غزة الآن فأشبه بمراحل ما بعد تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، حين أصبح للنبي ﷺ سلطة سياسية ونفوذ عسكري وتحالفات إقليمية تحمي الظهر وتُعزّز المسار. لقد تجاوزت غزة، ومعها مشروع المقاومة، مرحلة البدايات منذ زمن.

نحن أمام كيان محاصر نعم، لكنه لم يعد في موقع ردّ الفعل فقط، بل يملك القدرة على المبادرة، ويُعيد تشكيل المعادلات.

وباختصار: لم يعد الحصار في فلسطين إشارة إلى الضعف، بل إلى عناد المشروع الصهيوني في مواجهة حقيقة أنّ عدوّه لم يعد جماعة... بل دولة قيد الترسيم، وشوكة يصعب اقتلاعها.

من العقبة إلى الانتفاضة... البيعة تتجدد

في لحظةٍ مفصلية من عمر الدعوة، تجاوز النبي ﷺ حالة الحصار والملاحقة، فمدّ بصره إلى خارج مكة باحثًا عن موطن جديد تُزرع فيه بذور الدولة. فجاء اللقاء التاريخي في العقبة، حيث بايعه نخبة من أهل يثرب، لا على الإسلام فقط، بل على الحماية والنصرة والجهاد.

- كانت بيعة العقبة إعلانًا خفيًا بنقل المشروع الإسلامي من طور الدعوة إلى طور التمكين.
- لم تكن بيعة العقبة مجرد موقف فردي عاطفي، بل اتفاقًا سياسيًا مكتمل الأركان: أرضٌ آمنة، رجال يحملون السلاح، عهدٌ على الطاعة، واستعدادٌ للمواجهة. ومن رحم هذه البيعة وُلدت دولة المدينة.

وعبر العقود، شهدت فلسطين محطات تشبه في معناها تلك البيعة النبوية، حين انتقلت المقاومة من مجرد حالة غضب شعبي إلى مشروع تحرر واضح المعالم.

● كانت الانتفاضة الأولى (١٩٨٧) بمثابة لحظة الانعطاف الكبرى، حيث خرجت فلسطين من أسر الجمود السياسي إلى شوارع الغضب والدم، وكانت ولادة حقيقية لحركات المقاومة الإسلامية، وعلى رأسها حماس والجهاد، إلى جانب تطور جديد في خطاب فصائل منظمة التحرير.

● ثم جاءت الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠) لتؤكد أن البيعة الشعبية للمقاومة لا تزال تتجدّد، هذه المرة بالدم والسلاح والعمليات الاستشهادية. وهنا لم تعد فصائل المقاومة جماعات معزولة، بل حركة شعبية مؤسَّسة، تحمل مشروعًا، وتُعيد تعريف العلاقة مع الاحتلال: **لا تفاوض تحت النار، ولا سلام يُفرض تحت البندقية.**

البيعة في السيرة كانت نقطة تحوّل نحو إقامة الدولة، والانتفاضات الفلسطينية -رغم اختلاف ظروفها- جسّدت الروح ذاتها: لحظة إجماع شعبي على خيار المواجهة، مهما كانت التضحيات.

ولأنّ البيعة لا تصحّ إلا مع الاستعداد لتحمّل تبعاتها، فقد تبعتها الهجرة في السيرة، وتبعتها سنوات من الحصار والمعارك في غزة... وكلتاهما كانت تمهيدًا للدولة، لا تراجعًا عنها.

الهجرة... ليست فراراً من المعركة بل انتقالاً إليها

حين هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، لم يكن فارًا من بطش قريش، بل كان يتحرّك بوعي سياسي واستراتيجي، ينتقل فيه المشروع الإسلامي من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمركز. فالهجرة لم تكن هروبًا، بل تحوّلًا مدروسًا في موقع المواجهة.

في المدينة، بدأ التأسيس: بناء الدولة، تشكيل الجبهة الداخلية، صياغة العقود الاجتماعية مع مكونات المدينة، إعداد الجيش، وترسيخ قواعد الحكم النبوي. لقد دخل الإسلام طور السيادة، رغم تواضع الإمكانات.

وهذا المعنى العميق للهجرة لا بد أن نُعيد فهمه عند النظر إلى ما جرى في غزة.

فحين وصلت **حركة حماس** إلى الحكم عام ٢٠٠٦، ثم فُرض عليها حصار خانق بعد ذلك، ظنّ كثيرون أنّ المشروع المقاوم قد دخل نفقًا مظلمًا. لكن ما حدث فعليًا كان أشبه ما يكون بتحوّل الهجرة: تأسيس لقاعدة صلبة، وسط حصار مطبق، لا على الهامش بل في قلب الأرض المحتلة.

ومنذ تلك اللحظة، باتت غزة أشبه بالمدينة النبوية في السنوات الأولى. مدينةٌ محاصَرة، مهدَّدة من الخارج، لكنها تبني ذاتها من الداخل، وتعيد ترتيب أولوياتها على مهل، وسط عاصفة من المؤامرات والخنق الممنهج.

ومثلما لم تُعلن المدينة استسلامها تحت الضغط، لم تُفرّط غزة في مشروعها، بل أعادت صياغته بوعي سياسي مرن، ومراكمة مستمرة للقوة. لسنا هنا لنفرق بين فصيل وآخر، فكل جهة قاتلت على طريقتها، وساهمت في حماية هذا الكيان المحاصر من التآكل أو السقوط.

الهجرة لم تكن انسحابًا... بل تأسيسًا. وغزة لم تكن عُزلة... بل جبهة متقدمة. ومن استوعب معنى الهجرة النبوية، أدرك أنّ التحوّلات الكبرى تبدأ من مواقع تبدو في ظاهرها مُحاصرة، لكنها في باطنها مراكز انطلاق لمعارك أكبر.

الغزوات... حين يكون السيف حارسًا للبناء

حين استقر النبي ﷺ في المدينة، لم يُلقِ سلاحه، ولم ينتظر أن يأتي الخطر إلى بابه. بل بدأ مرحلة جديدة في إدارة الصراع: مرحلة تُبنى فيها الدولة وتُحمى في الوقت نفسه. فالغزوات لم تكن نزوات حرب، بل سياجًا يحمي مشروع التوحيد من السقوط قبل اكتماله.

- غزوة بدر لم تكن انتقامًا، بل ضرورة لردع العدو وإثبات الحضور.
- أحد كانت اختبارًا للصف الداخلي.
- الخندق أثبتت أنّ الحصار قد يتحوّل إلى نقطة قوة إن أحسنّا التحصين.
- وما بين كل غزوة وأخرى، كان البناء مستمرًّا: تشريعٌ، وتعليم، وإعداد.

وهذا تمامًا ما فعلته المقاومة الفلسطينية في العقود الماضية. فمنذ بداية الانتفاضة، والمشروع المقاوم يتحرك على مسارين متوازيين: **السلاح والعقل**. لم تكن العمليات الاستشهادية لحظة انفعال، بل جزءًا من معادلة ردع أرادت أن تُعلّم الاحتلال ثمن بقائه. **ثم جاءت مراحل أكثر تنظيمًا:**

- معركة الفرقان (٢٠٠٨) أعادت تعريف مفهوم الصمود.

- حرب (٢٠١٢) أثبتت تطور السلاح المقاوم.

- العصف المأكول (٢٠١٤) كانت بدرًا جديدة، حين كُسر التفوّق الجوي الصهيوني لأول مرة، وخرجت غزة من الحرب واقفة، على الرغم من الحصار والنار.

ولم تكن حماس وحدها هناك.

شاركتها سرايا القدس، وكتائب أبو علي مصطفى، وألوية الناصر صلاح الدين، وكتائب الأقصى، وغيرهم من أبناء فلسطين الذين قاتلوا دون رايات حزبية، بل تحت لواء الوطن والمبدأ.

- ثم توالت المعارك: سيف القدس (٢٠٢١) تجاوزت حدود غزة فلم تُدافع فيها غزة عن نفسها فقط، بل عن القدس والأقصى.

- طوفان الأقصى (٢٠٢٣) تجاوزت فيها المقاومة الدفاع إلى المبادرة، والردع إلى الإنزال، فاهتزّ كيان العدو كله، سياسيًا وعسكريًا وشعبيًا.

وهكذا، كما كانت غزوات النبي ﷺ حافظةً للدولة، رافعةً لمعنويات الأمة، كاشفةً لنفاق المنافقين، كانت معارك المقاومة الفلسطينية حارسةً للهوية، ومُربِكةً لحسابات العدو، ومُؤكدةً أن هذا الشعب لم يُخلق لينكسر.

في السيرة، لم يكن السيف غاية، بل وسيلة لحماية المسيرة.

وفي فلسطين، لم يكن القتال مشروعًا منفصلًا، بل ركنًا من مشروع التحرير الكامل، لا يُمكن عزله عن البناء السياسي والإداري والاجتماعي، حتى تحت النار.

الحديبية... حين اعترف العدو بالدولة

ربما لم تهزّ غزوةٌ وجدان الصحابة كما فعل صلح الحديبية. كان ظاهرُهُ تنازلًا، وكان وقعه في النفوس كالغُصّة. فالجيش عاد من أطراف مكة دون عمرة، والبنود في ظاهرها تُجامل قريش، وتُقيد حرية المسلمين. حتى عمر رضي الله عنه لم يحتملها، وقال للنبي ﷺ: «ألسنا على الحق؟».

لكنّ الفتح لم يكن دائمًا بالسيف، والنصر لا يُقاس فقط بمشاعر اللحظة.

الحديبية، في جوهرها، كانت إعلانًا رسميًا بأن دولة الإسلام قد أصبحت رقمًا سياسيًا.

لقد جلست قريش – رغم عدائها وتكبّرها – إلى طاولة مفاوضات، لا مع رجل مطارد، بل مع رئيس دولة. كان هذا إقراراً منهم بأنّ المدينة لم تعد ظاهرة صوتية، بل كيانًا سياسيًا لا يمكن تجاهله.

وهذا المعنى، بكل عمقه السياسي، نجده يتكرّر أمام أعيننا في فلسطين، ولكن بطريقة معكوسة... تُرغم العدو على الاعتراف دون أن نطلب.

لقد ظنّ الاحتلال، ومعه حلفاؤه، أنّ حصار غزة سيكسر شوكة المقاومة. لكن ما حدث هو العكس تمامًا: تحوّلت غزة إلى لاعب إقليمي، يُحسب له ألف حساب، وتحوّلت المقاومة إلى عنوانٍ دبلوماسي حاضر، وإن لم يُعلن رسميًا. ليس لأنها تطلب الشرعية الدولية، بل لأنّ حضورها فرض نفسه بالدم والسلاح والوقت.

منذ طوفان الأقصى، بدأ كثير من الساسة في الغرب يتحدثون عن ضرورة التفاوض مع الفصائل لا حبًا بها، بل اعترافًا بواقع لا يمكن شطبه.

الحديبية لم تكن اعترافًا دينيًا، بل سياسيًا.

وكذلك اليوم، حين يخرج العدو مضطرًا للحديث عن «اتفاقات وقف إطلاق نار»، و«ضمانات دولية»، ويبحث عن وسطاء يفتحون له بوابة الجنوب، فهو يعترف -دون أن يقول- بأنّ ما في غزة ليس مجرد فصيل، بل كيانٌ قائم، يُفاوض ويُهدّد، ويملك أوراق القوة.

بل إنّ الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ بعد الحديبية إلى ملوك العالم، لا تختلف جوهرًا عن الرسائل التي باتت تُقرأ اليوم من طهران إلى موسكو، ومن بيروت إلى صنعاء، عن مستقبل جديد لفلسطين، يُصاغ خارج شروط سايكس بيكو، وبلا إذن من العواصم الغربية.

ولأنّ الحديبية كانت تمهيدًا لفتح مكة، فربما تكون معركة الرواية الجارية الآن -حيث تتكسر الرواية الصهيونية أمام عدسات العالم- هي النسخة المعاصرة من هذا الاتفاق التاريخي.

فالاحتلال لم يعد قادرًا على إقناع أحد بعدالة قضيته. العالم بدأ يرى بعيونه، لا بعيون إعلامه. وفي ذلك وحده، إعلانٌ سياسيّ ضمنيّ بأنّ الكيان الصهيوني بدأ يفقد شرعيته الرمزية... كما فقدت قريش هيبتها بعد الحديبية. الحديبية لم تكن النهاية. كانت النقلة الأخيرة قبل الفتح.

وغزة -إن بقي صبرها وبصيرتها- تُعيد رسم المشهد، بندًا بندًا، خطوة بخطوة حتى يُكتب لها ما كُتب للمدينة من قبل.

خيبر... حين ضُرب الرأس الأخير للغدر

لم تكن خيبر مجرد معركة، بل كانت ضربة في خاصرة المشروع اليهودي داخل الجزيرة العربية.

فبعد أن كُشفت خيانة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، لم يعد بالإمكان ترك خيبر تتحرك بحرية، تموّل الحرب، وتُنسّق المؤامرات، وتُراسل الأعداء.

في خيبر، اجتمعت القوة العسكرية بالدهاء السياسي.

ضُربت القلعة لا انتقامًا، بل لحسم المعركة مع آخر مراكز التأثير اليهودي في الداخل، ولتحصين المدينة من الطعنات القادمة من الخلف.

وغزة اليوم، إن كانت تُشبه المدينة في تحصينها ووعيها، فهي تقترب شيئًا فشيئًا من لحظة خيبر.

فالمعركة الأخيرة – طوفان الأقصى – لم تكن عملية حدودية، بل إشارة إلى أنّ الرأس المُخطّط، لا اليد المنفذة فقط، بات هدفًا مشروعًا.

لم يعد الحديث يدور فقط حول المستوطنين أو جنود الاحتلال، بل حول غرف التنسيق، وضباط الاستخبارات، وشبكات المال والسلاح الداعمة للكيان من الخارج.

وإذا كانت خيبر قد أسقطت الهيبة السياسية والاقتصادية ليهود الجزيرة، فربما نكون اليوم على أبواب مرحلة تضرب النفوذ الصهيوني لا داخل الأرض المحتلة فقط، بل في امتداداته الإقليمية والدولية.

خيبر كانت إعلان نهاية نفوذ... لا نهاية وجود. وغزة تتجه صوب الإعلان ذاته، بخطى ثابتة، وعينها على الرأس لا الذيل.

خاتمة: من خيبر إلى الفتح... الخطوة الأخيرة

ليست السيرة النبوية قصصًا للتأمل، بل دروسًا للتحرّك. وما بين حصار مكة وفتح خيبر، رسم النبي ﷺ طريق النصر خطوة بخطوة، بثبات لا يعرف الانفعال، وببصيرة لا تُخدع بزيف اللحظة.

وغزة اليوم -بصبرها، وثبات رجالها، وذكاء مشروعها- تكتب فصلًا جديدًا من هذه السيرة... لا في كتب التاريخ، بل على أرضٍ مقدسة، تُنبت نصرًا يليق بخاتمة الرسالات.

وإذا كانت مكة قد فُتحت بعد الحديبية، فإن تحرير القدس أقرب مما نتصور.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]

رضوان كسابي

كاتب مغربي

طوفان الأقصى تدبير رباني

إن الفعل المقاوم الذي أطلقته المقاومة بزعامة يحيى السنوار من غزة العزة، لتكسير سكون المياه الآسنة للواقع العربي والإسلامي في علاقته الخضوعية والإنبطاحية تجاه المستعمر الإمبريالي الصهيوغربي.. لأمرٌ عجاب؛ فالوضع في غزة التي تعيش تحت الحصار منذ أن فقأ أبناؤها عيون المحتل من خلال التصويت في انتخابات حرة على حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وفقدان (عباس) وشلته -خاصة الدحلانيون- أي مكانة لهم عند سكان القطاع.

منذ تلك اللحظة بدأ العالم يَشُن حربه القذرة ضد إرادة شعب، فالحرب كما يعلم الجميع هي محاولة طرف فرض إرادته على الطرف الآخر.

ميزان القوة لا يمكن الحديث عنه في هذا السياق، لأن شعب غزة قلة قليلة مؤمنة تواجه على الأقل مليار و٦٠٠ مليون من البشر، المليار هم الغرب وملحقاته وتوابعه، و٦٠٠ مليون هم شعوب غير مُفَعّلة في بلاد العرب والمسلمين المتاخمين لأرض الرباط أرض عسقلان. فالمليونان في غزة حقيقة يواجهون ما لا قِبل لهم به ولا طاقة إلا بعون الله، لكن لربك حكمة ورسالة وتدبير لتحريك وتحرير الـ ٦٠٠ مليون وتحويلهم من وضع المفعول به إلى وضع الفاعل لنصرة المليونين، عوض الغط في نوم عميق.

لكن ذلك التحول من وضع لوضع يقتضي تميز الخبيث من الطيب وتميز الصفوف، وهنا يجب التنبيه إلى أمر مهم وهو كالتالي:

أمر العرب والمسلمين ما لم يبادروا سراعاً وعلى عجل لمساعدة المليونين المرابطين في غزة تحت القصف والتجويع فلا حاجة لرب العالمين بهم وبإيمانهم الكاذب، لذلك وأكثر سيخضعهم الله عز وجل للغربلة وللميز وللفتنة أي للاختبار حتى يفصل منهم الطيب عن الخبيث ويمكن للأول ويذهب الثاني إلى مزابل التاريخ.

فِعل المقاومة في غزة أصيل وقديم وليس السنوار وباقي زعماء المقاومة إلا زمرة من فرسانه الأشاوس، لكن التغيير السُّنَني الحضاري لكي يحدث يجب اجتماع أمرين، الأول بيد المسلم والثاني بيد عدوه..

الأول: هو قرار وإرادة المواجهة مع العدو، رغم البون الشاسع الواسع في العدة والعتاد والحلف والظهير المساند، بينما يكمن قرار العدو الغبي في سعيه لاجتثاث واقتلاع المسلمين المرابطين في غزة عن شأفة أبيهم وقتلهم وتهجير من بقي منهم وإلقائهم في صحراء سيناء.

إن الصدام بين الإرادتين هو المكر الرباني لإحداث التغير الشامل ضد مخيم الكفر الصهيوغربي، الذي استأسد وتوحش منذ ٣ قرون أو أكثر قليلاً، والله ينصر عباده طبعاً من خلال المكر بالعدو وجره جراً للانتحار والموت البطيء عبر دفعه للهيجان والتصرف الهمجي الأرعن في تاريخه من خلال حربه الإجرامية على شعب أعزل.

إن الكيان يمثل الأنموذج العملي التطبيقي للحضارة الغربية الصهيومسيحية، التي تعدّ نفسها سيدة العالم، والتي تغرق نخبها الحاكمة فعلياً من الخلف في عبادة القوة والشيطان مباشرة.

يتقافز بعض الجهلة والدهماء والمتصهينين في لوم المقاومة عن قدحها لشرارة السابع من أكتوبر، نقول لهؤلاء: يا أوغاد ماذا فعلتم أنتم وكياناتكم المهلهلة قبل ذلك بعشرين وستين سنة لإنقاذ الشعب الفلسطيني المسلم من براثن العدو الغاشم؟ هيا أجيبونا يا أوغاد، لا شيء فعلوه لا هم ولا أسيادهم. لماذا يطرحون السؤال؟ لأن مشاهد القتل تذكرهم كل يوم بخيانتهم وخيانة ملوكهم ورؤساء دويلاتهم وأمراء الخزي والعار، تذكرهم بخيانتهم العامة لكل ما هو حق للمسلمين وتذكرهم بأن هناك فعل مقاوم بالأنياب والأظافر وبالحجارة وبالدعاء وبأي شيء. تذكرهم بخذلانهم للمقاومة وللحق الأبلج الواضح!

لأن الفلسطيني في غزة وغير غزة يذكر الأعراب والعجم من المسلمين بحقارة ودونية حياتهم السخيفة والبقرية التي يحرصون عليها أشد الحرص، في زرائب رسم العدو حدودها وأعلامها وسماها أوطاناً ونصب عليها عملاء له. تباً لكم وتب، أتعرفون ما ينتظركم؟

تنتظركم فتنة واختبار الميز بين الطيب والخبيث، ويا له من اختبار صعب، عندما يعتقد هؤلاء الغوغاء أبطال الشاشات الخائنة والمنابر وأعمدة الصحف المأجورة وأمواج الإذاعات الهابطة الذين يلومون المقاومة على قرارها أنهم على حق، تذكرهم صور الأعمال البطولية للمقاومة بخسة وحقارة موقفهم ونتانة أنفاسهم النجسة.

- أيتها الشعوب التي لا تزال تعتقد بحق الشعب الفلسطيني في أرضه والتي لا تزال تتضامن مع حقه في التحرر من نير العبودية والاحتلال الصهيوني الغاشم..

- أيتها الشعوب أنتم أمام خيارات ضئيلة جداً لكنها واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، هناك صفان: صف مقاومة وصف خيانة؛ فلكم حرية الاختيار.

إن وزن الملايين من الشعوب العربية والعجمية المحتلة والمستعبدة بالمنطقة لا قيمة له عند الله عز وجل، ما دامت قبلت باحتلال أوطانها نفسها من قِبل ملوك وسلاطين ورؤساء وجنرالات العار، وسكتّم على فسادهم وإفسادهم لعقائد الأمة وشبابها بكل أشكال المخدرات الصلبة المادية والمعنوية.

إنكم مذنبون ووقت التغيير قد دق، وليس فعل المقاومة إلا تلك الشرارة الربانية التي أراد الله عز وجل تخصيصها لخيرة عباده على الأرض لتكون عبرة لمن يعتبر، ولتطلق العملية التاريخية الصعبة والمؤلمة للتغيير السنني الرباني ضد علو بني إسرائيل الجبروتي الجبان.

إن شعوب المنطقة مدعوة راغبة لذلك أو مُرغمة لتحريك عجلة التغيير التاريخي، وأول بند فيه هو تحطيم أنظمة العمالة والخسة والنذالة، باعتبارها رأس الحربة في المشروع الغربي التغريبي الذي يهدف لتهويد الأمة والسيطرة على دينها وعقائدها، بعد السيطرة على مواردها وجعلها في خدمة بني قردون، وإلحاقها بالمخيم الغربي الصهيوماسوني.

إن الذي يعتقد باستمرار الحال على ما هو عليه من استقرار وسكون آسن وعفن لا ينتج إلا الطغيان وتأله الحكام ومعهم شلة من الأئمة المضلون.. خاطئ؛ فاستمرار الحال من المُحال ويصعب تصديق استمراره لمن يعلم تجاويف التاريخ ولفاته وتدابير رب العالمين ومكره الذي لا يدانيه مكر.

كل من يدافع عن الوضع الحالي تجده مرتاحاً للحياة الدنيا الوضيعة، خاصة في زرائب المنطقة، إن ركونك لِلُعَاعَة الدنيا لأمر خطير، يَلزمك استنفار كل قواك العقلية والإيمانية لتدرك خطورته وخطورة الاستمرار فيه، ليس لي إلا تذكيرك بالحديث النبوي الذي يقول فيه النبي ﷺ:

«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

إن قدح التغيير السنني التاريخي الذي بدأته المقاومة قد انطلق لتعودوا لدينكم شئتم أم أبيتم أيتها الشعوب العربية البئيسة؛ فأنتم مرغمون على القتال، والأفضل أن تأتوه راغبين لا مجرورين، مسلحين بإيمان ودين محمد ﷺ، وليس بأماني وخرافات وأوهام العلاقات الدولية والقانون الدولي وغيرها مما شُحنت بها أمخاخكم!

رئيس الهيئة
د. محمد الصغير

رئيس التحرير
أ. محمد الهامي

السنة الرابعة العدد ٣٩
أغسطس ٢٠٢٥ صفر ١٤٤٧